

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

مناهج الأدلة في عقائد الملة

لابن رشد

مع مُقتدّمه في نقد مدارس علم الكلام

الطبعة الثانية

تقديم وتحقيق

دكتور محمود قاسم

عيد كلية دار العلوم

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦ شارع محمد عبد الحليم (مقابل دار العلوم سابقاً)

١٩٦٤

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ إبراهيم مصطفى إبراهيم
الإسكندرية

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

مناهج الأدلة في عقائد الملة

لابن رشد

مع مُقدِّمته في تقديمه لرسالة علم الكلام

الطبعة الثانية

تقديم وتحقيق

دكتور محمود قاسم

عيد كلية دار العلوم

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦ شارع محمد علي (معارض سابقاً)

١٩٦٤



مقدمة

١ - علم الكلام والفلسفة

ولد ابن رشد في الربع الأول من القرن السادس الهجري . وكانت نشأته في بيت علم ودين ؛ فقد كان أبوه وجده قاضيين في قرطبة ، ثم ولي هو هذا المنصب ، بعد أن اجتاز إليه مناصب أخرى في دولة الموحدين التي أفسحت صدرها لعلبه ، وإن تنكرت له في أواخر أيام حياته . غير أن ابن رشد كان أبعد شهرة من سلفيه في العالم الإسلامي بل في العالم الغربي ، وذلك بسبب اشتغاله بالفلسفة وشروحه لكتب أرسطو . وكان لهذه الشهرة جزيتها أو فداؤها ؛ فإن أمثال ابن رشد كثيرا ما يصبحون ، شاؤا أم لم يشاؤا ، هدفا لحقد العلماء ، وجهل العامة وسخط ذوي الأمر ، أي هدفا لآلهم عوامل الشر في كل مجتمع قديم أو حديث .

وقد كنا نود أن لو عرضنا حياة هذا الفيلسوف بالتفصيل في هذه المقدمة . لكن لا حاجة إلى أن نعيد ما سبق أن قلناه عن تاريخ حياته في موضع آخر^(١) . وربما يغفر لنا رغبتنا عن تكرار أنفسنا أن نشير هنا ، ما وسعنا الإيجاز ، إلى مسألة جوهرية في تاريخ ابن رشد ؛ وأن نقصر في الإشارة إلى هذه المسألة على القدر الذي يمكن أن يلقي ضوءا على آرائه في العقائد الإسلامية ، ويكشف لنا عن حقيقة الخلاف بينه وبين المتكلمين ، وعن سبب العداء بينهم وبينه ، بما أدى إلى نشأة تلك الفكرة السائدة الخاطئة عنه ، فقد وصفه أعداؤه أولا ، ثم وصفه الناس دون بحث بعدم ،

(١) انظر كتابنا ابن رشد وفلسفته الدينية - نصر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٤ .

المجلد الأول والفصل الثاني .

بأنه بعيد عن الروح الإسلامية : إما مروفا وإما زندقة ، أى وصفاً يقترب أو يبتعد به عن الدين ، تبعاً لدرجة الجهل بأرائه . ومن آفات الرأى التقليد .

لقد كان القرن السادس الهجرى فى بلاد الأندلس عصراً كثرت فتنه ، وبدأ فيه مملك المسلمين ينحسر عن تلك البلاد ؛ وفيه شرع الفرنجة يستردون ديارهم ، ويغيرون بعزم على المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم ، فأنشأ أمراؤهم دويلات واهية متناحرة تسيطر عليها النساء ، ويعج فيها البذخ والتظاهر بالقوة ، ويختلف فيها العلماء والفقهاء ، ويحاربها العامة بين هؤلاء وهؤلاء ، وفى أثناء ذلك يتخطفهم العدو من كل جانب . لكن كانت تأتهم النجدة بين حين وحين عبر مضيق جبل طارق ، أى من الجانب الآخر للبحر الأبيض ، حيث كانت تقوم فى ذلك الوقت بعض الدول الإسلامية الكبرى على الشاطئ الأفريقى كدولة المرابطين والموحدين . فكان أهل الأندلس يستردون شيئاً من القوة ، ولكن إلى حين ؛ إذ كلما انقطع عنهم عون أخوانهم من مسلمى أفريقيا عادوا إلى ما كانوا فيه من صراع وانحلال . وقد تجلى هذا الصراع فى مختلف مظاهر الحياة الإسلامية ، فبدأ بين الأمراء ، وتردد صداه فى الطبقة التى تليهم ، وهى طبقة الفقهاء والعلماء ، ثم انتهى إلى قلوب العامة ، فأفسد كل شيء ؛ إذ انتصر هؤلاء لرجال الفقه وأهل الكلام والجدل ، فأخذوا يحاربون معهم العلم والفلسفة . ووجد الفقهاء فى جهل العامة خير حليف ، فأعلنوها حرباً عواناً على أعدائهم ، وأحرقوا كتب الفلسفة . ونفوا الفلاسفة والعلماء . وقدّر لاهل الظاهر أن يغلبوا على أمر الدولة ، وأن يدخلوا فى روع الجمهور أن الفلسفة والعلم مضادان للدين . وحقيقة لم يحارب البحث العقلى قط بمثل العنف الذى حورب به فى المغرب . وربما كان السبب

في ذلك أن مسلمي الأندلس قد تشبهوا بعامة المسيحيين ورجال السكهنوت لديهم ، عند ما كانوا يضطهدون العلم والعلماء في ذلك العصر ؛ في حين أننا نرى عكس هذه الظاهرة في المشرق ؛ إذ انتصر بعض خلفاء العباسيين من أمثال المأمون والمعتصم لأصحاب التفكير النظري من المعتزلة ، وغلوا في الاتِّصار لهم ، فاضطهدوا خصومهم .

* * *

وعلى كل ، لم يكن بد من أن تؤدي المقدمات إلى نتائجها ، فقد شهدت أسبانيا كيف انتهى النزاع بين الأمراء ، ثم الصراع بين الفقهاء والعامة من جهة ، والفلاسفة والعلماء من جهة أخرى ، إلى انهيار الحضارة الإسلامية وإلى انطفاء جذوتها . لكن قبل أن تندثر هذه الشعلة صحت صحوة الموت ، وأشرقت مفعمة كاملة الضياء ، مثلثة في تفكير ابن رشد . ثم انتقلت إلى أوروبا فأيقظتها ، بينما ضاقت بها بلاد المسلمين ، كما ضاقت بها صدورهم من قبل فصرفوا أعينهم عنها ، ورضوا أن يسلكوا سبيل الجود والتقليد ، فساروا في طريقهم نحو عصور الفتور أو الركود التي بدأت حقيقة من القرن الثاني عشر أو قبله بقليل ، ثم استمرت تزداد حلكة حتى بلغت الغاية القصوى في أثناء القرن الثامن عشر ، حيث انحسرت الحضارة الإسلامية حتى كادت تفيض . لكن لم يستطع الجود وأعوانه أن يقضوا تماماً على آثار هذه الحضارة . وجاء العالم الغربي من جانب آخر يستعمر بلاد المسلمين فحدثت الصدمة الكبرى ، ونمت تلك الجرثومة الواهية في نفوس كانت خامدة ، فبدأ يشع قيس من التفكير العقلي حمله جمال الدين الأفغاني ، ومن بعده تلميذه محمد عبده ، كما حمله آخرون قبلهم في بلاد الهند . وكان هذا القيس الجديد هو الذي حاول فقهاء الأندلس وغوغاؤها أن يطفئوه في القرن الثاني عشر . إن نهضة البلاد الإسلامية في العصر الأخير تنسم

بعودة فكرة الاعتزال المعتدل وتمجيد العلم والعناية بالفلسفة ، على عكس ما أراده لها أهل الظاهر الذين كانوا يظنون أن دينهم يخشى تقدم العلم ، مع أنه لا يتضح في أذهان معتنقيه إلا إذا سار مع العلم جنباً إلى جنب ؛ لأن الجود والتقليد من أقتل أعدائه .

أما في عصر ابن رشد فكان التفسير النظري في طريق الاختصار ، بعد أن كتبت الغلبة لأهل الظاهر . حقاً كانت آراء هذا الفيلسوف زبدة الحضارة العربية والتفسير الإسلامي ، ولكنها جاءت متأخرة . ولذا قوبلت بالعداء ، والجود فوصف صاحبها بأنه إمام المأجدين . وما كان يستطيع أن يقف وحده أمام موجة الجهل الزاحفة التي تصحب دائماً نهيار الحضارات ، أي أن آراء ابن رشد وجدت أمامها عدوين لاسيل إلى الغلبة عليهما ؛ إذ ماذا يستطيع هذا الفيلسوف أمام التدهور السياسي الذي يتحالف مع الجود الفكري ؟ لقد كتبت الغلبة لجماعة من الفقهاء الذين سيطروا على العقلية الإسلامية ، فكادوا يقضون على خصائصها بسبب غلوهم في التفريع والجدل والتشدد وفرض أنفسهم وآرائهم على ضمائر الآخرين وخلجات صدورهم ، مما بعث اليأس في النفوس وصرفها إلى سبيل أخرى علمها تجد فيها متنفساً ؛ فقد انسأقت إلى نوع من التصوف الغريب الذي حاول أصحابه أن يفروا إليه بأنفسهم من تشدد الفقهاء وقعنهم وجدلهم وفروضهم التي لا تنتهي عند حد . فكأنما آلم هؤلاء ألا يثقلوا على الناس بعلمهم ، فأكرههم على تتبعهم في مسائل خلافة تافهة لا طائل تحتها . وهكذا تحجر العلم ، وعسر التأليف ، وتعدت العبارة ، واستغلقت الكتب ، وفترت الهمم ، وثقلت التكليف ، نجاء اليأس يزيح عن السكواهل عبء الجهل ، ويمسح سبة التقصير ، وانحدر الناس شيئاً فشيئاً في تصوفهم وتواكلهم إلى فنون من الشعوذة والعقائد

الفاصلة التي قد تصل إلى مرتبة الشرك ، كاستقديس الأولياء وطلب الشفاعة منهم ، حتى صبح أن يقال إن حال المسلمين في العصر الراهن ، أو قبيل هذا العصر ، لا تعبر عن حقيقة دينهم الذي لا يفهمونه حق الفهم ؛ ولذا أصبحوا أذلاء مستضعفين بينما يريدون دينهم أن يكون أعزاء أقوياء .

لقد تصدع الصرح ، وتشتت الفكر ، ولعب أهل الجدل دورهم في هدم هذا البناء العتيق عن غير قصد . ذلك أنهم فرقوا ، دون أن يعلموا ، بين قلوب المسلمين ، وأباحوا لهم أن ينصرفوا إلى تكفير بعضهم بعضاً ، وإلى تقليد شيوخهم وتعطيل عقولهم ، كما سولوا لهم - عن قصد أو غير قصد أيضاً - أن يخالفوا الرسول بأن يبحثوا في ذات الله وصفاته ، بدلا من أن يتفكروا في خلق الله . ومن جانب آخر ليس لنا أن نغفل نصيب بعض أهل التصوف في القضاء على الحضارة الإسلامية ؛ فقد صرفوا الناس ، عمداً أو عفواً ، عن العلم حينما زعموا لهم أن المعرفة لا تكتسب بالجهد والبحث والملاحظة والتجارب ؛ بل هي نوع من المعجزات . ألا تفيض المعرفة ، في ظنهم ، فيضانا فتغمر قلوب هؤلاء الذين عرفوا كيف يسلكون معارج الطريق ؟ قد يقال : إنما نقسو على أهل الجدل والتصوف ، أو أننا نمجد العلم أكثر مما ينبغي له ؟ وقد يظن أننا نعبء عن وجهة نظر فردية ؛ لكننا على يقين من أن هذه الفكرة هي التي توجهنا معرفة تاريخ التفكير الإسلامي . فلقد تفرقت هذه الأمة وأصبحت فرقا وشيعاً ، وانصرفت كل فرقة أو شعبة منها إلى الجدل واللجاج والتظاهر بالمعرفة ، ولو كان هذا التظاهر على حساب التفكير السليم والأسس المنطقية . ثم انتهى الجدل بأن فرح كل بما لديه ، وظن أنه على الحق وحده ، فأخذ يكفر غيره ، مع أنه لا يحق لمسلم أن يحكم بالمرؤق على آخر إلا إذا شق عن قلبه بسيفه ، ليرى إن كان يعتقد

ما يقول ، أو يبطن غير ما يظهر . (١)

وآثرت جماعة أخرى ربما كانت أرق عاطفة ، أو أقل جلدأ على الصراع ، أن تقول بالعلم اللدني والفيض الصوفي ، أى بالعلم الذى لا يتطلب جهداً ولا نصيباً ، وإنما يقود إلى التواكل والشعوذة ، لأنه يتطلب من غير منابعه ، ويعتمد فيه على غير وسائله . وهكذا أصبح لكل فرد أمة وحده في تفكيره وعقيدته ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .

وانقلب الإيمان ، الذى كان سبباً في توحيد القلوب ، وبعث أمة بما يشبهه العدم ، شيئاً يحتسره جماعة من الناس يقولون إنهم هم الذين يمثلونه خير تمثيل ، وهم الذين يعترفون بوجوده لدى غيرهم ، أو ينكرون وجوده لدى من يخالفهم في الرأي ، أى أصبحت مسألة الإيمان سلاحاً يستخدمه الفقهاء أو الجمهور ، كل حسب هواه ، لكي يهدم به الآخرين ، فيطعن في عقائدهم ؛ بل يستطيع توجيهه إلى صدر كل من دعا إلى التفكير الإسلامى الصحيح . فلا تكاد نرى مصلحاً يدعو إلى ترك الخلاف الجدل إلا أُرِى بالكفر أو الزندقة ، وإلا أثارها جرباً عرناً على نفسه ، كما وقع لابن رشد ، وكما وقع لجمال الدين وغيره في العصر الحديث .

* * *

ومن العجيب حقاً أن علماء الكلام رموا الفلاسفة بالكفر وعابوا عليهم منهجهم ، وظنوا أنهم أقرب إلى روح الإسلام من أمثال الكندي وابن رشد ، مع أننا نستطيع البرهنة ، وسنبرهن بالفعل ، على أنهم لم ينصفوا الفلاسفة ، ولم ينصفوا أنفسهم ، عندما ظنوا أنهم أكثر فهماً للعقائد

(١) قتل أحد الصحابة مبركا نطق بالشهادتين ؛ لأنه اعتقد أنه لم ينطق بهما إلا فراراً من حدا السيف ، فغضب الرسول عليه السلام وقال له ما مماناه هل شققت عن قلبه لتعلم إن كان مؤمناً أو غير مؤمن .

هذا الدين من غيرهم فقد كان منهج الكندي وابن رشد في كثير من المسائل هو منهج القرآن الكريم ؛ في حين أن المتكلمين ، أشاعرة أم معتزلة ، اتبعوا منهجاً فلسفياً أقل وضوحاً وقوة . وإنما كان منهجهم منهجاً واهياً لأنه كان منهج جدل ، لا منهج إقناع ، ولذا فهو لا يصاح — في الحقيقة — لا للعلماء ولا للعامة^(١) ؛ بل هو أعجز عن أن يقنع المتكلمين أنفسهم . والدليل على ذلك أنهم لم يؤلفوا جهة واحدة ، واختلفوا فيما بينهم ، ولم يعلموا أن خلافهم في كثير من المسائل يرجع إلى سوء تحديدهم لها . فالمنهج الخاطئ يؤدي إلى نتائج خاطئة . وربما كانت أهم هذه النتائج هي أن طرق المتكلمين في البرهنة على العقائد الإسلامية تثير من الشبه أكثر مما تدعو إلى الإقناع ، أو أن المشاكل التي فرقت بين الأشاعرة والماتريدية أو بينهم وبين المعتزلة كانت مشاكل لفظية ؛ إذ لو عولجت المسائل بطريقة علمية منطقية بعيدة عن روح التعصب والتقليد ، لوجد هؤلاء في الأغلب أنهم يقولون شيئاً واحداً . لقد اختلفوا في مسألة الصفات الإلهية والعلة بينها وبين الذات ، كما اختلفوا في مسألة الجهة بالنسبة إليه تعالى ، وفي إمكان أو استحالة رؤيته في الحياة الأخرى . وفي الحسن والقيبح : هل يوجدان كذلك بالنسبة إلى الله تعالى ، كما هي الحال بالنسبة إلى الإنسان أو لم يتفقا ، كما يقال ؛ في مسألة العدل والجور والقضاء والقدر ، والسكسب والخلق ، وأفعال العبيد ، وهل تصلح قدرته للضدين ، وهل هناك ضرورة لفعل الصلاح والأصلح ، وهل يجب إرسال الرسل ، وماذا أدرى أيضاً ؟ في الجملة لم يغادروا صغيرة أو كبيرة في أمور العقائد إلا اختلفوا فيها كثيراً أو قليلاً . وما كان لهم إلا أن يختلفوا طالما كانوا يנהجون منهج الجدل ، وطالما ينسون ، في كثير من الأحيان ، أنه لا يحق للباحث في مسائل

(١) يرى الإمام الغزالي أن الإيمان الذي يورثه علم السكسب أضغاث من إيمان العوام الذين يمسكون مسالك الفطرة السامية .

الدين أن يطبق الاعتبارات الإنسانية على الأمور الإلهية ، وأن الإسلام جاء يظهر العقائد من تلك الخرافات التي حجبها ومسختها ، بسبب المماثلة بين الخالق والمخلوق كما فعل اليهود ، أو بين المخلوق والخالق كما رأى النصارى . لقد جاء القرآن بقوله تعالى : « ليس كمثل شيء » ، ولكن أهل الجدل نسوا في حومة لجهم أن يرجعوا إلى هذه الآية دائماً ، فعالجوا صفات الله كما لو كانت صفات إنسانية ، وتساءلوا مثلاً عن علمه أهو كلى أو جزئى ، وعن إرادته أهى قديمة أو حادثة ، وهل يخلق أفعال العبد أم العبد هو الذى يخلقها أو يكسبها ؟

* * *

إن هذه الفكرة التى نعرضها هنا قد تبدو لبعض الباحثين فى علم الكلام أو لغيرهم بمظهر القول الذى يلقى على عواهنه ، أو القضية التى تغلب عليهم مسحة الغلو . لكننا نطمئن هؤلاء وهؤلاء أننا لا نقدم وجهة نظراً عزولاً ، بل سنبرهن على صدقها . ثم لا يفزعنا بعد ذلك أن يشور على رأينا ثار ، فإننا لا نريد بذلك الرأى إلا وجه الحق وحده ، ولأننا لا نبتغ سوى الخير عندما نحاول القضاء على مظاهر الخلاف بين الفرق الكلامية ولو أدى ذلك إلى كشف النقاب عن كثير من مشاكلهم اللفظية : وإذا انتهى إلى الاعتراف بوجود مشكلة أو أكثر من المشاكل الحقيقية ، فسنبين أن ذلك لا يمس أصلاً من أصول الإيمان إلى الحد الذى يوجب تسكير الخصوم بعضهم بعضاً ، كمسألة اختلافهم فى مرتكب الكبيرة : أيعذب فى النار أم تغفر له خطيئته ؛ أو بعبارة أخرى أيعده مؤمناً أو فى منزلة الإيمان والكفر ؟ فإن هذا الاختلاف لا ينفى اعتراف الفريقين بأصول الإيمان المقررة .

٢ - أدلة وجود الله

اتفق الأشاعرة مع المعتزلة، والفلاسفة أيضاً، في تلك القضية الكبرى وهي أن الإيمان بوجود الله لا يكون إلا باستخدام العقل والاعتماد عليه . وهكذا تتميز المدارس الكلامية بسمة واضحة عن أهل الظاهر الذين يقررون أن العقل لا دخل له في الإيمان بأصل العقائد جميعها ، أى بوجود الله ؛ بل ذلك مرجعه في رأيهم إلى الوحي وحده . كان التصديق بالوحي نفسه لا يحتاج إلى استخدام العقل ؛ كذلك رأوا ضرورة التزام النصوص دون محاولة تأويلها ، ولو كان الأمر بصدد تلك الآيات التي توهم التشبيه والتجسيم . فمن العبث إذن أن نشغل أنفسنا بنقد مذهب القوم ، ولنا أن تتمثل في أمرهم بما قاله فيهم ابن رشد من أنه متى وجد جماعة من الناس يعجزون عن استخدام عقولهم في معرفة وجود الله فما عليهم إلا أن يؤمنوا به بالطريقة التي يرتضونها . وليس لنا أن نصف هذا النفر القليل بالبدعة أو الزيغ ، وليس من هدفنا أن نسخر منهم عند ما نقول لأنهم لم يرتقوا إلى المستوى الذى يتطلبه الإسلام من معتنقيه ، أى إلى مستوى الإيمان بالله عن طريق التفكير والنظر ، لا عن طريق النقل والتقليد ، والقول بأننا قد وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمقتدون .

فلنعد إذن إلى المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة الذين ارتضوا أن يتبعوا ما أمر الله به حين قال في كتابه الكريم : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقرم يعقلون ^(١) » . فإذا نحن عهدنا إليهم وجدنا أنهم ، وإن وجدوا في أمثال

(١) البقرة آية ١٦٤ .

هذه الآية دعوة إلى إثبات وجود الله بالعقل ، فإنهم لم يوفتوا في الكشف عن الأدلة البرهانية التي احتوى عليها كتاب الله ، وإنما جنحوا إلى استخدام أدلة أخرى عليها مسحة غالبية من الجدل السكريه الذي نصفه هذا الوصف ؛ لأنه يشير من الشكوك أكثر مما يدعو إلى الإقناع^(١) . وأشهر أدلتهم الجدلية في هذا الموضوع دليلان هما : دليل الجوهر الفرد ، ودليل الممكن والواجب .

١ - أدلة المفردة والاشاعة :

١ - دليل الجوهر الفرد :

أما دليل الجوهر الفرد فيتلخص في أن الأشياء المادية تتقلب عليها أحوال تعرض لها ، ثم تنتقل منها ، لتحل مكانها أعراض أخرى ، من الأشكال والألوان ، والحركات والنمو والانحيار ، وغير ذلك من التغيرات التي تطرأ على جميع الكائنات . وهذه الكائنات تقبل القسمة تدريجياً حتى تنتهي إلى أجزاء لا تتجزأ ، وهي التي يطلقون على كل جزء منها اسم الجوهر الفرد . فإذا كانت الجواهر لا تنفك عن الأعراض ، وكانت الأعراض حادثة ، وجب أن تكون الجواهر خادثة ، لأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، تبعاً لمبدئهم الكلامي المشهور . وما دام العالم حادثاً في جواهره وأعراضه فلا بد له من محدث ، وهو الله .

ولكن كيف عرفوا أن هناك جوهرأ فرداً ، وأن لهم بمعرفة حقيقة هذا الجوهر ؟ أيعلمون مثلاً أن نظرية الجوهر الفرد ليست إسلامياً ولا شرعية ، وإنما هي نظرية إغريقية ، وهي مذهب الذرات لدى ديمقريطس ، ذلك المذهب الذي كان موضع مناقشة وشك في العصر القديم

(١) هذا هو رأى الإمام الغزالي في كثير من كتبه : انظر كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة وكتاب إلبام العوام عن علم الكلام .

والذى استخدم فى القول بتقديم العالم وفى انكار وجود الله . ومع ذلك فان الفلاسفة القدماء لم يسلخوا جميعاً بوجود هذه الذرات . وليس لأحد أن يحتج للمتكلمين بأن العلم الحديث قد كشف عن ذرات فإن فكرة ديمقريطس عنها ، وفكرة المتكلمين أيضاً ، تختلف تماماً عن فكرة علماء عصرنا . ثم ما عسى أن يفهم الرجل العادى من أمر الجوهر الفرد ؟ وهل كان تلاميذ الأشاعرة والمعتزلة أسعد حظاً من الرجل العادى فى وقتنا الراهن مع تقدم العلم وانتشاره ؟ إن هؤلاء الذين يستطيعون فهم نظرية الذرة قلة نادرة من الخاصة ، فكيف يبرهن أولاً على حدوثها ، ثم كيف نتخذها دليلاً على وجود الله ؟

ثم ما معنى أن الأعراض التى يتحدث عنها المتكلمون حادثة ؟ وهل فى استطاعة أحد من الناس أن يؤكد حدوثها جميعاً . حقاً إن هناك حالات تطرأ على الأجسام تحت سمعنا وبصرنا ، وعلى نحو لا يدعو إلى الشك فى حدوثها . ^(١) لكن هناك حالات أو أعراض أخرى لا تكفى التجارب والملاحظات فى إثبات حدوثها كحركة العالم والزمان الذى تستغلرقة هذه الحركة . إذن لا يصدق القول بحدوث الأعراض إلا بالنسبة إلى تلك التى نشعر بحدوثها حقيقة . أما تلك التى لا نحس كيف حدثت ، فإن المشكلة تظل قائمة بصدد ما ، أى تتطلب حلاً . وهكذا لم يفتن المتكلمون — كما لاحظ ابن رشد — إلى أن القول بحدوث بعض الأعراض لا يبرر القول بحدوثها جميعاً . فذلك إذن شبهة تثيرها نظريتهم ، وهى وحدها دليل على أن برهانهم ليس منطقياً ولا علمياً ؛ لأن البرهان حقيقة هو الذى يقضى على كل شبهة لبدايته ، ومن ثم يفرض نفسه على العقل فضلاً ^(٢) .

(١) انظر رأى ابن رشد فى البرهنة على حدوث العالم ص ٩٠ و ص ١٠٤ وما بعدها من كتابنا ابن رشد وفلسفته الدينية .

وهناك شبهة أخرى . ذلك أننا إذا سلينا معهم بأن العالم حادث بحدوث الجواهر والأعراض فيه فإنه يبقى علينا أن نتساءل : إذا اقتضت إرادة الله أن يوجد العالم ، بعد أن لم يكن ، فهل يعتبر كل من الإرادة وفعل الإيجاد حادثاً أم قديماً ؟ وإذا نحن استخدمنا طريقة المتكلمين في التفريع أو التقسيم ، وأخذنا عنهم أساليبهم ، وجدنا أن الأمر لا يخلو من أحد أمور ثلاثة ، أى أن هناك احتمالات ثلاثة : فإما أن تكون الإرادة قديمة وفعل الإيجاد حادثاً ، وإما أن تكون الإرادة حادثة وفعل الإيجاد حادثاً ، وإما أن تكون الإرادة والفعل قديمين^(١) . لكن الأشعرية يرفضون الاحتمالين الأولين ، ويقولون إن إرادة الله قديمة وفعل الخلق قديم أيضاً^(٢) . وعندئذ تظل شبهة أخرى برأسها ، وهى كيف يمكن أن يوجد شيء حادث بفعل قديم ، مع أننا نقول إن ما يقرن بالحوادث فهو حادث . ثم هاك شبهة أخرى ، وهى أن الإرادة إذا كانت قديمة فلا بد أن تكون سابقة للشيء الحادث بوقت معين . فإذا رأيت إيجاده تساءلت هل طرأت عليها حال لم تكن فيها من قبل ، أى هل وجد عزم على إيجاد الشيء في ذلك الوقت دون غيره ، أى هل وجدت إرادة جديدة ، ولولا ذلك لما فهمنا السبب في ترجيح وجود الشيء على عدمه في لحظة معينة ؟

فما جواب علماء الكلام على مثل هذه الاعتراضات ؟ ربما لا يعدمون جواباً . وإذا فرضنا قطعاً لمشقة الجدل المقيم معهم أو مع أنصارهم ، أنهم استطاعوا أن يتخيلوا حلولاً أخرى أكثر تعقيداً وتفريعاً وإجهاذاً من السابقة وسلمنا لهم ، عن طيب خاطر على الرغم من ذلك كله ، بأن حلولهم حاسمة ومفحمة ، وأنها لن تثير شبهة جديدة ، فهل تلك هى

(١) أما القسم الرابع فلا يتصور ، وهو أن يكون الفعل قديماً والإرادة حادثة لأن الإرادة شرط في الفعل .

(٢) أما المعتزلة فيرون أن الإرادة صفة حادثة لأنها من صفات الأفعال . انظر الفقرة الخامسة من هذه المقدمة .

الطريقة السهلة الواضحة التي أراد الله لعباده أن يتبعوها في الإيمان بوجوده؟ أو ليست هناك طرق أخرى أكثر بداهة، وأيسر فهماً، وأقرب إلى عقول العامة من نظرية الجوهر الفرد التي يبدو فيها طابع التكلف، والتي تشهد برغبة هؤلاء المتكلمين في أن يزوها على الناس بجدلم ولو انتهى بالآخرين إلى النفور والضجر؟

إن مشكلة البرهنة على وجود الله لاكثر يسراً من أن يتخيل المتكلمون حلها بطريقة الجوهر الفرد. ولو رجع هؤلاء إلى المصدر الأول لديهم، أي إلى القرآن لوجدوا في أدلته غناء، ولرحموا عقول العامة ولما كفروهم مالا يطبقون. ولو صح أن أدلتهم على صعوبتها وتعقيدها كانت منطقية فلربما شعر بعض الناس بنحوم بعاطفة من يحيا الإشفاق والتقدير. لكن هذه الأدلة لم تهبط إلى مستوى العامة ولم ترتفع إلى مستوى الخاصة. وإنما لم تكن منطقية لأن البرهان المنطقي هو الذي يفرض نفسه على العقول في مختلف مستوياتها. والفارق هنا بين أدنى المستويات وأعلاها هو أن العامة تسلم بالدليل المنطقي إجمالاً، بينما تسلم به الخاصة من العلماء إجمالاً وتفصيلاً.

٢ - دليل الممكن والواجب :

أما هذا الدليل الثاني الذي نسبته ابن رشد إلى أبي المعالي فليس دليلاً قرآنياً؛ بل نجده في الحقيقة مضاداً لأدلة الكتاب الكريم. (وهو ينحصر في القول بأن العالم، بجميع ما فيه، يمكن أن يوجد على حال مختلفة تماماً عما هو عليه. فمن الممكن أن تنعكس حركاته رأساً على عقب، فتصبح الحركة الشرقية غربية والغربية شرقية. ومن الجائز أن يصعد الحجر، إلى أعلى بدلاً من أن يسقط نحو الأرض. وليس هناك ما يحول عقلاً، في ظن أصحاب هذا الدليل، دون أن يحتل السكون بأسره مكاناً آخر.

في الفضاء غير الذي يشغله في الوقت الحاضر . وفي وسعنا أن نستنبط من هذا الإمكان الذي لا حدود له صنوف إمكان أخرى قد لا يرضاها المتكلمون ، أو من يتبع سبيلهم ، أو ربما قبلوها حتى يكونوا على وفاق مع أنفسهم ، فنقول إن العالم الحالى ليس أفضل عالم ممكن ، ومن الجائز عقلاً أن الله كان يستطيع أن يخلق عالماً أفضل منه ؛ إذ ليس مكلفاً بفعل الأصلح على رأى فريق هام من المتكلمين وهم الأشعرية . وهكذا يتضح أننا لا نتجنى على المتكلمين ، أو على بعضهم ، عندما نضع مثل هذا الفرض . فإن توماس الأكويني وهو أحد أتباعهم من المفكرين المسيحيين في المصور الوسطى يقول إن العالم الموجود ليس أفضل عالم ممكن ؛ بل من الممكن أن يوجد أفضل منه . كأن الرغبة في تأكيد المشيئة الإلهية الكاملة توجب لدى هذا المفكر وأمثاله أن ينتقص من حكمته تعالى .

فهل يحق لنا أن ننظر إلى هذا الدليل نظرتنا إلى برهان منطقي شرعى يقره العقل ولا تضطرب له العقيدة ؟ لأنهم يرون إمكان وجود الشيء الواحد على نحو مختلف تماماً عما هو عليه الآن . غير أن الواقع بكذبهم فإننا نلص بحواسنا أن لكل نوع من الأنواع خلقته الخاصة به ؛ وقد نهتدى إلى معرفة بعض الحكمة في وجود نوع ما على هيئة أو في وضع خاص ، بما يوحى إلينا بأن هناك أسباباً ثابتة أودعها الله في الكون . أما عن حركات العالم وأشكاله التى يقولون بجواز وجود أضدادها ، فنرى أن رأيهم في هذه المسألة ليس إلا قولاً لا دليل عليه . وغاية ما هنالك أنهم يريدون إنكار وجود الأسباب الطبيعية التى خلقها الله . وقد نسي هؤلاء أمراً له خطره ، وهو أننا إذا كنا نجهل السبب في أن الحركة شرقية أو غربية فليس معنى ذلك أن هذا السبب غير موجود . فهناك إذن أسباب للحركات السماوية ، وإذا كانت هذه الأسباب مجهولة لدى

طائفة من الناس فليس معنى هذا أيضاً أن الحركات جائزة . إن جهلنا بحقائق الأشياء لا يصلح مطلقاً أن يكون مقياساً لدرجة الإمكان فيها ، أى أنه ليس لأحد أن يتخذ من جهله سبيلاً إلى القول بجواز أن يكون العالم على نحو أفضل أو أقل مما هو عليه . ولا ريب في أن دليل المتكلمين هنا يهدم فكرة علمية صادقة ، وهى فكرة القوانين ، وقد أجاد ابن رشد وصفهم عندما شبههم بالرجل الجاهل الذى يرى أن الأشياء المصنوعة يمكن أن تكون على خلاف ما هى عليه ، وذلك فى الوقت الذى يعلم فيه (صانعها) أو من عنده معرفة بطريقة صنعها ، أن هناك أسباباً وقواعد محددة لا من اتباعها حتى يتم صنع الشيء على النحو الذى نراه ، بحيث إذا اختلفت الأسباب والقواعد نجم عن ذلك شئ آخر مختلف تماماً .

كذلك لا يسير هذا الدليل فى الاتجاه السليم للعقيدة ، إذ يشبه أن يسكون إنكاراً لحكمة الله تعالى وعلمه ؛ إذ لو كان يمكن أن توجد الأشياء أو تصنع على نحو أو بشكل آخر لما كان وجودها الخالق ذالاً على حكمة أو علم ، أى لو لم تكن هناك أسباب تحدد وجودها والغاية منها لما كانت هناك الخالق معرفة تخصه دون المخلوقات ، ولما كان فى ذلك إنكار لحكمته تعالى . فإن الحكمة ليست ، فى التحليل الأخير ، بموى معرفة الغاية من وجود الشئ وتحديد الأسباب التى تقضى إلى تحقيق هذه الغاية .

وفى نهاية الأمر ، لو صرفنا النظر عن هذا كله ، فسلنا معهم أن العالم يمكن ، وأنه حادث تبعاً لذلك ، وأنه يحتاج إلى موجد يوجده ، فإننا نعود مرة أخرى إلى الاعتراض الذى رأيناه منذ قليل فى حديثنا عن الدليل السابق ، وهو يتحدث العالم عن إرادة قديمة وفعل قديم ، أم عن إرادة قديمة وفعل حادث ، أم عن إرادة حادثة وفعل حادث ؟ حقاً إنهم يرفضون الاحتمالين الآخرين ، ويقولون يحدث العالم بإرادة قديمة وفعل قديم

فيعترض عليهم من جديد فيقال : إن خروج الجائز إلى حيز الوجود يقتضي تغييراً في الإرادة القديمة . ومن ثم لا بد من القول بحدوث الإرادة مع حدوث المراد . وهم يمجزون عن دفع هذه الشبهة . وإن استطاعوا دفعها فسيظل محققاً على الدوام أنهم هم الذين أثاروها . وربما استطاعوا أن ينزعوا الشبهة من عقولهم هم ، لا من عقول من يتبعهم في أدلتهم الجدلية . وهذا — كما ترى — جدل غير مجد وإبطال لقوة الإيمان في النفوس . وسبب ذلك كله أن المتكلمين يتكلمون عن الإرادة والفعل والإيجاد والخلق بمعانها الإنسانية ، فيظنون أن الخلق الإلهي يحتاج إلى زمن ومادة كخلق الإنساني ، وأن الإرادة الإلهية يمكن أن تتردد بين جائزين ، كما هي حال في الإرادة الإنسانية .

وعما يدعو إلى الدهشة حقاً أن المتكلمين تركوا أدلة القرآن ، ولجأوا إلى هذه الأدلة التي تقوم على أساس من الجعل ، وتنطوي أحياناً على مماثلة بين العالم الإلهي والعالم الإنساني . ولذا فن الطبيعي أنهم أثاروا مشاكل مزعومة لا يحدها من يتبع أدلة الشرع . فالقرآن لا يتكلم عن إرادة حادثة أو قديمة ، ويكتفي بأن يقول إن الله يوجد الأشياء بإرادته . إن فكرة الحدوث أو القدم مترتبة على فكرة الزمن . والزمن نفسه فكرة إنسانية لا سبيل إلى تطبيقها على الإرادة الإلهية .

ب - أدلة الماتريدي :

وهناك مدرسة ثالثة من المتكلمين ، وفريدها مدرسة أبي منصور الماتريدي ، تلك المدرسة التي أرادت ، هي الأخرى ، أن تجمع بين الشرع والعقل . وهي في رأينا أقرب إلى المعتزلة منها إلى الأشاعرة ، على عكس مهاجرت به الآراء السائدة وسيتاح لنا في غضون مناقشة مناهج المتكلمين ، في البرهنة على المسائل الدينية ، أن نبرهن على صدق دعوانا .

لقد أخذ الماتريدي على الفلاسفة أن منهجهم في جملة ليس بالمنهج القويم، لأنهم يتبعون طريقة عقلية بحتة . وما علمنا أن أنباع العقل ليس منهجاً قوياً في نظر المسلمين ، أو في نظر الإسلام على الأقل ، وما علمنا أن الفلسفة الإسلامية كانت عقلية بحتة ؛ بل نعلم على عكس ذلك أنها ليست في جملتها وتفصيلها إلا محاولة للتوفيق بين الدين والعقل . ومع هذا فإنه يعني في هذا المقام أن نبين منهج الماتريدي في إثبات وجود الله أنرى هل كان منهجاً منطقياً وشرعياً في آن واحد؟ وهل عجز الفلاسفة عن أن يقبل ومن بعد ، عن السمو إلى مرتبته ؟ وسوف نعرض أدلته على حدود العالم لنبين أنها جمعت ، إلى جانب أدلة القرآن وفلاسفة المسلمين ، أدلة أخرى تشبه أدلة الأشاعرة والمعتزلة في ضعفها وسقوطها ومضادتها لروح الشرع .

١ - دليل الأشياء الحية وغير الحية :

يرى الماتريدي أولاً أنه ليس من الممكن أن ينكر أحد من الناس حدوث نفسه ؛ إذ لو ادعى أحد منهم لنفسه القدم لعرف من تلقاء ذاته أنه كاذب والكذب به الناس جميعاً . وإذن فمن الممكن استنباط دليل على

تلقح الآتي :

الأحياء جميعها حادثة . الأحياء تستخدم الأشياء غير الحية .

فتودى هاتان المقدمتان ، في رأى الماتريدي ، إلى أن جميع الأشياء غير الحية حادثة .

فهل هذا هو المنهج البديهي ؟ وهل هذا هو المنطق الذي يطابق الشرع ؟ ليس المرء في حاجة إلى دراسة أساليب المنطق وقواعده حتى يعلم بقطرته ؛ أنه أمام دليل فاسد سفسطائي . أما إذا كان من هؤلاء الذين أفسد

الجدال استعدادهم الطبيعي ، فمن الممكن أن نستخدم معه منطق أرسطو .
لكي نبين له أننا نوجد هنا أمام قياس من الشكل الثالث ، وأن النتيجة
الطبيعية له هي : بعض الحادث يستخدم الأشياء غير الحية . فأى صلة إذن
بين هذه النتيجة وبين إثبات حدوث العالم في جميع أجزائه الحية .
وغير الحية ؟

وأشد غرابة من هذا الاستدلال العجيب في ذاته أن الماتريدي يسلك
مسلكاً مضاداً له في موضع آخر ، فيقول : إذا ثبت حدوث الجواهر التي
لا توصف بالحياة كان الأحياء أحق بهذا الوصف ، لأنهم خلقوا منها
ويعيشون وينتفعون بها .

ويمكن تحديد تفكيره هنا على هيئة قياس يؤدي إلى نتيجة مختلفة
تماماً عن تلك التي انتهى إليها هو نفسه ، فنقول :

الأشياء غير الحية حادثة . والأشياء غير الحية أساس للكائنات الحية .
إذن بعض الحادث أساس للكائنات الحية .

وهذا شيء آخر غير الذي يريد الماتريدي إثباته .

م. ر. ك. م. ط. ر.

٢ - دليل الأعراض المتضادة :

م. ر. ك. م. ط. ر. في العبارة الآتية :

محال أن يكون العالم قديماً ، نظراً لما يطرأ عليه من أحوال متضادة
كالسكون والحركة والحسن والقبح .

أما صيغته القياسية فهي : الأحوال حادثة في العالم . وما لا يخلو عن
الحوادث هو حادث .

وبديهي أن هذا البرهان نسخة من برهان الجواهر والأعراض لدى
الاشاعرة والمعتزلة .

٣- برهانه المتناهي واللامتناهي :

العالم متناه . . . المتناهي حادث . . . العالم حادث .
وهو ليس برهاناً جديداً . وإنما هو مأخوذ عن السكندى . لكنه
عند هذا الأخير برهان رياضي ما نظن أن المازيدي عني بالوقوف على
تفاصيله . (١)]

ومن الواضح أن هذه الأدلة الثلاثة ليست بتلك التي جاء ذكرها
في القرآن . وإنما أغفلها لعله وجيهة ؛ إذ ليس من المعقول أن يطلب إلى العامة
أن تسلم بوجود الله عن طريق برهان خاطئ كالدليل الأول ، أو عن طريق
نظرية مشكوك فيها كـنظرية الجوهر الفرد ، أو عن طريق برهان منطقي سليم
لكنه يعتمد على أصول رياضية ، قل أن يهتدى إليها الباحثون ، ولو كانوا
من الفلاسفة . (٢)

٤- دليل السببية والتعبدية :

غير أننا لن ننصف المازيدي لو لم نشر إلى الأدلة الأخرى التي
استخدمها في إثبات وجود الله بطريقة يقللها العقل . فلنذكر هذه الأدلة
إذن بصفة إجمالية ، لكي نعتزف له بشيء من الفضل . لقد أخذ هذه الأدلة
عن القرآن الكريم أو عن الفلاسفة . ولذلك كانت أقوى من أدلته
السابقة ؛ لأنها تطابق العقل والشرع في آن واحد . وسنعود إلى هذه الأدلة

(١) بينا هذا البرهان بالتفصيل في محاضرات أقيمت بكلية دار العلوم وربما نشرناها فيما بعد

(٢) لما أراد السكندى البرهنة على حدوث العالم استخدم قضيتين أخذها عن أرسطو .

وهما : العالم متناه من جهة الجسم ، والجسم والحركة والزمان أمور متلازمة . إذن العالم متناه

من جهة الحركة والزمان أيضاً ، ومعنى ذلك أنه حادث . وعلى الرغم من وضوح هذا الدليل

لم يفتن أرسطو إليه ، فقال بمتناهي العالم من جهة الجسم وبعدم تنافيه من جهة الحركة والزمان .

فإذا كان أرسطو يناقض نفسه ، فهل لنا أن نكلف العامة من الناس بمعرفة هذا الدليل .

بالتفصيل عند الحديث عن أحد هؤلاء الفلاسفة الذين يقول عنهم علماء الكلام عادة إن مناهجهم عقلية مجردة .

أما دليل السببية عند الماتريدى فيتلخص في [أن العالم لا يستطيع أن يوجد نفسه ، أو يصلح ما فسد منه . إذن يحتاج إلى موجود يوجده .] ويتلخص دليل التغير ، بدوره ، في القول [أن العالم لو كان يوجد بنفسه لوجب أن يبقى على حالة واحدة لا يريم عنها أبداً ، فن الضروري إذن أن يوجد ب للتغير] . ونلاحظ أن هذا الدليل ليس مستقلاً ، وإنما هو صورة دليل السببية . وأما الدليل الأخير ، ونريد به دليل العناية ، فإنه أشهر من أن نلح في بيانه ؛ لأن وجود الكون على الوضع الذى هو فيه ملائم لوجود الإنسان والحيوان والنبات ، مما يبرهن على أن عناية الله محيط بمخلوقاته .

* * *

وعلى الرغم من أن هذه الأدلة السابقة موجودة عند الفلاسفة ، وبخاصة لدى الكسندى الذى كان متقدماً على الماتريدى ، فإن هذا الأخير يصف الفلاسفة بأنهم اتفقوا على قدم العالم . فأى فلاسفة يريد ؟ فلاسفة الإسلام أم فلاسفة الإغريق ؟ إن كان يريد الإغريق ، وهو فى الواقع لا يريدهم فهذا أمر لا نخوض بالكلام فيه . وإن كان يريد فلاسفة الإسلام ، وهذا هو ما نرجحه ، بدليل الموقف الذى يقفه منهم أهل الكلام ، قلنا : إنهم لم يتفقوا على قدم العالم . وإنما بدأ أولهم ، وهو الكسندى ، باستخدام الرياضة وأدلة القرآن للبرهنة على حدوث العالم . فلما جاء الفارابى وابن سينا واطلعا على فلسفة أرسطو ، وحاولا التوفيق بينها وبين الإسلام ، وجدا أنه لا بد من تعديل تلك الفلسفة فى مسألة قدم المادة ، حتى تكون على وفاق مع الدين . ومن ثم رأينا الفارابى يلجأ إلى نظرية جديدة فى

الإسلام وهي نظرية الفيض التي حاول بها ، غير موفق ، أن يبين كيف يؤدي تفكير الله في ذاته إلى صدور عقول أو ملائكة ، وهذه العقول تفكر في ذاتها وفي خالقها فتفيض عنها كل الكائنات بالتدرج . ثم جاء ابن رشد من بعدهما ، وترك نظرية الفيض ، وعاد إلى النبع الإسلامي الخالص ، فقال إن الله يخلق العالم من العدم ، بمعنى أنه يخلقه من غير مادة وفي زمان .

* * *

ح - دليل الصوفية :

سلك المتصوفة منهجاً لا يعتمد على أسس منطقية ؛ لأنهم لا يستدلون على وجود الله بمقدمات بديهية تستنبط من الواقع وتفضى إلى نتائج مقنعة وإنما اعتقدوا أن معرفتهم لوجود الله ترجع إلى المعرفة الإشرافية التي تفيض في نفوس العارفين . وتلك المعرفة اللدنية هي التي يمكن تسميتها بالحدس الصوفي الذي يصل إليه المرء بالقضاء على الشهوات والانكباب على القائل . ثم رأوا أن يعضدوا منهجهم بنصوص من الكتاب العزيز ، فاختاروا بعض الآيات التي حسبوا أنها تشهد لهم من مثل قوله تعالى : [واثقوا بالله . ويعلمكم الله ، وقوله : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وقوله : إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ملأوا النصوص الأخرى التي تحت على النظر العقلي ، وهي تشغل جزءاً كبيراً من القرآن ، فمروا بها دون أن يقفوا عندها لكي يتأملوها ، مع أنها أكثر صراحة مما استشهدوا به .

ونسى هؤلاء أن منهجهم الذي يوصرون به يفوق مستوى الإنسان عادة ، وأنه مضاد للمنهج العلي الذي يستطيع كل إنسان أن يسلكه متى حصل بعض المقدمات الأولية . ثم يقولون إن تطهير النفس شرط كاف في

المعرفة مع ما في هذا الوأى من الغلو الكثير ؛ إذ يكشف الواقع لنا ولهم عن أنه ليس من الضروري أن يكون كل متصوف عالماً أو العكس . حقاً ربما ساعد تطهير النفس على كسب المعرفة . لكنه ليس شرطاً كافياً في إدراكها . هذا إلى أن جعل الحدس الصوفي منهجاً لمعرفة الله وغيره معناه القضاء على التفكير النظري الذي يبحث عليه القرآن . وستكون المعرفة في هذه الحال نوعاً من المعجزات . وإذن فما جدوى العقل ؟ وهل خلق العقل للإنسان عبثاً ؟ أما الآيات التي استدلوأ بها فليست حاسمة ؛ بل يمكن فهمها على نحو مخالف لما فهموه منها ؛ كما أنه من المستطاع معارضتها بعدد كبير من الآيات القرآنية التي تبحث على النظر حتى لتكاد تجعله واجباً على القاذرين عليه^(١) .

و - أدلة ابن رشد :

إن الأدلة التي تستخدم في إثبات وجود الله يجب أن تكون بديهية وغير معقدة ، أى خالية من تفريع المتكلمين وتقسيماهم العقلية ، كما ينبغي ألا تثير الشبهات ، وأن تكون أدلة العقل والشرع في آن واحد ؛ إذ الحقيقة واحدة . وبذا تتجه هذه الأدلة في يسر إلى الناس جميعاً عامة وخاصة ، وربما حفزت العامة إلى الرغبة في المعرفة للوصول إلى مرتبة العلماء .

وقد وجد ابن رشد أن الأدلة التي استخدمها الفلاسفة هي نفس الأدلة التي جاء ذكرها في القرآن ، ويريد بذلك دليل العناية الإلهية ودليل الإختراع .

(١) قد نقدنا رأى المتصوفة بشيء من التفصيل في كتابنا ابن رشد وفلسفته الدينية من

١ — دليل العناية :

إن النظر في طبيعة الكون وما يحتوي عليه من إظهاره يرشدنا إلى أن وجود كثير من الأشياء والكائنات كأنما قصد به الإنسان ؛ وذلك لأن هذه الكائنات أو الأشياء تلائم حياتهم . وليس يمكن أن تكون هذه الملائمة وليدة الصدفة . وحقيقة أثبت العلم الحديث أن هذا الخالق المحكم الذى يحقق غايات محددة لا يمكن أن يصدر إلا عن علم وتدبير وحكمة . فإن وجود الليل والنهار والشمس والقمر والفصول الأربعة والحيوان والنبات والأمطار كل أولئك يوافق حياة الإنسان ، كما يقول ابن رشد ، وكأنما خالق من أجله كما يشهد بذلك الحس . ثم إن العناية والحكمة تتجليان في تركيب جسم الإنسان بل في جسم الحيوان أيضاً . قد يقال إن بعض علماء عصرنا يميلون إلى إنكار وجود غايات في الطبيعة ، وإلى أن القول بوجود عناية خاصة بالإنسان معناه أن هذا الأخير يتخذ نفسه محوراً أو مركزاً للكون . نعم قد يقال ذلك وقد يقال أكثر منه . وقد تبدو حججهم مقنعة . لكنهم قلة بينما تذهب كثرة العلماء بمن يكابدون مشقة العلم حقيقة إلى الجزم بأن هناك عناية بما في هذا الكون ، وأن هذه العناية لا يمكن أن تنسب إلى الاتفاق (١) .

تلك هي وجهة نظر العقل ، وهي نفس وجهة النظر التي يقرها القرآن الكريم وتؤيدها آياته ، من مثل قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ، وبنينا فوقكم سبعة شداداً ، وجعلنا

(١) انظر كتابنا « المنطق الحديث » ومناهج البحث — نشر مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة

الثالثة في آخر « فصل الخاص » مشكلة أساس الاستقرار .

سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المدهترات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً^(١) ، وقوله : فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صيبننا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شققاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلًا ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم^(٢) . ، وغير ذلك من الآيات الدالة على العناية كثير في القرآن الكريم .

ويمتاز هذا الدليل عن أدلة الأشاعرة بأنه يدعو إلى المعرفة الصحيحة ، لا إلى الجدل العقيم ؛ فهو يحفزنا إلى التعمق في البحث والكشف عن أسرار الكون ، دون أن يثير شبهات أو مشاكل ؛ كما يمتاز من هذه الناحية أيضاً عن دليل الحدس الصوفي الذي يصرف عن المعرفة الحققة ويقود ، إن عاجلاً أو آجلاً ، إلى الجمود والتواكل واختراع الأساطير لتجيد الواصلين من أهل الطريق .

٢ — دليل الاختراع أو السبيل

ليس هذا الدليل أقل بداهة ووضوحاً من سابقه ؛ فإن الاختراع بين في أنواع الحيوان والنبات ، وجميع أجزاء العالم . ويمكن تحديد هذا الدليل على هيئة مقدمات بديهية . ذلك أن وجود الحيوان أو النبات دليل محسوس على الاختراع ، بمعنى أن وجود ظاهرة الحياة نفسها التي تطرأ على الأشياء غير العضوية كاف وحده في إثبات فكرة الاختراع . أما أجزاء العالم وحركات أجرامه السماوية فهي مخترعة أيضاً ؛ لأنها مسخرة لتحقيق غايات معينة ، وكل شيء مستخر لا بد أن يكون مخلوقاً . فإذا ثبت حدوث هذه الأشياء جميعاً ، حية وغير حية ، كان ذلك دليلاً بالضرورة على وجود الخالق .

ويشبه هذا الدليل سابقة في أنه يحفز الإنسان إلى السير في طريق العلم

(٢) سورة عبس من آية ٢٤ إلى آية ٣٢

(١) سورة النبا من آية ٦ إلى آية ١٦

حتى نهايته ، إن جاز أن له نهاية . ذلك أن فسكرتنا عن حقيقة الخلق لا تصبح كاملة إلا إذا وقفنا على آثار صنعة الله في كل جزء من أجزاء الكون ، فأى مقارنة يمكن أن تعقد بين مثل هذا الدليل ودليل الجوهر الفرد ، أو دليل الممكن والواجب ، أو غيرهما من الأدلة غير الفلسفية والشرعية التي تمنى قدرة الجدل دون أن تساعد ، بحال ما ، على تحصيل المعارف الجديدة ، وإن كانت تنتاج كثيراً من الإشكالات والشبه التي ربما عجز المتكلمون أنفسهم عن حلها ؟

وميزة أخرى ، وهي أن هذا الدليل العقلي هو دليل الشرع نفسه ، وهو مؤكد لحكمته تعالى . فقد ورد في القرآن كثير من الآيات التي تدعو إلى الإيمان بوجود الله عن طريق معرفة مخلوقاته . فن ذلك قوله : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وقوله تعالى « فلينظر الإنسان بما خلق ، خالق من ماء دافق »^(١) . فهاتان الآيتان تبينان لنا أن ظهور الحياة في حد ذاته دليل كاف لإقناع الخاصة والعامة بوجود الله الخالق . وحقيقة عجز العلماء في عصرنا الراهن ، الذي تقدمت فيه العلوم الطبيعية تقدماً هائلاً ، عن معرفة سر الحياة ، وكيف ظهرت على وجه الأرض ، هذا فضلاً عن أنهم أعجز عن أن يخلقوا أشياء حية .^(٢)

* * *

فهل لأحد أن يصفنا بالتجني على الأشاعرة والمعتزلة إذا قلنا إن أدانهم ليست شرعية ولا عقلية ، وإنهم حرصوا على إغفال أدلة الشرع فلا نجد لها

(١) سورة الحج ، آية ٧٣ (٢) سورة الطارق ، آية ٥ ، ٦ .

(٣) ارجع إلى هذا الدليل بالتفصيل في كتابنا ابن رشد . وفلسفته الدينية ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ س ١٠٤ — ١١٠ .

إلا في كتب المتأخرين من علماء الكلام ، عندما أرادوا إكمال النقص في مذهب سلفهم . ومن المقرر الذي لا مجال للشك فيه أن أدلة أبي الوليد ابن رشد تنطبق تماماً على أدلة القرآن ، وهي أدلة الفلاسفة في الوقت نفسه . ففكرهم السببية مأخوذة عن أرسطو وفكرة الغائية مأخوذة عن أفلاطون . لكن فيلسوف قرطبة يحور أرسطو وأفلاطون حتى يكونا أقرب إلى العقل والشرع . ذلك أن الأول ينسكركم العناية الإلهية ؛ في حين يتفق الاثنان على القول بقدوم العالم .

وفي رأينا أنه كان أولى بالمسلمين جميعاً ، متكلمين وغير متكلمين ، أن يتدبروا آيات الكتاب لكي يستنبطوا منها أدلتهم ، بدلا من أن يعمدوا إلى نظريات فلسفية ظنية ، وخصوصاً إذا كانت نظريات من الدرجة الثانية أو الثالثة ، كنظرية الجوهر الفرد . وإنما كان أجدر بهم أن يكتبوا بأدلة القرآن لأنها تصلح للناس جميعاً ، ولأهل الجدل أيضاً ؛ ذلك أن القرآن يتجه كما قلنا إلى جميع المستويات العقلية ، بمعنى أن العلماء يدركون بحواسهم وعقلهم أنه لا بد من وجود صانع حكيم ، لما يرونه من آثار الصنعة ويلبسونه من علامات الحكمة في السكون . أما الجمهور فتكفيه الأدلة القرآنية لأن الواقع يشهد بصدقها ، كما أنها في الوقت نفسه أدلة عقلية يمكن تفصيلها حسب الحاجة وبدرجات متفاوتة ، تبعاً لتقدم الإنسان في مراتب المعرفة . ويبقى بعد ذلك كله أن الفارق بين الجمهور والعلماء شبيه بالفارق بين رجلين يرى أحدهما شيئاً فيعلم أنه مصنوع فقط ، دون أن يدري كيف صنع ، ولا كيف يستخدم ، وربما لا يهتدى أيضاً إلى معرفة الغاية منه ؛ بينما يرى الآخر حقيقة هذه الأمور كلها ، فيكون عليه أتم وأكمل

٣ — الوجدانية

١ — دليل الفلاسفة :

حاول الكندي أن يبرهن على وحدانيته تعالى بطريقة منطقية فقال لو سلمنا جدلاً بوجود عدة آلهة للعالم لوجب أن تشترك هذه الآلهة في صفة واحدة وهي أنها تستطيع الخلق جميعها ، ولوجب أن يحتوى كل منها على صفة أو صفات خاصة تميزه عن غيره من الآلهة ؛ لأن أفراد النوع الواحد تتفق في صفة واحدة ، وتختلف في الصفات الشخصية ، فلا تتفق أفراد الإنسان في أنهم من جنس الحيوان العاقل ، ويختلفون فيما بينهم من حيث اللون والشكل والحجم . ولذا متى قلنا بأن كل إله يحتوى على نوعين من الصفات كان ذلك تسليماً بوجود الكثرة فيه ؛ لأنه مركب من شيء عام يشترك معه فيه غيره ، ومن شيء خاص ينفرد به وحده . وعندئذ يجب أن نقف على العلة في وجود هذا التركيب في كل إله من هذه الآلهة المتعددة . فإذا وجدنا علة ، على سبيل الفرض ، وجب البحث عن علة لهذه العلة وهكذا دواليك . لكن لا يمكن الانتقال في سلسلة العلل إلى ما لا نهاية له ، فوجب الوقوف عند حد ؛ أى يلزمنا القول بوجود إله يرى من كل كثرة أو تركيب ، بحيث يكون مخالفاً لخالقه ، لأن الكثرة في كل الخلق ، وليست فيه ألبتة .

* * *

أما الفارابي فقد بنى دليل الوجدانية على أساس من نظريته في ترتيب الموجودات . فهو يحصر هذه الأخيرة في ستة أنواع ترتق في مراتب السكال ، وهي المادة والصورة والنفس الإنسانية والعقل الفعال ، والعقول المفارقة ، ويعنى بها العقول المجردة من كل مادة ، أو الملائكة التي تشرف

على الأفلاك السماوية ، وهى التى يطلق عليها أيضاً اسم الأسباب الثانية ، وأخيراً يوجد المبدأ الإلهى ، وهو كمال محض .

ومن المعروف أن أبا نصر الفارابى أخذ فكرة هذا الترتيب التصاعدى عن أفلوطين صاحب مذهب وحدة الوجود . فإنه كان يرى أن الموجودات ليست سواء فى الكمال أو النقص ؛ إذ تزيد درجة الكمال أو تقل تبعاً لدرجة الاتحاد بين أجزاء الموجودات . مثال ذلك أن الاتحاد بين الأحجار المبعثرة أقل منه بين أحجار المنزل الذى تم بناؤه ، والاتحاد بين أفراد الجيش أو الجوقة الموسيقية أكمل منه بين جماعة من الناس لا تربطهم صلة ، والاتحاد بين الأمور العقلية أكثر كمالاً منه بين الأمور المادية ، كالإنسان الذى نراه بين نظريات علم من العلوم العقلية كالفندسة . ثم تزداد درجة الكمال ، ويقل الانقسام ، بالصعود إلى العقل الذى فكر فى هذه النظريات . وما زال أفلوطين يصعد فى سلم الموجودات حتى وصل أولاً إلى نفس العالم ، ثم إلى العالم العقلى ، ثم انتهى إلى الوحدة الأولى التى تعد أكمل الموجودات والتى لا تحتوى على أجزاء البتة ، والتى تفيض منها الموجودات الأخرى شيئاً فشيئاً ، فتبدو فيها الكثرة والانقسام عندما تتميز أجزاؤها بالتدرج .

تلك هى فكرة الفيض لدى أفلوطين ، وقريب منها رأى الفارابى فى الفيض . والصلة بين هذين الرايين أكثر وضوحاً من أن يحتاج إلى الإلحاح فى بيانه .^(١)

وقد رأى الفارابى أن يعتمد على ترتيب الموجودات بدلاً ، من الاعتماد على النصوص القرآنية التى تقرر الوحدةانية من مثل قوله تعالى : لو كان

(١) انظر نظرية الفيض بالتفصيل فى كتابنا نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكوينى - نشر مكتبة الإنجلو المصرية سنة ١٩٦٤

فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وغير ذلك من الآيات . أما كيف برهن على هذه الوجدانية فذلك أنه يقول : لما كان الله الموجود الكامل على وجه الإطلاق ، فمن المستحيل أن يوجد معه إله غيره ؛ لأنه لو جاز أن يوجد معه إله منيل به في كماله لما كان هو أسمى وأكمل مبادئ الموجودات ، ولوجب أن يوجد موجوداً كمال منه يهبه هو وقرينه الكمال . فطبيعة الذات الإلهية ، وهي كمال محض ، تكفي في البرهنة على وجدانية الله تعالى .

ويبدو برهان الفارابي بمظهر الدليل الفلسفي الذي يعضد وجهة نظر الشرع . ومع أنه ليس دليل القرآن فهو في رأينا أقل تعقيداً من برهان المتكلمين . فإن هؤلاء ، وإن اعتمدوا على بعض الآيات ، إلا أنهم سلكوا مسلك الجدل والتفريع ، مع أن الأمر لا يقتضي تفريعاً ، ولا جدلاً .

ب - دليل المتكلمين :

يعرف دليل المتكلمين باسم دليل التمانع^(١) ، ونجده لدى الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية على حد سواء ، وما كان لنا إلا أن نتوقع وجوده لديهم ؛ لأنه دليل جدلي ، وهم أهل الجدل خاصة . وينبني هذا الدليل على ما جاء في كتاب الله من مثل قوله تعالى : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، وقوله : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ، وقوله : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ، وقوله : أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم : قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار .

لكن المعتزلة والأشاعرة استنبطوا دليلهم من هذه الآيات بطريقة

(١) انظر هذا الدليل بالتفصيل في كتابنا ابن رشد وفلسفته الدينية ص ١١٢ وما بعدها .

خاصة ، وتابعهم الماتريدي في ذلك ، وإن جنح في أحد براهيته إلى مسلك
عقلي نجده مفصلاً لدى ابن رشد ، وهو أن دقة صنع العالم دليل على
وجود إله واحد . أما الآخرون فافتصروا على دليل واحد مشهور .
فقالوا لو صح أن هناك آلهين فن الجائز أن يقع الخلاف بينهما ، بأن يريد
أحدهما خلق العالم ولا يريد الآخر . وعندئذ يمكن أن يتشكل هذا
الخلاف بإحدى صور عقلية في رأيهم : فإما أن تتم إرادة كل واحدة منهما ،
وإما أن تبطل إرادة كل منهما ، وإما أن تتحقق إرادة أحدهما دون إرادة
الآخر . فعلى الفرض الأول يكون العالم حينئذ موجوداً وغير موجود
في آن واحد ، وعلى الفرض الثاني يكون غير موجود وغير معدوم ،
وعلى الفرض الثالث يكون الذي تتم إرادته هو الإله حقيقة والآخر عاجزاً .
فلا يستأهل أن يوصف بأنه إله .

ويلاحظ أن الفرض الثاني ليس إلا صورة معكوسة من الفرض
الأول ، وأن أحدهما كان كافياً ، وبخاصة لأن عقيدة الوجدانية من البداهة
الحسية والعقلية بحيث لا تتطلب هذا العناء كله . كذلك نرى أن برهانهم
يقوم على المماثلة بين الله والبشر ، لأنهم يريدون تطبيق ما يشاهدونه بين
بنى الإنسان على العالم الإلهي ، أى ينسبون الاختلاف إلى الآلهة . فإذا نحن
سرفنا معهم في طريقهم ، ونبعناهم في جدلهم ، قلنا أليس من الممكن أن يتفق
الإلهان بدلاً من أن يختلفا ، فإنا نرى أنه يحدث ، في كثير من الأحيان ،
أن يتفق شخصان على صنع واحد فيعاون كل منهما صاحبه . وفعلنا نبنت هذه
الشبهة في ذهن بعض المتكلمين ، فلم يجدوا لها حلاً ، ولذا قالوا إن دليل
الآيات السابقة ليس منطقياً ، بل هو خطأي فقط يراد به الإقناع ؛
إذ يجوز الاتفاق على خلق العالم بنظامه الذي نشاهده .^(١) حقاً فطن بعض

المتقدمين من المتكلمين^(١) إلى نقطة الضعف هذه فأراد أن يتجنبها ، فذكر أن اتفاقهما بطريق التعاون دليل عجز كل منهما أو جهله . ولكن هذا الرد ليس حاسماً ، إذ من الممكن أن يقال إن أحدهما يفعل بعض العالم والآخر يفعل بعضه ، أو بفعلانه على سبيل المداولة . إلى غير ذلك من التشكيك الذي لا يليق بالجمهور ، كما يقول ابن رشد . ولو سلمنا أن ردهم حاسم فمن المقرر ، بعد هذا الجدل كله ، أن دليلهم يثير شبهات ويحتاج إلى ردوده وأنه لا يقنع إلا بشق الأنفس

أما الماتريدي فتبع عدة طرق للبرهنة على وحدانية الله ، فقال : إن السكك متفق على وجود الإله الواحد ، وإنما يختلفون فيما بعده : أهو حقيقة ، أم مجرد وهم ووساوس ؟ فلو كان هناك أكثر من إله لجاز أن يطرد عددهم في الزيادة إلى ما لا نهاية له ؛ لأن العدد غير متناه بطبيعته ، أي لماذا يحدون العدد باثنين أو ثلاثة أو أكثر . ولو كان الأمر كما يقولون لجاز أيضاً أن تحول الآلهة الأخرى دون مجيء الرسل الذين ينادون بالوهمية واحد منهم فقط . ثم عرض لدليل التامع ، وفصله على النحو الذي سلكه السابقون من المتكلمين . وكأنه أحس بعدم جدوى مثل هذه الأدلة ، فعاد إلى منهج يتفق مع روح الآيات السابقة ، فقال لو كان هناك عدة آلهة ، لحاول كل منهم أن يستقل بأفعاله ، ولخلق كل منهم عالماً يخصه ، أو لاختلقت أفعالهم ، فحدث الفساد والاضطراب في الكون . (لكننا نرى أن العالم واحد ، وهو متجانس وغاية في الاتساق ، مما يدل على انفراد إله واحد بخلقه .

* * *

(١) الماتريدي توفي سنة ٣٣٣ هـ . والمشهور أنه يماثل الأشعري في آرائه ، ولكننا سنرى أنه أقرب إلى منزلة منه إلى الأشعرة .

ح - ومهزة نظر ابن رشر :

اعتمد أبو الوليد على الأدلة الشرعية . وبين أنها تتجه إلى الحس والعقل معاً ، أى إلى الجمهور والعلماء . فقلوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، يقرر حقيقة بديهية وفطرية تشهد للملاحظة بصدقها ، وهى أن وجود ملوكين فى مدينة واحدة يفسدها ، إلا أن يعمل أحدهما ويبقى الآخر دون غل . وإذا جاز هذا فى الملوك فإنه لا يجوز فى الآلهة . فإن العاجز أو المتعطل لا يصلح أن يوصف بالآلوهية . ثم نص هذا الفيلسوف على فساد طريقة المتكلمين فى استنباط دليل النامع من هذه الآية ، فقال لهم فرعوا المسألة فى غير جدوى ، فقالوا إما أن يتفقا وإما أن يختلفا ، وإذا اختلفا فإما وإما الخ ، أى أنهم ظنوا أن الآية تحتوى على قياس شرطى منفصل ، مع أنها تحتوى على قياس شرطى متصل ، وهو القياس الذى لم يفتن المناطقة القدماء إلى أهميته العلمية . ومعنى هذا القياس هو أنه لو فرضنا وجود أكثر من إله لفسد العالم ، لكن هذا الفرض غير صحيح لأن العالم ليس فاسداً . وإذن ليس هناك إلا إله واحد خلق هذا العالم بعلمه وحكمته وعنايته .

وأما قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض » ، فمعناه أنه إذا اختلفت أفعال الآلهة فلا يمكن أن يترتب عليها فعل واحد ، لكن هذا الفرض الثانى مردود أيضاً لأننا نرى أن هناك عالماً واحداً . إذن لا يعقل أن يكون موجوداً بسبب عدة آلهة مختلفة الأفعال . ففى هذا الدليل أيضاً نرى أن القياس شرطى متصل ، أى أنه قياس على منتج ، لأنه قياس فرضى ، وهو الأسلوب المنتهج فى كل تفكير علمى .^(١)

(١) أنظر كتابنا : المطلق الحديث ومناهج البحث ، الطبعة الثالثة من ٤٥ .

وأما قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا يستغوا إلى ذى العرش سبيلا » ، فعنايه أنه لا يجوز عقلا أن يوجد إلهان تتحد أفعالهما ؛ إذ لو كان هناك إلهان يفعلان فعلا واحداً لوجب أن تكون نسبتهما إلى العرش واحدة ، أى أنهما يتساويان فى كل شيء فيحلان على العرش ، وليس المراد هنا حلولاً جسيماً ؛ لأن الأمر فى نسبة الله إلى العرش ضد هذه النسبة ، أعنى أن العرش يقوم به لا أنه يقوم بالعرش . ولذلك قال الله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما . » وإنما المراد هو أن اتحاد أفعالهما تماماً يجعلهما يتحدان فى كل شيء ، مما يؤدى إلى استحالة القول بالتعدد . إذن ليس هناك ما يدعو إلى الجدل أو القسمة العقلية . فكل آية لها معناها المحدد . زد على ذلك أن دليل الوجدانية ، الذى تحتوى عليه هذه الآيات ، هو دليل الخاصة والعامة معاً ، وإن امتاز الخاصة بأنهم إذا فخصوا العالم ووقفوا على ما فيه من نظام واتساق ، زادوا يقيناً بأن هذا العالم المنسق المتجانس لا يمكن إلا أن يكون مخلوقاً لإله واحد ، لا شريك له فى تدبير خلقه . ^(١) وهكذا تتحقق حكمة القرآن فى حث الناس على المعرفة ، السكى يكون إيمانهم كاملاً . ويتفق هذا الهدف مع ما رأيناه فى أدلة وجود الله ، كما يجب أن يفهمها المسلم حقيقة ؛ لأن دليل الاختراع ودليل العناية الإلهية حليقان للمعرفة وباعثان عليها .

ومن الواضح أن المتكلمين لم يقصروا على حكمة آيات الوجدانية لأنهم أسأوا فهمها . وفى ذلك يقول ابن رشد : « وقد يدلك على أن الدليل الذى فهمه المتكلمون من الآية ليس هو الدليل الذى تضمنت الآية أن المحال الذى أفضى إليه دليلهم غير المحال الذى أفضى إليه الدليل المذكور

(١) يلاحظ أن ابن رشد لا يطبق هنا منهج القياس الأرسطوطاليسى ، وإنما يستمد دائماً على الملاحظات والبداهات الحسية .

في الآية . . . إذ قسموا الأمر إلى ثلاثة أقسام ، وليس في الآية تقسيم .
فدليلهم الذي استعملوه هو الذي يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطي
المنفصل . . . والدليل الذي في الآية هو الذي يعرف في صناعة المنطق
بالشرطي المتصل ، وهو غير المنفصل ، ومن نظر في تلك الصناعة أدنى نظريتين
له الفرق بين الدليلين .

والحق أن من يخلط بين الدليلين هو من يخلط بين الجدل وبين المنهج
العلمي الصحيح . والمناهج الفاسدة أو الواهية تؤدي عادة إلى نتائج فاسدة
أو واهية .

٤ — مشكلة الصفات والذات

درج الناس في الصدر الأول من الإسلام على التسليم بما جاء في
الكتاب والسنة فيما يخص الصفات الإلهية وغيرها من المسائل . وكان
التوحيد الخالص رائدهم ، وكان التنزيه هو الفكرة الرئيسية التي تحدد فهمهم
لعقائد الدين . ولم نشهد لدى السلف هذا الجدل في العقائد على النحو الذي
سنراه لدى المعتزلة والأشاعرة ومن سلك مسلكهم . ومن ثم لم تكرر
مسألة الصفات الإلهية موضع خلاف لدى الصحابة ، ثم لدى كبار الأئمة
من أمثال مالك والشافعي وأحمد . والحق أنه كان عند المسلمين ما يشغلهم عن
هذا الجدل واللجج في العقائد ، فقد انصرفوا إلى ما هو خير من ذلك وأجدى ،
أي إلى نشر الإسلام ، وتثبيت قواعد دولتهم الجديدة وإرساء قواعد ملكهم
وإعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل لهؤلاء الذين تسول لهم
أنفسهم الوقوف في وجه الدعوة الجديدة ، دعوة الحق والتوحيد . وكانوا
إذا وجدوا أن بعض آيات القرآن تكاد تنسب إلى الله بعض الصفات
التي تتنافى مع فكرتهم الخالصة عنه ، أو تخدش معنى التوحيد والتنزيه

كنسبة اليد أو الوجه أو العرش إليه لم يحارلوا تأويلها . ومع ذلك فإنهم كانوا يجهلون على أنه لا يجوز أن يكون المراد منها هو ظاهرها ، وعلى أنه من الواجب ألا تفهم على حرفيتها ؛ فإن الله سبحانه ليس جسماً تنسب إليه يد أو عين أو يستوى على العرش استواء مادياً . وكانوا يؤثرون عدم الخوض في تفسير هذه النصوص ، فيفوضون المراد منها إلى الله بعد تنزيهه عن كل شبه بالإنسان أو المخلوق . وقد اعتمدوا في هذا التنزيه أو التقديس على قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » وهو السميع البصير . فإنه لا يجوز عقلاً أن يكون هناك وجه شبه أو ماثلة بين الخالق والمخلوق . ولذا فإن قوله تعالى : « أفن يخلق كن لا يخلق » يعد برهاناً على استحالة الماثلة بين الله والإنسان .

١ - المشبهة :

ولو أن المسلمين التزموا هذا المبدأ ، وفرقوا بين عالم الغيب والشهادة ، لما نشأت تلك البدع الكثيرة - ومن بينها بدعة الصفات - ولما وجدنا طائفة منهم كالمشبهة والكرامية الذين التزموا النصوص الظاهرة بالمشابهة ، وفهموها فهماً حرفياً ، فاتهموا بأن أنبتوا لله عدداً كبيراً من الصفات الإنسانية ، فقالوا إن له وجهاً ويدين وعينين ، ثم غلوا في ذلك ما شاء لهم القلوب فقالوا : إن الله - سبحانه عما يقولون - جسم يختلف عن الأجسام . وهكذا أشبهوا بعض أصحاب الديانات الأخرى بمن يعتقدون أن الله قد تجسد ، وأنه ظهر بصورة البشر . وقد أخطأ أحد المستشرقين ، وهو « ليون جوتييه » ، عند ما ظن أن جميع المسلمين في صدر الإسلام كانوا من المشبهة . ولكن الواقع هو أن قلة منهم هي التي رأت هذا الرأي ؛ في حين تمسك السلف ، ومن جاء بعدهم ، بالتنزيه والتوحيد الخالص الذي لا نجد له

مثلاً في أي دين آخر ، حتى بعد أن افرق المسلمون ، وتعددت بدعهم . .
وانزلوا في جدهم كل منزلق خطر .

ب - المعتزلة :

غير أن الغلو في التشبيه أدى إلى رد فعل لدى جماعة المعتزلة التي
تصف الله بالوحدانية والقدم ومخالفته الحوادث ، وهي الصفات التي تنفي
التعدد والحدوث ومشابهة المخلوق . وبديهي أن هذه الصفات سلبية ؛ لأنها
لا توجب شيئاً زائداً على الذات ، ولما ذهب وأصل بن عطاء في محاولة التنزيه
إلى أبعد حدودها ، بدأ بإنكار الصفات الإيجابية من علم وقدرة وإرادة ؛
لأنه خشى أن ينتهي الأمر بالمسلمين إلى ما وقع فيه النصارى الذين فرقوا
بين ثلاث صفات إلهية ذاتية ، وهي الوجود والعلم والحياة ، وجعلوا كل
صفة منها مستقلة بذاتها ، وأطلقوا عليها اسم الأقاليم أو الأشخاص ، وهو
في اعتقادهم الآب والابن وروح القدس .

غير أن أتباع وأصل رأوا ألا ينكروا الصفات الإيجابية جملة لا
ذلك يفضي بهم إلى التعميط ، وإلى جعل الإله فكرة مجردة لا مضمون ،
ولذلك اختصروا عددها ، وأرجعوها إلى صفتين رئيسيتين ، وهما العلم
والقدرة . (١) ثم سوا بين الذات الإلهية وبين كل صفة منها حتى لا يترتب
على ذلك تعدد القدماء . وقالوا إن الله عالم بعلم هو نفسه ، وقادر بقدرة هو
نفسه أيضاً . فلما اعترض عليهم بأن رأيهم هذا يفضي إلى التسوية بين العا
والعلم ، وبين القادر والقدرة ، ثم بين العلم والقدرة ، حاولوا الخروج من هذ
المازق ، فذكروا أن المراد بوصف الله بالعلم والقدرة أنه على حال من الع

(١) ما أن أبو الحسين البصري إلى ردها إلى مئة واحدة وهي العلم . وهذا هو رأي الثلاثة

والقدرة ، أى أنهم أنساقوا ، من حيث لا يشعرون ، إلى المماثلة بين العالم الإلهى والعالم الإنسانى ، وسلبوا الخصومهم أن هناك فارقا بين الموصوف والصفة ؛ إذ أنهم لم يفعلوا ، فى الواقع ، سوى أن غيروا الأسماء ، فقالوا بأن الله أحوالا ، بدلا أن يقولوا إن له صفات . ولسكننا نعلم أن تغيير الأسماء والمصطلحات لا يغير شيئا ، إذا كانت تعبر عن شيء أو حقيقة واحدة . وقد سخر منهم الإمام الغزالى ، عند ما بين تفاهة هذا التعديل فى المصطلحات ، فقال : ما الفارق مثلا بين أن نقول إن الله عالم ، أو أنه على حال من العلم ؟ أليس المعنى واحدا ، كما نقول أيضا إن محمد منتحل أو ذو نعل ؟ وعلى الرغم من أن المعتزلة لا ينكرون الصفات الإلهية ، فقد اتهموا بأنهم من المعطلة . وترجع هذه التهمة إلى أن خصومهم لم ينصفوهم ، أو فى الأقل لم يحاولوا فهم السبب الذى دعاهم إلى التسوية بين الذات الإلهية وصفاتها . وما كان هؤلاء الخصوم أن يكونوا أكثر رفقاً ، أو ينظروا بعين المودة إلى وجهة نظر مخالفيهم ؛ ذلك أنهم يماثلون فى الحقيقة بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، أى بين الله والإنسان . فكما أنه لا يجوز عقلا أن توجد ذات الإنسان إلا إذا كانت لها صفات زائدة عليها ومغايرة لها ، وتختلف كل صفة منها عن الصفات الأخرى ؛ كذلك لا يجوز فى رأيهم أن توجد الذات الإلهية دون صفات زائدة ومغايرة لها . فالفارق بين المعتزلة وخصومهم هو الفارق بين قوم أرادوا التفرقة الفاصلة بين الذات الإلهية وذات الإنسان ، وقوم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من الاعتبارات الإنسانية فطبقوها على العالم الإلهى . وربما كان أولى بالفرقتين جميعاً أن يتركوا البحث فى أمر صفات الله ، وأن يسلبوا بها تسليما يرتاضيه العقل من دون شك ، ولكنه لا يثير الجدل فيما لا طائل وراه . والحق فى رأينا أن مذهب السلف كان أكثر حكمة ، وأهدى سبيلا . وربما لم يكن

من الغلو أن نصف هؤلاء الذين استخدموا طرق الجدل في تحديد الصفات بأنهم كانوا مبتدعين . ولكن يبقى ، بعد ذلك كله ، أن المعتزلة كانوا أقرب من الأشاعرة إلى روح الآية الكريمة التي تقول : « ليس كمثل شيء » .

ح - الفلاسفة :

وذهب فلاسفة الإسلام كالسكندى والفارابى مذهباً قريباً من المعتزلة ، فأنكروا تعدد الصفات ، وحاولوا التنزيه المطلق ، لكنهم لم يكونوا من المعطلة . فهم يقرون بالصفات التي يسلم بها خصومهم ، ولا يمنعون إطلاقها على الله تعالى ، ثم يؤكدون في الوقت نفسه أن المفهوم منها واحد وهو ذاته . وبديهي أنهم حرصوا على التفرقة الفاصلة بين الله والإنسان ؛ لأن ذات الإنسان مغايرة لصفاته ، وكل صفة من هذه الصفات مباينة لغيرها ؛ في حين أنه لا يحق لنا القول بأن الصفات مغايرة للذات بالنسبة إلى الله تعالى . فالله هو الوجود الأول وهو واجب الوجود لذاته ، أو العلة الأولى أو الحق الذي أكسب كل شيء حقيقته : أما الصفات التي ورد ذكرها في القرآن فلا سبيل إلى إنكارها ، وإنما ينبغي أن نفهم على أنها اعتبارات ذهنية لا غنى عنها ، حتى يستطيع عقل الإنسان القاصر أن يكون لنفسه فكرة عن حقيقة الذات الإلهية . ففي الجملة لم يكن الفلاسفة من المعطلة . وإنما آثروا أن يذهبوا في التنزيه إلى أبعد حدوده .

* * *

د - الأشاعرة :

أما الأشعرى الذي كان من المعتزلة ثم ارتضى العودة إلى مذهب السلف ، وإن لم يلحق بهم تماماً ، فقد فرق مثل خصومه بين صفات السلب

وصفات الإيجاب . وهو يتفق معهم بطبيعة الأمر فيما يتعلق بالصفات الأولى ، لكنه يخالفهم في الصفات الثانية . فهذه الأخيرة زائدة على الذات : فاقه عالم مرید وقادر ومتكلم ، وله كل الصفات التي ورد ذكرها في القرآن ، وهذه الصفات مغايرة للذات ، وهي مختلفة فيما بينها . وقد صرح بأنه بنى رأيه هذا على ما يعلمه من أمر الإنسان وصفاته ، أى أنه ينص على ضرورة تطبيق الاعتبارات الإنسانية على الأمور الإلهية ، بمعنى أن حكم الشاهد يجب أن يكون هو حكم الغائب أيضاً . فاقه عالم بمعنى أن له علماً ، وقادر بمعنى أن له قدرة وهم جرا . وليست هذه الصفات هي عين الذات ، بل هي زائدة عليها .

والمائلة هنا بين الله والإنسان واضحة . فاقه موصوف وله صفات . وليس من الممكن أن تكون الصفة عين الموصوف . وهذه الصفات الإلهية الذاتية أزلية . فنلا لا يجوز أن تكون الإرادة حادثة ، كما يقول المعتزلة لأنها لو كانت حادثة لوجدنا أنفسنا أمام ثلاثة فروض أو احتمالات عقلية ؛ وهي أن يحدثها الله في نفسه ، أو يحدثها في غيره ، أو تكون مستقلة بذاتها . وجميع هذه الفروض مستحيلة ؛ إذ يترتب على الفرض الأول أن يكون الله محلاً للحوادث ، ويترتب على الفرض الثاني أن يكون من تحل فيه إرادة الله مریداً بإرادة الله . أما الفرض الثالث والآخر فلا سبيل إلى قبوله أيضاً ؛ لأن الصفة ستقوم في هذه الحال بنفسها ، وهذا معناه تعدد القدماء حقيقة .

فإذا اعترض على الأشعري : كيف يجوز لنا أن نمائل بين الله والإنسان ، فنقول إن الصفات زائدة على الذات في كلتا الحالتين ؟ — بدأ يجيب بأن الصفات ليست هي الذات ولا غيرها . ونعترف من جانبنا أننا لا ندري كيف تكون الصفات ، لا هي هو ولا هي غيره ، على حد تعبيره . فإن العقل الإنساني العادى ، وغير العادى أيضاً ، يلجح نوعاً من التناقض البديهي

في هذا التعبير . أما أنها ليست بالذات فذلك أمر واضح ، ومعناه أنها مغايرة له ، بمعنى أنها ليست عين الذات . أما أنها ليست غيره فمعناه ، في النظرة الأولى ، أنها هي عين الذات . فهل معنى ذلك أن الأشعري يعود مضطراً إلى التسليم بوجهة نظر المعتزلة ؟ لقد ظن أولاً أنه يستطيع القضاء على هذا التناقض ؛ والاحتفاظ بوجهة نظره ، فقال إن تعدد القدماء في ذات الله لا ينافي الوحدة التي يقررها الشرع . وهنا نراه يفهم المغايرة التي عبر عنها بكلمة « ولا هي غيره » ، فهماً خاصاً ؛ لأن الغيرية أصبحت لا تدل على زيادة الصفات على الذات ، وإنما على « جواز مفارقة أحد الشئيين للآخر على وجه من الوجوه » . وليس هذا في الحقيقة حلاً للمشكلة ، وإنما هو تسليم بها ، أو محاولة للفرار منها ؛ لأن الأشعري يفهم لفظ المغايرة على نحو لا يسوغه الاستعمال المألوف للغة . إنه يريد بعدم المغايرة أن الصفات لا تنفك عن الذات مطلقاً ، فالأشعري يعود إذن إلى القضية الأولى ، وهي أن الصفات زائدة على الذات وقائمة بها . وليست هذه القضية بأقل تناقضاً من سابقتها . فهما سلكتا سبيل الجدل وجدنا أن المشكلة تظل قائمة ، وهي كيف تكون الصفات زائدة على الذات وقديمة ؟ وكيف تكون « لا هي هو ولا هي غيره » ؟ وقد عرضت هذه المشكلة عينها للماتريدي ، فحاول الفرار منها ، فلما ضيق عليه الخناق لم يجد بداً من الاعتراف بما يشبه أن يكون عجزاً عن الاهتداء إلى الحل الصحيح ، أو عوداً إلى مذهب السلف .

ولما جاء هذا التناقض كله بسبب الرغبة في تشبيه الله وصفاته بالإنسان وصفاته . وكان الأولى بالأشعري ، وبمن تبع سبيله ، أن يعترف من أول الأمر أن نسبة الصفات إلى الله سبحانه ليست هي نسبة صفات الإنسان إلى صاحبها ، وأن البحث في الصفات : أهى عين الذات أم شيء زائد عليها نوع من التعمق في الجدل على نحو لا يجدي ؛ أي أنه كان أحقرى به أن

يعود عوداً تاماً إلى رأى السلف ، وأن يترك الخوض في هذه المسألة ،
وأن يكتفى بالتسليم بوجود الصفات الإلهية دون البحث في حقيقتها ؛ لأن
المرء لا يستطيع أن يعبر عنها إلا بلغة إنسانية ، وهى لغة قاصرة . وإذا
كان الإنسان يعجز عن معرفة حقيقة الذات الإلهية فكيف يدعى أنه
يحيط علماً بصفات الله ؟

هـ — الماتربريز :

والآن هل كان الماتريدى أسعد حظاً من سابقه ؟ وهل استطاع الاهتداء
إلى حل حاسم يزيل الشبهة ، ويقرب الشقة بين المعتزلة والأشعرية ،
ويعود بنا إلى النظرة الإسلامية الصادقة البريئة من أوشاب الجدل ؟ إننا نميل
إلى هذا الرأى ، وإن بدا لنا فى أول الأمر أنه يجنح إلى فكرة الأشعرية
مع بعض الفروق اليسيرة . ذلك أنه بدأ يقول إن المذهب الصحيح فى
مسألة الصفات ينحصر فى الاعتراف بأن الله يوصف بجميع صفاته فى
الأزل ، دون تفرقة بين صفات الذات كالعلم والقدرة ، وصفات الأفعال
كالخلق والإحياء والرزق ؛ وبأن هذه الصفات لا يجوز القول بأنها عين
الذات ولا غيرها . لكنه ما لبث أنه مال ميلاً شديداً نحو الأشعرى ،
فقال : إن المراد بأنها لا تغاير الذات هو أنها ملازمة لها ولا تنفك عنها .
لكن لما سئل : وإذا لم تكن الصفات هى عين الذات ولا هى غيرها ، فما
عسى أن تكون ؟ قال : إنها صفات الله . لا مجاوزة عن هذا ، أى أنه
لما ضيق عليه الخناق ، ولم يعترف له بمجادله بمشروعية فهم لفظ المغايرة
على النحو الذى سبقه إليه الأشعرى ، لم يجد بداً من أن يسلم بقوة
الاعتراض ، أو يعترف بعدم القدرة على رفع التناقض . وكان فى استطاعته
أن يخطو خطوة واحدة ليلحق بالمعتزلة أو الفلاسفة ، فيقول إنه لا سبيل
إلى المبالاة بين الخالق والمخلوق ، وإن الصفات هى عين الذات . ولكنه كان

يستطيع أن يخطر مثل هذه الخطوة نفسها في اتجاه مذهب السلف ، فيعترف بأن التعمق في بحث صفات الله يفضي إلى بدعة المعتزلة والأشاعرة ، أى إلى التساؤل عن الصفات : أهى الذات أم زائدة على الذات ؛ وبأن مذهب السلف هو المذهب السليم ؛ لأنه يقر بوجود الصفات ولا يبيح الخوض فيها على نحو يفضي إلى التشبيه الساذج ، أو الغلو في تحديد الصفات هذا الغلو المفرط ، ولو كان عن طريق التنزيه الخالص .

وهنا نجد أن الماتريدى كان أكثر تسامحاً من الأشاعرة تجاه المعتزلة ، فإنه يرى أن إثبات الصفات لله يجب ألا يتضمن تشبيهاً ، وأن هؤلاء الذين أنكروا الصفات بحجة التنزيه ليسوا من المعطلة ، وهو لا يصفهم بالكفر ، وإن رأى أن الإنكار قد يفضي إلى التعطيل ، أى إلى جعل الله فكرة مجردة ، ومن ثم يكون نفي الصفات أكثر خطراً من إثباتها (١) . والحق أن تسامح الماتريدى قاده نحو فكرة جليلة سنجدها مفصلة لدى ابن رشد ، وهى ضرورة استخدام طريق التشبيه والتنزيه فى آن واحد لحل مشكلة الصفات الإلهية . فهذه الصفات معان قديمة . وليس هناك من سبيل إلى التعبير عنها إلا بالألفاظ الإنسانية . فينبغى إذن أن تستخدم هذه الألفاظ فى إثبات الصفة لله عن طريق التشبيه ، ولكن يجب بعد ذلك أن تستخدم طريق التنزيه لنفى كل مماثلة بين صفات الله وصفات الإنسان . فلا يجوز أن تتسامل إذن عن كيفية اتصافه تعالى بالعلم والقدرة ، لأن السؤال معناه هنا أننا مازلنا نصر على المماثلة بين صفات الله وصفات الإنسان . فافقه موصوف بما وصف به نفسه

(١) ذهب فلاسفة الإسماعيلية إلى إن المعتزلة لم يذهبوا فى التنزيه إلى الحد الذى كان ينبغى أن يذهبوا إليه ، فوصفهم بأنهم من المشبهة ، فى حين رمام الأشعرى وابن تيمية بأنهم من المعطلة . وقد انتهى فيلسوف الإسماعيلية حميد الدين الكرماني فى تعطيله إلى حد القول بأن الله سبحانه لا يوصف بالوجود ولا بالعدم .

من غير تشبيه ولا كيفية . والحق أنه كان ينقص الماتريدي ، حتى يحل المشكلة حلاً صحيحاً تاماً ، أن يقول إنه من البدعة أن نتساءل عن الصفات أهي عين الذات أم زائدة عليها ؛ إذ كيف يحق لنا أن نطبق المقولات الإنسانية على الله سبحانه ، وكيف للكائن المنتهى أن يتناول إلى معرفة حقيقة صفات^٢ اللامتناهى ، أى كيف يستطيع المخلوق ، أو يدور بخلده أنه يستطيع الاهتداء إلى معرفة صفات الخالق فيعلمها على حقيقتها ، لكي يحدد لنا بعد ذلك أنها زائدة على ذاته أو أنها هي عين ذاته . ، إنه لو فعل لما كان إنساناً ، أو لكان الله سبحانه إنساناً أزلياً ، على حد تعبير جند لابن رشد . فأيا ما سلكنا اتهمنا دائماً إلى قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » ، ، وإلى أن هؤلاء الذين أثاروا مشكلة الصفات إنما ابتدعوا للمسلمين مشكلة مزعومة ، فرقتهم وجمعت بعضهم يكفر بعضاً ، مع أنه كان يكتفى في حلها أن توضع وضعا جيداً منذ أول الأمر ، فيقال هل تجوز المماثلة بين الله والإنسان ؟ فإنها لو حددت على هذا النحو لما تطلبت حلاً ، ولعلم واضعوها أنه أولى بهم أن يعترفوا بهذه الصفات ، دون أن يبحثوا في حقيقتها ؛ لأنه ليس في طاقة المخلوق أن يعلم ذات الخالق وصفاته على النحو الذي يعلمه من نفسه وصفاته هو .

و — أبى بشر :

من المؤكد أن ابن رشد كان أول من فطن من المتأخرين إلى عقم الجدل في صفات الله ، فوصف البحث فيها بأنه بدعة لا تتفق مع ما جرى عليه المسلمون في أول عهدهم . وهو أكثر وضوحاً وجزماً من أبى منصور الماتريدي الذي ، وإن بدت له طلائع الحل الموفق لهذه المشكلة ، إلا أنه عجز عن التحرر من النطاق الذي ضربه حوله الخلاف بين هؤلاء الذين سبواوه إلى بحث الصفات . وقد قلنا إنه لم تكن هناك سوى خطورة واحدة تفصل الماتريدي عن فكرة السلف ، لم يجهز هذه الخطوة كما كان ينبغي له أنه

يفعل لو سار في طريقه حتى النهاية، ولو استنبط من قوله بأن الصفات ليست هي هو ولا هي غيره، النتيجة المنطقية التي تترتب عليها، وهي ترك الجدل في هذه المسألة، وإنما الذي اجتاز هذه الخطوة هو أبو الوليد بن رشد، رغم حالي من الفقهاء والمتكلمين. فقد رماه هؤلاء بالإلحاد، إن لم يكن بالكفر، لالشيء إلا لأنهم كانوا يريدون عرضاً من الحياة الدنيا^(١)، وإلا لأنه لم يتردد في وصفهم بالبدعة وضعف الحجة.

ففي رأي هذا الفيلسوف أن ما جاء في القرآن الكريم من أوصاف الله لا يمكن أن يشعرنا بوجود أي نوع من التعدد في ذاته تعالى، ولو كان هذا التعدد الذي لا يناق في الوحدة الواجبة كما كان يقول الأشعري، ذلك لأن الصفات على نوعين: صفات ذاتية وجردية وهي تلك التي تنفي عن الله أوجه النقص التي يمكن أن توجد في صفات الإنسان، وصفات أفعال، وهي تلك التي تحدد الصلة بين الخالق والمخلوق. وحقيقة ما كان للتكلمين أن يفترقوا في هذه المسألة؛ إذ كان ينبغي لهم أن يلتزموا دائماً مبدأ التفرقة الفاصلة بين العالم الإنساني والعالم الإلهي. لكن الأشاعرة خرجوا على هذا المبدأ علانية فقالوا بأن الصفات معنوية، أي أنها تعبر عن معاني قائمة بالذات، وغفلوا عن أن هذا القول يقضي إلى شبهة يعجز الرجل العادي عن حلها، أن أنه يقوده رأساً إلى التجسيم؛ إذ سوف تكون الذات موصوفاً له صفات، أي شبهة بالجواهر الذي له أعراض. ونحن نعلم أن الجوهر هو الذات التي تقوم بنفسها، وأن الأعراض تقوم بغيرها، أي ليس لها وجود ذاتي، وأن ما يتركب من الجواهر والأعراض هو الجسم بالضرورة. فإذا نحن قلنا إن نسبة الصفات إلى الله هي نسبة صفات الإنسان إلى ذاته فربما أدى ذلك بالجمهور إلى أن يتخيل أن الله سبحانه

(١) أظن كتابنا ابن رشد وفلسفته الدبيلية (محنة وأسبابها) ص ٢٣ وما بعدها.

جسم ، أو أنه نفس كلية تحل في الكون . وكل ذلك — كما يقول ابن رشد

— بعيد عن مقصد الشرع

نقد .

كذلك لا يميل فيلسوفنا إلى رأى المعتزلة كل الميل . فإن التسوية بين الذات الإلهية وصفاتها ليس بالرأى الذى يستطيع الجمهور قبوله ؛ لأنه ليس بديهاً ، وليس بالرأى الذى جاء به الشرع . وقد رأينا كيف اضطروا إلى إثبات صفى العلم والقدرة ، وكيف تقود هذه التسوية إلى القول بأن العلم هو القدرة ما دام كل منهما عين الذات . فالتصريح بهذا الرأى ، الذى قد يكون أبعد في التنزيه من رأى خصومهم ، لا يقنع العامة بل هو بعيد عن أفهامها ، والتصريح به بدعة ، وهو أن يضل الجمهور أخرى منه أن يرشدهم .

ونحسبنا إجمال الخلاف في مسألة الصفات فنقول إن هناك ثلاثة مذاهب : الأول هو رأى المعتزلة ، ويتلخص في نفى التعدد أيا كان نوعه ؛ لأن الصفات هي عين الذات ولا كثرة هناك ؛ ولا يجوز بحال ما أن يتعدد القدماء في الذات الواحدة . ثم يأتي بعد ذلك مذهب هؤلاء الذين يرون أن الصفات زائدة على الذات . ويتفرع هذا المذهب إلى فرعين أحدهما رأى النصارى الذين يقولون بتعدد القدماء واستقلال كل منها بنفسه ؛ وثانيهما هو رأى الأشاعرة الذين يقررون أن الصفات ، وإن كانت قديمة ، فإنها قائمة بذاته تعالى ^(١) . وإذا نحن قارنا بين هذه المذاهب جميعها وجدنا أن رأى المعتزلة أقربها إلى التوحيد والتنزيه ، ونفى المماثلة بين العبد والرب ، وإن أخذ عليه أنه يعالج مسألة يعجز العقل الإنسانى عن سبر

(١) قال ابن رشد : « فبنا ثلاثة مذاهب : مذهب من رأى أنها نفس الذات ولا كثرة هناك ، ومذهب من رأى الكثرة وهؤلاء قسمان : منهم من جعل الكثرة قائمة بذاتها ، ومنهم من جعلها كثرة قائمة بغيرها وهذا كله بعيد عن مقصد الشرع . » انظر آخر الفصل الثالث من كتاب «ناهج الأدلة» .

غورها وتسكوين فكرة مطابقة عنها . فن هذه الجهة فقط كان رأيهم بعيداً عن مقصد الشارع ومخالفاً لما جاء به الكتاب العزيز . والرأى الحق في ذلك هو الاعتراف بوجود الصفات دون تفصيل الأمر فيها .

فليس من شأن العامة ولا المتكلمين إذن أن يشغلوا أنفسهم بما لا طاقة لهم به ، وينبغي لهم أن يعترفوا بتعدد الصفات ، وأن يدعوا لرجال البرهان والفلسفة أن يقرروا هذه الحقيقة الكبرى وهي : أن الصفات لا يمكن إلا أن تبدو متعددة من وجهة النظر الإنسانية ، أما في حقيقة أمرها فهي فوق مستوى عقولنا جميعاً وهذه حقيقة يرى ابن رشد أنه من الواجب ألا يصريح بها للجمهور ، لا لأنها خاطئة ، ولكن لأنهم معجزون عن فهمها . وهذا هو السبب في أن القرآن يعدد الصفات ، لأنه يتجه إلى الناس على الحقيقة وهم الجمهور (١) .

• — صفات الأفعال

ومن المسائل التي اختلف فيها المتكلمون مسألة صفات الأفعال كالرأفة والرحمة والخلق والرزق . وتلك بدعة جديدة لأن السلف كانوا لا يفرقون بين صفات الذات وصفات الأفعال . كذلك لم يتفق المتكلمون على تحديد هذه الصفات الأخيرة . فالمعتزلة لا يعترفون من صفات الذات إلا بالعلم والقدرة ، وهما اللتان لا يجوز وصف الله بصددهما ، بينما يرون أن كل صفة يمكن أن يجري عليها النقي والإثبات تعد من صفات الأفعال . ولذا قالوا بأن الخلق والرزق والكلام والإرادة كلها صفات أفعال ، وهي حادثة

(١) يقول ابن رشد في كتابه تهافت التهافت ط بيروت ص ٣٥١ : قول من قال إن علم الله وصفاته لا تكيف ولا تناس بصفات المخلوقين حتى يقال إنها ذات أو زائدة عن الذات هو قول المحققين من المعتزلة والمحققين من غيرهم من أهل العلم ، والله لوافي المأدب .

عندهم . أما الأشاعرة فيذهبون إلى أن صفات الأفعال هي التي لا يلزم من نفيها نقيضها كالإحياء والخلق والرزق ، وهي حادثة عندهم أيضاً ^(١) . فهم يخالفون المعتزلة إذن في صفتي الكلام والإرادة ؛ لأنهما من صفات الذات ؛ ولأنهما قديمتان في رأيهم . وهذا هو منشأ الخلاف بينهم في مسألة القرآن أهو قديم أم حادث ، كما ستعرض لذلك بعد قليل . أما الماتريدي فرغب عن رأي هاتين الطائفتين ، وقال بأن صفات الأفعال قديمة كصفات الذات سواء بسواء . هذا إلى أنه يسوى بين صفات الأفعال كلها ، ويجمعها في صفة واحدة هي صفة التكوين . وهذا يشبه إلى حد ما ما فعله المعتزلة من التسوية بين العلم والقدرة وذاته تعالى .

ويمكن تفسير هذه البدعة بأن الأشاعرة والمعتزلة ربما قالوا إن هذه الصفات تتعلق بالأشياء الحادثة ، فلو كانت صفات الأفعال قديمة لوجب أن توجد الأشياء منذ الأزل ، وهذا معناه التسليم بقدم العالم . وعما يرجح تفسيرنا هذا أن الماتريدي قطن إلى اعتراض الأشاعرة ، فقال إن صفة التكوين قديمة ، وما يترتب عليها حادث . وليس في ذلك ما يشعرنا بالتناقض ؛ لأن علم الله وقهره وإرادته تتعلق بالحوادث ، فكان ينبغي أن يقال في هذه الصفات إنها حادثة ^(٢) .

على أنه يمكن الكشف عن الدافع الحقيقي الذي حفز الأشاعرة والمعتزلة إلى القول بحدوث صفات الأفعال ، وهو أنهم وقعوا في التشبيه بين أفعال الله وأفعال العبد ، فغفلوا عن أن الأفعال الأولى تخضع للشروط التي تتطلبها الأفعال الثانية ، وأنهم هذه الشروط — كما نعلم — فكرة الزمن . فالإنسان لا يفعل إلا في زمن . لكن الذي يصدق على فعل الإنسان

(١) شرح الفقه الأكبر للماتريدي طبعة حيدر آباد ص ٢١ .

(٢) كتاب التوحيد للماتريدي . ورقة رقم ١٢ — ٢٣ .

لا يصدق بالضرورة على فعل الخالق ؛ لأن الزمن فكرة إنسانية ، وفيه يفرق المرء بين الماضي والحاضر والمستقبل ؛ بينما تستوى هذه الأزمان كلها بالنسبة إليه تعالى . وكيف يعقل أن نخضع الله سبحانه لفكرة الزمن إذا كان الزمن مقياساً لحركة الأجسام ، والله ليس بجسم ، ولا تجري عليه أحكام الأجسام ؟ فأفعال الله قديمة في حد ذاتها ، ولكنها تبدو لنا حادثة لأننا لا نتصور تحقق الأفعال إلا في زمن محدد .

فالمشكلة هنا أيضاً ليست جوهرية ، والخلاف بين هذه المدارس الكلامية يرجع ، في الحق ، إلى مقدار احترام كل منها لمبدأ التنزيه الذي قرره القرآن الكريم ، عندما نفى المماثلة بين صفات الله وأفعاله ، وصفات العبد وأفعاله ، ثم برهن على ذلك بقوله : « أَتَمَنِّيَخْلُقُ كَنَ لَا يَخْلُقُ . » ، ومن المؤكد أن الماتريدي كان أقرب إلى مذهب الساف من الأشاعرة والمعتزلة في هذه النقطة ؛ لأنه لم يفرق بين صفات الأفعال وصفات الذات باعتبار الحدوث والقدم ، ولأنه بين أن الصلة بين الله والعالم لا تتضمن فكرة الزمن من جانبه تعالى ، حتى يقال إن بعض أفعاله حادث .

٦ — العلم

١ — المعتزلة :

لم ينكر المعتزلة هذه الصفة . لكنهم سووا بينها وبين الذات كما فعل . فقال العلاف إن الله عالم يعلم هو ذاته . ومعنى إثبات العلم لله هو إنكار ضده عنه . ومعنى هذا أنه صفة سلبية تنفي الجهل عنه تعالى . ثم جاء النظام فنص على أن هذه الصفة صفة سلبية ، وأن جميع الموجودات معلومة لله ، أي تتكشف لعلبه الذي ليس زائداً على ذاته ، وهي صفة قديمة أيضاً ، فلا يطرأ عليها التغيير ؛ إذ لو تغيرت لكان معنى هذا أن الله محل للحوادث ،

وما لا ينفك عن الحوادث حادث أيضاً . وهنا تعرض المشكلة الآتية وهي : إذا كانت الأشياء التي ينصب عليها هذا العلم تتغير دون انقطاع ، كما يشهد بذلك الحس ، فكيف لا يكون العلم متغيراً تبعاً لذلك ؟ لقد أجاب المعتزلة عن هذا الاعتراض بقولهم إن التغير صادق بالنسبة إلى علم الإنسان ، لأن هذا العلم ينبع من حواسه ، وهذه تتوقف على الأشياء المتغيرة . أما الله فإنه يعلم بالشئ قبل أن يكون على أنه سيكون ، ويعلم بالشئ إذا كان على أنه كان ، وبالشئ إذا عدم على أنه عدم . فتغير الأزمان يؤدي إلى تغير علم الإنسان ؛ في حين أن فكرة الزمن لا تنطبق على العلم الإلهي ؛ لأن جميع الأزمان سواء بالنسبة إليه . فكل شئ معلوم له منذ الأزل إلى الأبد ، دون أن يكون حدوث الأشياء وتغيرها سبباً في تغيره أو حدوثه . فواضح إذن أن المعتزلة يفرقون بفرقة حاسمة بين علم الإنسان وعلم الله باعتبار الزمن . لكن كان ينقصهم أيضاً أن يبرزوا فكرة أخرى ، وهي أن علم الله لا يمكن أن يشبه علم الإنسان ، لأن العلم الأول سبب في وجود الأشياء ، والثاني مسبب عنها ، فوجه المقارنة بين العليين معدوم (١) .

ب - الأشعرية :

بدأ الأشعرى بأن قال إنه لا سبيل إلى الإحاطة بمعرفة العلم الإلهي ؛ إذ يقول الله في كتابه العزيز : ~~ولا يحيطون بشئ من علمه~~ ، ثم بين لنا أن الجهمية تنفي العلم ، وأنها كانت تود أن لو قالت أيضاً إن الله غير عالم ، فلم يمنعها من ذلك إلا الخوف من السيف . ومع أن المعتزلة لا ينفون العلم ، كما يعترف بذلك المانريدي نفسه على ما سترى بعد قليل ، فإن الأشعرية تؤكد لنا أن المعتزلة أخطأوا رأيهم من الزنادقة ، وأنهم لم يصرحوا

(١) عالجنا هذه المسألة بالتفصيل في كتاب نظرية بن رشد في المعرفة ، القسم الثاني ، وهو ملخص بالمعنى الإلهي . نهر الانجلو المصرية سنة ١٩٦٤ .

به ، ولكنهم عبروا عن معناه . فثلا يقول العلاف إن علم الله هو الله فلما طلب إليه أن يدعو فيقول : يا علم الله اغفر لي ، أي ذلك . ولذلك يصفه الأشعري بأنه خارج عن جماعة المسلمين .

أما نقده للمعتزلة في هذه المسألة فيتلخص في أن علم الله لو كان ذاتاً لأصبح العلم عالماً والعالم علماً ، أو أصبحت الصفة ذاتاً والذات صفة ومن ثم يجب أن يكون العلم في رأيه صفة زائدة على الذات . ومن الواضح أنه يمانئ هنا بمائلة تامة بين علم الإنسان وعلم الله . كذلك يحتاج عليهم فيقول كيف يشبّهون الله كلاماً وينفون عنه العلم ، مع أن الكلام أخص من العلم ولماذا يعتمد المعتزلة على قوله تعالى : « إنه بكل شيء عليم » ، ولا يعتمدون على قوله : « أنزله بعلمه » ، وقوله : « وما تحمل من أثق ولا تضع إلا بعلمه » وتشبه هذه الحجة سابقتها تماماً في أنها لا تنقض شيئاً ؛ لأن المعتزلة لا ينفون صفة العلم ، وإنما ينكرون أن تكون صفة زائدة على الذات . ثم تراه يسأله فيقول : إنكم تعترفون بأنه عالم ، والعالم مشتق من العلم ، فالعالم معناه إذ أنه ذو علم ؛ ثم لماذا تنفون عنه العلم ولا تنفون أسمائه التي وردت في القرآن ثم إذا كان الله يفرق بين أوليائه وأعدائه ، أفليس معنى هذه التفرقة أخصف بالعلم ؟ وإذا كنتم تثبتون العلم للإنسان فلماذا تنفون عنه علم الله أليس العلم شرفاً للإنسان والجهل نقصاً فيه ، فكيف لا يكون الأمر كذلك في حقه تعالى ؟ وأخيراً كيف يمكن أن يوجد النظام والإتقان في الكون إذا لم يكن الله عالماً ؟

وبديهي أن هذه الأدلة الأخيرة كلها ليست فاصلة ؛ بل تدل بالآخر : على أن الخلاف بين الأشعري والمعتزلة خلاف لفظي ؛ لأن هؤلاء ليسوا كما قلنا أكثر من مرة . من المعطلة ؛ إذ هم لا ينكرون صفة العلم أساساً وإنما يتخرجون من القول بأنها تشبه صفة العلم عند الإنسان . هذا إذا

أنهم هم الذين يقولون بالعناية الإلهية وبالعدل الإلهي ، وكلاهما لا يكون إلا لمن يوصف بالعلم . وكيف يمكن أن يحتاج عليهم بوجود النظام والاعتقان في العالم ، وهم أكثر إثباتا له من الأشاعرة أنفسهم ؟ .

ح - الماتريدي :

استدل الماتريدي على وجود صفة العلم لله بآيات من القرآن الكريم ، ثم برهن عليها بدليل عقلي هو ما نراه في الكون من علامات الحكمة والاعتقان والعناية . وهو على وثاق مع المعتزلة والأشاعرة في أن العلم صفة قدعة ، ولا يحصل بأداة ولا يترتب على تفكير ونظر ، وفي أنه من صفات الكمال لأنه ينفي الجاهل ؛ وفي أن الله يعلم نفسه ويحيط بكل شيء غيره . غير أنه تبع الأشعري في نقد المعتزلة ، فاتهمهم بأنهم ينكرون أن العلم صفة ذاتية . ومع هذا نرى أنه كان أقل قسوة من الأشعري مع خصومه . فهو لا يكفرهم ولا يتهمهم بالتعطيل ، بل ينسب إليهم الخطأ والزلل . أما حجته عليهم فتتصر في أنهم لا يماثلون بين الله والإنسان ، أي أنهم لا يقيسون الغائب على الشاهد ، ولو أنهم فعلوا لعلوا أنه لا يجوز مطلقاً أن يوجد ذات دون صفات زائدة عليها . وتلك في الحق حجة غير حاسمة ؛ إذ للمعتزلة أن يعتمدوا على قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » ، وما كان ينبغي لخصومهم أن يصفوهم بالكفر أو الزيغ لهذا التنزيه .

د - ابن رشد :

يشبه ابن رشد الماتريدي ، والأشعري أيضاً ، في إثبات صفة العلم ، فإن دقة صنع العالم ، وما يتطوى عليه من حكمة بالغة ، وعناية تفجأ الحس والعقل معاً ، دليل على وجود الله حكيم عالم ؛ إذ ليس من الممكن عقلاً أن يتحقق هذا

الاتساق والنظام في الكون عن طريق الارتجال أو بفعل الطبيعة الجامدة ومن المسلم به أن الطبيعة تحتوى على غايات محددة، وهذه الغايات لا يمكن أن تتحقق إلا بوسائل تناسبها وتطابقها. ولا بد من معرفة الخالق بهذه الوسائل وإذن فن الضرورى أن يكون صانع العالم ومدبره حكيمًا يحيط عليه به شىء. وقد جاء القرآن يؤكد وجود هذه الصفة لله تعالى. فمن ذلك قوله «وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسه من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين» وقوله: «وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فى الأرض ولا السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» وقوله: «تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أعلا إلا هو معهم أينما كانوا».

والعلم صفة قديمة، كما اتفق على ذلك المتكلمون جميعاً. لكن يجب تعمق فى بحث معنى القدم. ومن البدعة أن يشغل الناس أنفسهم بمعرفة إذا كان الله يعلم الأشياء بعلم حادث أو بعلم قديم. لقد ذهب الأشياء بغيرهم إلى أن علم الله للحادث وقت حدوثه ووقت عدمه علم واحد. وقد مر يبدو منافياً للعقل فى نظر الرجل العادى. والسبب فى ذلك أن هو متكلمين يقارنون بين علم الله وعلم الإنسان، ويعتقدون أن العلم يجب أن يكون مترتباً على الأشياء المعلومة فى كلتا الحالتين، مع أن علم الله شياً لأشياء جميعها، وعلم الإنسان ينمو شيئاً فشيئاً، ويخرج من القوة إلى الفعل فهو علم نسبي: يبدأ بالإحساسات، ثم ينتقل إلى التصور والخيال، ثم يمر بالمعاني الكلية، ويستخدمها فى استنباط معلومات جديدة. فهو إذن ناقص. أما علم الله فيجب أن يكون مجرداً من كل نقص. ولا يتحقق ذلك إذا كان مترتباً على الأشياء، أو كان ينتقل من القوة إلى الفعل،

هي الحال في علم الإنسان . وهذا هو السبب في أن الشرع ينص على أن الله يحيط بكل شيء علماً ، دون تفصيل القول بأن العلم حادث أو قديم . فيكفي إذن أن نعرف بأن الله عالم بما يكون على أنه سيكون ، وبما كان على أنه كان ، وبما تلف على أنه تلف وقت تلفه^(١) .

فمن البدعة إذن ما يصرح به الأشاعرة من أن الله يعلم الأشياء الحادثة يعلم قديم ؛ لأنهم يقولون أيضاً إن ما لا يتفك عن الحوادث حادث . فإذا جمع من لا علم له بجدلهم بين هذين القولين ، فربما ظن أن هناك تناقضاً بينهما ، مما يؤدي إلى حيرته وريبته . وكان من الممكن أن يقضى الأشاعرة على هذه الشبهة لو أنهم فطنوا إلى أن علم الله لا يخضع لمعايير الزمن ، وأن فكرة تقسيم الزمن إلى ماضٍ وحاضر ومستقبل تناسب العلم الإنساني الناقص ، لا العلم الإلهي الكامل .

ومن البدعة أيضاً ما ذهب إليه فلاسفة الإسلام ، كالغزالي وابن سينا ، عندما قالوا إن علم الله كلي لا جزئي ، أي أنه يدرك نفسه ، فيؤدي ذلك إلى نشأة الكائنات عنه بطريق الفيض ؛ أو بأن الله يعلم الأشياء الجزئية بعلم كلي ، أي عن طريق معرفة قوانينها العامة . دون أن ينصب هذا العلم على كل حادثة جزئية في حد ذاتها . ولقد كفر الغزالي ابن سينا والغزالي بسبب هذه النظرية الغريبة عن روح الإسلام . أما ابن رشد فيرى أنها بدعة ما كانا أغنانا عنها . وإنما أخطأ الفلاسفة هنا لأنهم قارنوا بين العلم الإنساني والعلم الإلهي ، وأرادوا أن يطبقوا خصائص العلم الأول على العلم الثاني .

وإذا لم يكن بد من إعطاء رأي في مسألة العلم الإلهي : فهو كلي أم جزئي

(١) انظر آراء ابن رشد في العلم الإلهي في القسم الثاني من كتاب نظرية المعرفة عند

فمن الأولى أن يقال : إن عليه خاص ، أى يتصب على كل جزئية في هذا الكون ؛ إذ لا يجوز عقلاً ألا يعلم الله الأشياء التى هو سبب في وجودها وإذن يجب العدول عن التأويل والجدل والتقسيم والشكوك التى تثير آراء المتكلمين والفلاسفة ، عندما يتساءلون عن قدم العلم أو حدوثه ، وععمومه أو خصوصه . وخير من ذلك كله أن نقول إن الله يحيط بكل شئ علماً ، وإن عليه يختلف تماماً عن علمنا ؛ لأن عليه سبب في وجود الأشياء وعلمنا مسبب عنها .

١ - المعتبرة :

إن لقد ارتضت هذه الفرقة أن تجعل الإرادة من صفات الأفعال . ولا فست على حدوثها ؛ لأن أفعال الله تتصل بمخلوقاته ، وهذه حادثة . وإذن فمن الضروري أن تكون الإرادة حادثة بحدوثها . ومعنى هذا أنهم اعتمدوا في رأيهم هذا على مبدئهم المعروف ، وهو أن ما يقارن الحوادث حادثة مثلها . وهكذا لا نجد لديهم تلك المشكلة التى ستعرض الأشاعرة وغيرهم من قالوا إن إرادة الله قديمة ، وإنما تنصب على الأمور الحادثة .

وتترتب صفة الإرادة عند المعتزلة بمسائل أخرى ستعرض لها في موضعها بالتفصيل كأفعال العباد ، والخير والشر ، والحسن والقيبح ووجه ارتباطها بهذه المسائل أنه لا يمكن نسبة الشر أو القبيح إلى الله ؛ بل أولى أن ينسب ذلك إلى غيره ، لأن مريد الخير خير ، ومريد الشر شرير . فالكفر والمعصية شران ، وليس من الجائز أن يريد الله لعباده الكفر أو المعصية . ثم لو جاز ذلك ، رغم منافضته لأبسط قواعد التنزيه ، فكيف يجوز عقاب العاصي أو الكافر ؟ وكيف يمكن أن يريد الله الكفر لعباده

ثم يأمرهم بالإيمان ؟ فالشر إذن يقع من الإنسان والله كاره له ، وليس في كراهيته له أدنى دليل على الضعف . فإن الله لا يرضى لعباده الكفر ، كما يقول في كتابه العزيز . فهل إذا وقع الكفر بالفعل كان معنى ذلك أن الله أكرهه على قبوله ؟ أليس أولى بذى العقل أن يقول إن الله خلق أسباب الهداية والغواية ، فأثر فريق من الناس أن يتبع إحدى السبيلين ؟ وحقيقة لو أراد الله الكفر لعباده لحق للمشركين ، كما يقول المعتزلة ، أن يحتجوا على الله بأنه أراد كفرهم : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء . كذلك ظنوا الذين من قبلهم ، وكيف لأحد أن يقول إن الله يريد الشر وهو يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ؟

وسوف نعود إلى هذه المسألة في موضعها . ولكننا نشير هنا من أول الأمر إلى أن المعتزلة ، الذين يفرقون بين عالم الغيب والشهادة فيما يتصل بمسألة الصفات حرصاً على التنزيه ، وجدوا في هذا الموضع أن يقيسوا الغائب على الشاهد ؛ لأن إرادة الشر سفة في الإنسان ، فمن باب أولى أن تكون كذلك بالنسبة إلى الله تعالى . فالقصد واحد في كلتا الحالتين ، أي أنهم ينفون عن الله كل شبه مع الإنسان في صفاته الناقصة ، ثم ينفون عنه أن يوصف بإرادة الشر .

ب - الاستمراء :

أما هؤلاء الذين يقيسون الغائب على الشاهد في معظم المسائل على وجه التقريب ، فقد آثروا هنا أن يعدلوا عن منهجهم ، وأن يفرقوا تفرقة حاسمة بين الله والإنسان . وهم يريدون بذلك أن يؤكدوا الإرادة المطلقة لله . فأنه في نظرهم يريد الشر والخير والحسن والقيبح . وليس في إرادة الشر

أو القبيح ما يصح أن يوصف من أجله بالسفه ؛ بل ذلك دليل على عظمته ؛ وكيف يميزون ، في ظنهم ، ألا يريد الله الشر؟ إن الشر والخير يحتاج كل منهما إلى إرادة ؛ لأنها حادثان وكل حادث فهو مراد الله . وقد أرادوا أن يبرروا وجهة نظرهم ، وأن يخففوا سوء وقعها على النفس ، فقالوا إن أفعال الله التي يريد بها ، سواء أكانت خيراً أم شراً ، ليست موجبة لغرض .

أو غايه . فكان العذر أقيح من الخطأ
~~صحيح~~ ~~ثم استدلو~~ ~~أعلى~~ ~~ضرورة~~ ~~أن~~ ~~تكون~~ ~~إرادة~~ ~~الله~~ ~~علة~~ ~~في~~ ~~الخير~~ ~~والشر~~ ،
فقالوا إنها تشبه العلم تماماً . فهي صفة ذاتية وقديمة مثله . وكما أنه إذا حدث شيء في السكون دون علم الله كأن جاهلاً ؛ كذلك لو وقع شيء على غير إرادته لكان معناه أننا ننسب إليه سبحانه الغفلة والسهو ، أو الضعف والتقصير . فأنه خالق كل شيء ، وهو إذن مرید لكل شيء . وليس من هدفنا أن نعرض بالنقد لرأى الأشاعرة في هذا الموطن ؛ إذ سنعود إليه عندما نتكلم عن أفعال العباد وقدرتهم . ويكفي أن نذكر هنا أننا لا نرى رأيهم الذي يعد مضاداً للعقل ولروح الشرع .

ولما أرادوا أن يبرهنوا على فساد رأى المعتزلة لجأوا إلى أدلة ليس لها برهان القوة إلا مظهرها ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن كلام الفريقين يتكلم لغة تختلف عن لغة الآخر . فثلاً يحتج الأشاعرة ويقولون كيف يعترف المعتزلة بعلمه تعالى ولا يعترفون بالإرادة؟ ولا ندرى إذا كان المحتج مخلصاً في احتجاجه ، لأننا رأينا منذ قليل أن الأشعرى يتهم خصومه بأنكار صفة العلم . فإذا نحن تجاهلنا هذا الموقف ، كما يتجاهله صاحبه ، رأيت أن هذه الحجة ساقطة لأن المعتزلة لا يشكرون الإرادة ، وإنما يقولون إنها حادثه ، وإنما لاتنصب على الشر والقبيح . وقد أحس الأشعرى نفسه بعدم جدوى الحديث في هذه المسألة ، فانتقل إلى حجة أخرى تهدم السابقة

فقال : إذا اعترفتم بأن العلم قديم فلماذا تدعون أن الإرادة حادثة ؟ وفي ظننا أن المعتزلة تستطيع الرد ، دون عسر ، فتقول إنها إنما كانت كذلك لأنها صفة من صفات الأفعال ، وهذه حادثة عند الأشعرى . كذلك احتج خصومهم بأن الإرادة لو كانت حادثة فلا بد من إرادة أحدثها ، ولا بد لهذه الإرادة الثانية من إرادة ثالثة ، وهكذا إلى غير نهاية . وربما أحس الأشعرى بضعف هذه الأدلة السابقة ، فأنبعها بدليل اعتقد أنه حاسم ، مع أن تتابع الأدلة على هذا النحو ربما كان دليلاً على ضعفها ؛ لأن الحجة الحاسمة خير من ألف حجة واهية . أما هذه الحجة الأخيرة فهي أن الله إذا كان لا يريد الشر وإبليس يريد فلهذا الأخير أنفذ إرادة من الله سبحانه . على أننا سنرى فيما بعد كيف ينقض ابن رشد مثل هذا الدليل ، فيقول إن الله يخلق الشر القليل بجانب الخير الكثير ، وهو يريد الخير بأسباب الشر . فلا مجال إذن للقول بأن الله يريد الشر حقيقة

نعمكم تكلمه ^{الشرار} ، ثم أورد الأشعرى أدلة أخرى منها أن العباد إذا فعلوا ما لا يرضاه الله ، فأكرهوه على وجود الشر ، كان معنى ذلك أننا ننسب إليه تعالى السهو والغفلة أو الضعف والتقصير ؛ إذ سوف يفعل ما لا يريد . ومن الواضح أن هذه الحجة ترتبط بفكرة أفعال العباد وقدرتهم على خلقها ، أو اكتسابها ؛ وأن المعتزلة يستطيعون الدفاع عن وجهة نظرهم ، فيقولون إن للعبد اختياراً ، وهو يخلق الشر بالقدرة التي خلقها الله له ، والتي تصلح للضدين . ومن هذه الأدلة أيضاً أن المعتزلة يقولون إن الذي يريد السفه يعد سفيهاً ، مع أن ذلك القول ليس صادقاً على إطلاقه ، فإن أحدهما فرض أن يمد يده لسكى يقتل أخاه ؛ بل آثار أن يكون مقتولاً حتى لا يبهو يأثم أخيه . فهو يريد السفه ، لكنّه لم يكن سفيهاً . ولذا متى أراد الله السفه من عباده لم يكن سفيهاً . هذا إلى أن السفه يمكن تصوره من الإنسان ولا يتصور حدوثه من الله . فالرجل الذي يترك

عبيده وإمامه يزنون ، دون أن يحول دون فسوقهم سفيهاً . أما الله فيترا
 خلقه يزنون ، ولكنه ليس سفيهاً لأن إرادته مطلقة وهو لا يخضع لشيعة
 في الجملة بحج القول بأن الله يريد السفه وليس سفيهاً . على أننا نستطيع
 أن نتساءل : ولماذا يريد الله السفه ؟ ألم يكن من الخير ألا يريد ؟ وهكذا
 تنتهي من هذه الأدلة جميعها إلى نقطة الخلاف الجوهرية بين المعتز
 والأشعرية . فالأولون ينقون إرادة الله للشر ؛ لأنهم يهدفون إلى التميز
 الخالص ، والآخرون يؤكدون إرادة الشر ؛ لأنهم يحرصون على إثبات
 القدرة المطلقة التي تختار الشر أو الخير ، مع ما في ذلك من المماثلة بين إرادة
 الله وإرادة العبد ، على عكس ما يقول الأشاعرة من عدم جواز قيام
 الغائب على الشاهد هنا . وكلا المقصدين مما يمكن الدفاع عنه ، مما يوحى إل
 بأن الخلاف لا يمكن أن يكون عميقاً بين الفريقين ؛ لأن الله إذا أراد الشر
 ولم يكن شريراً ، وأراد السفه ولم يكن سفيهاً ، فالسبب في ذلك أنه لا يخلو
 الشر من أجل الشر ، ولا يريد السفه من أجل السفه ، وإنما يفعل ه
 وذلك لتحقيق خير أعظم ، أو حكمة تخفى على عقوانا القاصرة . وه
 الرأي المعتدل هو الذي اهتدى إليه فيلسوف قرطبة أبو الوليد بن رشد
 عندما بين أن كلا من المعتزلة والأشاعرة حاموا حول المشكلة ، دون أ
 يجدوا لها حلاً شافياً ، وأن الله يخلق أسباب الخير ويريد بها الخير
 ويخلق أسباب الشر ويريد بها الخير . ولذا فلا مجال لوصفه بالعجز
 أو السفه إلى غير ذلك من الالفاظ التي لا يليق بنا استخدامها في حديثنا ع
 الله سبحانه ، وسنعود إلى هذه المسألة عند الكلام عن مسألة الجور والعدل
 ١ - بيد ذلك نقدم مقصد ١١
 ح - الماترى : لقد نقدم ١٢ ١٣
 أما الماترى فيبدو أنه يتفق مع الأشعرية في هذه المسألة ؛ لأنه يقر
 مثلهم قدرة الله المطلقة ، بمعنى أنه تعالى يريد الخير والشر على حد سواء

ما انتهى إليه الأشعرية من أن الله يريد الأشياء الحادثة بإرادة قديمة . فهذا أمر لا يعقله العلماء ، ولا يقتنع به الجمهور . أما أن العلماء لا يعقلونه فدليله أنهم اختلفوا بالفعل في حدوث الإرادة أو قدمها . وأما عدم اقتناع الجمهور فذلك لأنه ربما تساءل : وما السبب في أن الإرادة القديمة تتحقق في وقت دون آخر ؟ أليس من الممكن أن يكون ذلك راجعاً إلى وجود عزم على الإيجاد لم يكن موجوداً من قبل . (١) فالأجدر بنا أن ننصرف عن بدعة المعتزلة الذين ظنوا أن إرادة الله حادثة ؛ لأنهم قاسوا الغائب على الشاهد ، وعن بدعة الأشاعرة الذين صرحوا بحقيقة رأى الشرع لحكمة ألا يصرح بها . والخير كل الخير أن تتبع ما جاء به القرآن الكريم ، وما ارتضاه السلف ، دون التعمق في البحث والتطرق إلى الجدل في أمور لا يهتدى إليها عقل الإنسان القاصر ، لعجزه عن معرفة صفات الله على حقيقتها . ومع هذا فإن ابن رشد لا يتطلب من العقل أن يسلم بأمر مستحيلة أو بأسرار تناقض ما يقرره العقل ؛ وإنما يريد له أن يقول ، في كل يسر ، إن الله يريد الشيء وقت كونه ، ولا يريد في وقت عدمه .

٨ — مشكلة خلق القرآن

كانت محنة خلق القرآن في عهد المأمون والمعتصم من أكبر المحن التي نزلت بالمسلمين من جراء جندهم في العقائد الدينية . وقد انقلب المعتزلة الذين كانوا ينادون بحرية التفكير إلى جماعة من المتعصبين لآرائهم إلى حد إكراه الناس على الإيمان بها ، عملاً بأحد مبادئهم ، وهو القول بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وساء لهم على فرض آرائهم بالعسف والقهر أن ارتضى المأمون مذهبهم . وكان انضمام رجال الملك إليهم كافياً في بعث روح المقاومة

(١) انظر صفحة ١٣ وما بعدها .

لدى الشعب والغواصاء ، وبعض أهل الفقه أو النظر والجدل ، وأصبح القول
بقدم القرآن ، حتى لدى من لا يؤمنون به حقيقة ، ذريعة إلى الظهور بمظهر
الأيصال أو الشهادة . (١)

١ — المعترضة :

نظر المعتزلة إلى القرآن نظرهم إلى الكلام الذى يتألف من حروف
وأصوات ، أى أنهم قاسوه على الكلام بمعناه المتداول . فهم يريدون به ،
فعل المتكلم الذى يعبر به عن المعانى التى تدور بنفسه ، لى يعلمها المخاطب .
وإذا كان القرآن يتألف من كلمات ، وكانت هذه حادثة ، فلا بد أن يكون
حادثاً . وليس القرآن قديماً لأنه ليس صفة من صفات الله ؛ بل هو فعل من
أفعاله . والله يخلق الكلام فى اللوح المحفوظ أو فى جبريل أو فى الرسل .
وقد استدلو الرأىهم بأدلة شرعية وعقلية . أما هؤلاء الذين يقولون بأن
القرآن كلام الله وأنه صفة قديمة ، فيصفهم المعتزلة بأنهم أهل جمالة وعنى ،
وأنهم بعيدون عن الدين الحقيقى وعن التوحيد بصفة خاصة ؛ إذ ينتهون
ضرورة إلى القول بتعدد الصفات القديمة . وإنما وصفهم بضعف الرأى
وتقص العقل ؛ لأنهم يسوون بين الله سبحانه وبين ما جاء فى القرآن ، مع
أن آيات القرآن نفسها تشهد بأنه مخلوق لله ، فافقه جعل القرآن شفاه
للصدور ، ورحمة للمؤمنين . وقد وصف كتابه فقال : « الر كتاب أحكمت
آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . وهذا دليل على أنه يحتوى على
أجزاء متعاقبة ، وما كان هذا شأنه فهو حادث . كذلك قال : « إنا جعلناه
قرآناً عربياً ، وكل ما جعله الله فقد خلقه » . وقال عز وجل : « إنا أنزلناه
قرآناً عربياً ، والنزول لا يكون إلا فى أوقات محدودة ، وكل ما اقترن

(١) أرجع فى هذه المسألة بالتفصيل إلى كتابه - ضحى الإسلام - الجزء الثالث للبحر
الأستاذ أحمد أمين ص ١٦١ - ٢٠٧ .

بالزمان فهو حادث ومخلوق . وقال : « وإن أحد من المشركين استجبا
فأجره حتى يسمع كلام الله . » وكل مسموع لابد أن يكون حادثاً ؛
حروف وأصوات . وقال أيضاً : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منه
قلو كان الكلام قديماً فكيف يجوز نسخ بعض آياته والإتيان بما هو -
منها . كذلك يقص الله في كتابه أنباء أمم خلت ، وهذا دليل على
حادث ؛ لأنه يتصل بحوادث تاريخية . وأخيراً احتجوا بأن القرآن الك
يحتوى على أوامر ونواهي ووعد ووعيد . وهذه أمور مختلفة ومتضاد
فكيف يقال إن هذه الأشياء صفة من صفات الذات وقديمة مثلها ؟

والله اعلم

ذلك هي الأدلة السبعة ، أما شوهد العقل فليست أقل من ذلك إذ
لديهم . فن ذلك أن القرآن يحتوى على أوامر . فلو كانت هذه الآو
قديمة لما صح أن تكون ذات قيمة ، لأنها لا تستحق الوصف بأنها كذا
إلا إذا وجد المأمور بها . وهناك دليل عقلى آخر ، وهو أن الكلام لو
صفة ذاتية أو معنوية لوجب أن تتحد طبيعة الوحي لدى جميع الرسل
لكنا نعلم يقيناً أن الوحي الخاص بكل رسول يرتبط ببعض الحوادث
صغيرة كحلت نطقاً معيناً من الزمن . فكلام الله لموسى غيره لعيسى ، وكلامه
روحه غيره للرسول عليه السلام . وإذن كيف يعقل أن يكون الكلام صفة ذاتية
وقديمة ، مع حدوث الوحي واختلافه باختلاف الرسل ؟ وأخيراً فإن القرآن
بالمعنى المتداول الذى لا يختلف فيه المسلمون ، هو ذلك الكلام الذى قد
ونقروه ، والذى نعلم أنه يتكون من سور وآيات محدودة . وهذا الكلام
المسموع المقروء يتكون ، بداهة ، من حروف وآيات ، وهو شيء آ
غير كلام الله الذى يقال إنه صفة من صفاته ، فالقرآن إذن يشبه الكلام
سمع الموحى بها كالتوراة والإنجيل ، وهذه كتب منزلة ، وهى مخلوقة يوحى
بها الله إلى من اصطفاه من خلقه . وتختلف طرق الوحي أو الكلام .

وكتب

ح

يكون ذلك عن طريق الإلهام ، كما أوحى الله إلى أم موسى أن تلقيه في اليم ، وقد يكون من وراء حجاب ، بأن يخلق الالفاظ في نفس النبي ، كما كلم الله موسى تكليماً . وقد يكون بأن يرسل رسولا بكلامه ، وهو جبريل الذي قال لمحمد عليه السلام : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » ، فلا مفر إذن من الاعتراف بأن القرآن كلام الله وأنه مخلوق ، وبأن الحروف التي نكتبه بها في مصاحفنا مخلوقة أيضاً .

وفي رأينا أن المعزلة لم يجانبوا الحق عندما أوجبوا عدم الخلط بين القرآن وبين صفة الكلام النفسي . وما يشهد لهم أن الله يقول : « قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً » ، إذ ليس المقصود بالكلمات هنا ألفاظ القرآن ، وإلا لما احتاجت إلى كل هذا المداد وإنما القى يوجه العقل أن تفهم كلماته هنا على أنها صنوف مشيئة وإرادته .

كان الإمام أحمد بن حنبل إمام القائلين بقدم القرآن . وقد عذب وامتنح ، وأوذى وجلد ، فلم يرجع عن رأيه الذي تبعه فيه جمهور المسلمين . فالقرآن المسموع المقروء والمكون من ألفاظ وحروف قديم وهو كلام الله . أما أنه قديم فذلك مالا سبيل إلى البرهنة عليه بأدلة سمعية أو عقلية . فلما قيل لهم إن القرآن نفسه يحتوى على دليل حدوثة ، لقوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً ، لم يجدوا سبيلاً إلى الفرار من الاعتراف بخلقه سوى أن قالوا إنه مجعول ، بدلاً من أن يكون مخلوقاً . فهم يعترفون بالمقدمات لكنهم ينكرون النتائج . ويصف الأستاذ أحمد أمين مسلك هؤلاء وصفاً طريفاً فيقول : « وأعتقد أن عقلية هؤلاء عقلية عوام ، يريدون أن يتظاهروا بالبصولة أمامهم ، وهم على خلاف ذلك أمام أنفسهم .. » (٥ - مناهج الأدلة)

صف

بجاء

فقط

بالم

وقف

مدار

نرى

يريدون إثبات حدوده وتزييف بدعتهم . ثم لا يتردد الأشعري ، بعد هذه الحجة التي تدعو إلى الإشفاق ، أن يصف خصومه بأنهم يدلسون كفرهم . ولا ندرى لماذا اتجه الأشعري هذا الاتجاه ، ولماذا فسر كلمة ملفوظ هذا التفسير المفتعل ، وكان في استطاعته أن يفسرها تفسيراً طبيعياً ، فيقول إنه يلفظ بالقرآن بمعنى أنه ينطق به . لكن ما كان ليفعل لأنه يحاول جهده ألا يعترف بخلق القرآن . وما يؤكد لنا صدق وجهة نظرنا ، من أن الأشعري جزم بقدم القرآن ، أن الماتريدي يذكر في أحد كتبه ، ونعني به كتاب شرح الفقه الأكبر لابن حنيفة ، أن الأشعرية ترى أن « ما في المصحف ليس بكلام الله تعالى ، وإنما هو عبارة عن كلام الله تعالى حكاية عنه . » ومعنى هذا أنهم إذا لم يجدوا حجة على قدم ألفاظ القرآن لم يترددوا في التحايل على هذا النحو الذي لا نعتقد أن جمهور المسلمين يرتكبونه أو يستحسنه .

وقد استدل أبو الحسن الأشعري على قدم القرآن بكثير من الآيات ، كقوله تعالى : « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » ، وقوله : « ألا له الخلق والأمر » . وقوله : « لله الأمر من قبل ومن بعد » ، أى من قبل الخلق ومن بعده . وكان من الضروري أن يلجأ الأشعري إلى تأويل هذه الآيات حتى تهتدى إلى معرفة مناسبة الاستشهاد بها ؛ لأننا نعتز ، دون تواضع كاذب ، أننا لم نفهم وجه دلالتها للنظرة الأولى ، وبدأ لنا أنها بعيدة عما نحس فيه ، وأنها أبعد عن أن تكون في وضوح الآيات التي استدل بها المعتزلة على خلق القرآن . فإذا يقول الأشعري ؟ ، إنه يرى أن المراد بالأمر هنا هو كلام الله تعالى . ولا ندرى حقيقة لماذا اختار الكلام بدلا من الإرادة أو من إحدى الصفات الأخرى ؟ لكن هكذا أراد هو . فلنحاول فهم وجهة نظره ما استطعنا : إن هذه الآيات تفرق بين الخلق والأمر ، ومعنى ذلك أن أمر الله ، أى كلامه ، غير مخلوق . كذلك استدل

بآية أخرى وهي قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون . » فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب أن يخلق بكلمة كن ، وهذه الكلمة قول محتاج إلى خلق ، وهكذا إلى ما لا نهاية له . وإذن فلا مفر من التسليم بقديم القرآن .

والجواب عن هذا السؤال هو : لا نظمت لها النقص ، لظهور طابع التكلف فيها ، ووضوح التعسف في الربط بين مقدماتها ، نجد أن الأشعري يحس الحاجة إلى أدلة أكثر إقناعاً كقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي » ، مع أن هذا الدليل ليس أكثر إقناعاً من سابقه ، إذ ليس هناك ما يوجب ، كما قلنا ، أن تكون هذه الكلمات هي القرآن . ومن أدلته أيضاً أنه لو كان كلام الله مخلوقاً لكان الله غير متكلم ولا قائل ، ويترتب على ذلك أنه يوصف بما يوصف به البشر من الخرس والعمى والعجز ، وهذا دليل النقص . والنقص يناقى فكرة الألوهية . وبديهى أن فكرة المماثلة هنا بين الخالق والمخلوق شديدة الوضوح ما دام الأشعري يتكلم عن الخرس والسكوت ، وما يستتبعه من استخدام الجوارح من فم ولسان .

والحق أننا استعرضنا أدلة الأشعري في بياق قديم القرآن ، فوجدنا أنها دون المستوى الذى كنا نتوقعه منه : فهي أدلة جدلية ، لا تقنع الخصم ، فضلاً عن أن تكون بديهية وغير مفتعلة . ولو لا أننا نخشى الإطالة لعرضنا لكل دليل منها على حدة لنبين أنها بعيدة عن أن تكون برهانية . ومع ذلك فسنذكر دليلين آخرين ، حتى لا يظن أننا لا ننصفه : فالدليل الأول هو أنه كيف يكون القرآن مخلوقاً واسم الله موجود فيه ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لكانت أسماء وصفاته ووجدانيته مخلوقة ؟ وهذا دليل لا قيمة له كما نرى ؛ لأنه من الممكن القول بأن الإنسان ينطق باسم الله وصفاته فكان ينبغي

ألا يكون مخلوقاً ، كما يريد الأشعري لألفاظ القرآن . كذلك نستطيع القول بأنه ليس ثمة تناقض بين أن تكون معاني القرآن قديمة وألفاظه مخلوقة ، إذ ليس ما يحول عقلاً دون التعبير عن المعاني القديمة بألفاظ مخلوقة . أما الدليل الثاني فليس أسعد حظاً من سابقه ؛ لأن الأشعري يحتج على المعتزلة فيقول : لو كان كلام الله مخلوقاً لصح أن يكون القرآن جسماً يأكل ويشرب !

وقد سمعنا (كلمة) السيد ربيع طه الحنبلية وليت الأشعري وقف في جدله عند هذا الحد . إنه ينتهي إلى تكفير من قال بخلق القرآن بالمعنى الذي يمكن أن يسلم به المسلم المعتدل ، والذي سلم به الإمام أبو حنيفة . فقد حكى أن أبا يوسف ، تلميذ أبي حنيفة ، ناظر أستاذه شهرين حتى يرجع عن قوله بخلق القرآن . ثم خفف الأشعري من حدة بعض الشيء ، فلم يصف القائلين بخلق القرآن بأنهم من الكفرة ، وإنما هم من رعاي الناس وبهائمهم . وهكذا فعل المعتزلة من قبل ؛ فقد كفروا خصومهم ، ثم وصفوهم بنقص العقل وضعف الرأي . فهل يتصور المرء ، بعد هذا التكفير والسياب بين طائفتين هامتين من المسلمين ، ألا تكون هناك حجة وتغذيب ؟ ومع ذلك ، فقد أخطأ الفريقان لأنها أساء وضع مشكلة خلق القرآن أو قدمه . ولو حاولا الفهم ، في غير تعصب وحق ، لعلموا أن كلامهما أصاب جزءاً من الحقيقة ، وأن الخلاف بينهما أهون مما كانا يعتقدان . غير أن الأشعرية اضطروا إلى تفصيل القول أكثر مما فعل رئيسهم ، ففرقوا بين الكلام النقسي وبين الألفاظ ؛ فقالوا : إن كلام الله تعالى نقسي ، أما الألفاظ فليست كلاماً . وذهبوا إلى أن ما في المصحف ليس كلام الله . وإنما هو حكاية عنه ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل . كذلك يخبرنا الماتريدي أنهم أجازوا إحراق ما في المصاحف ، لأن الكلام صفة نفسية لا تنفك عنه سبحانه . ويصف الماتريدي هذا التحول الكبير

في آراء أتباع الأشعرى بأنه هوس ، وأن هو سهم هذا أعظم من هوس
المعتزلة . (١)

٥ - الماتريدي :

قد فطن أبو منصور الماتريدي إلى عيب المعتزلة والأشاعرة ، وإلى أنهم
انساقوا في جدلهم إلى جد التنازع بالكفر والصف بالجهل وضعف العقل ،
دون أن يكون هناك خلاف حقيقى يوجب ذلك . ففرق هو بين نوعين
من الكلام : أحدهما نفسى وهو المعنى القديم القائم بذاته تعالى ، وهو ليس
من جنس كلام البشر ، أى ليس من جنس الحروف والأصوات . ومن ثم
فهو صفة ذاتية له ، والله متصف بالكلام منذ الأزل على هذا الاعتبار .
أما النوع الآخر فهو المؤلف من حروف وأصوات . وهذا لاشك في أنه
خادث ومخلوق . ثم فسر لنا لماذا نفي المعتزلة صفة الكلام مع أنها قديمة ،
فقال : إنهم خرجوا على مبدئهم المشهور ، فقاموا عالم الغيب على عالم الشهادة .
ولو التزموا هذا المبدأ لعلوا أن . من أحب تقدير كلام الله بكلام المخلوق
فهو مغفل ، على حد تعبيره . فالكلام النفسى صفة قديمة لا نعلم حقيقتها ،
ولا كيف يتصف الله بها . ونحن لا نستطيع سماع كلامه أو قراءته
إلا بواسطة . فومئى لم يسمع كلام الله الأزل حقيقى ، وإنما سمع صوتاً
يدل عليه .

وكان هذا الحل هو الذى ارتضاه أهل السنة الذين يفرقون بين صفة
الكلام النفسى القديمة ولفظ القرآن المخلوق . وهو الحل الذى يسلم به
متأخرو الأشعرية كإمام الحرمين . وقد انتهت مشكلة خلق القرآن بكل
شروطها وما اكتشفها من سوء فهم عندما سلم الغزالي بهذا رأى . ويقول

الماتريدي : إن المعتزلة نظروا إلى ناحية اللفظ ، واعتبر الأشعرية ناحية المعنى . ولم يكن هناك ما يوجب هذا الخلاف كله ؛ لأن المشكلة أقرب أن تكون لفظية من أن تكون حقيقية وجوهرية . ويبقى بعد هذا أن الأشعري كان أبعد مما يقره العقل ؛ لأنه أجاز سماع كلام الله النفسى ، فقد كان يعتقد إمكان سماع ما ليس بصوت ، كما تمكن رؤية ما ليس بجسم . أما الماتريدي فيقرر أنه لا سبيل إلى سماع كلام الله النفسى .

هـ - ابن رشر :

ثبت الفيلسوف القرطبي صفة الكلام لله ؛ لأنها تترتب على صفى العلم والقدرة على الاختراع . فالكلام هو أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذى فى نفسه . وإذا كان الإنسان يستطيع التعبير عن علمه بالكلام فالحق أولى بالقدرة على ذلك . فكلام الله ، وهو القرآن ، قديم من حيث معناه . ولكن اللفظ الدال عليه مخلوق له سبحانه لا لبشر . ويكون ذلك إما بواسطة الفاظ يخلقها الله فى سمع من يريد كلامه ، أو وحيا أى بغير لفظ ، أو بإرسال رسول يحمل كلامه إلى رسله . وقد عبر القرآن عن هذه الطرق الثلاث بقوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء . »

ولذا فالخلاف بين القائلين بقدم القرآن أو خلقه خلاف لفظى ؛ لأن كل فريق منهم ينظر إلى ناحية واحدة . فمن نظر إلى اللفظ قال إنه مخلوق ، ومن اعتبر المعنى قال إنه قديم ، إذ سبق عليه بكل شئ . والعلم صفة قديمة . وقد فسر لنا أبو الوليد سبب الخلاف بين الأشعرية والمعتزلة ، فقال إن الأولين يرون أنه صفة قديمة كالعلم ، وليس فعلا من أفعاله ، فاضطروا بناء على هذا الرأى إلى أن يتكروا حقيقة بديهية ، وهى أن الإنسان فاعل لكلامه . وإنما اضطروا إلى نقي أن يكون كلام الله صفة من صفات أفعاله ؛

لأن الكلام الملفوظ به حادث والمقارن للحادث حادث مثله . وعني هذا متى كان المقصود بالكلام كلام النفس لم يكن هناك غبار على رأى الأشعرية ؛ إذ الكلام قديم في هذه الحال . أما إذا كان المراد به الالفاظ التى تدل على المعانى فليس رأيهم صادقاً ؛ بل الحق في جانب المعتزلة الذين يؤكدون أن الفاظ القرآن مخلوقة .

ويلخص ابن رشد سبب الخلاف بين هاتين الطائفتين بأن كلا منهما لم تنظر إلا إلى ناحية واحدة ؛ ففهمت الكلام فهماً خاصاً ، وأصرت على فهمها . فالأشعرية ترى أن الكلام صفة ذاتية قائمة بالمتكلم ويريدون به المعنى ، والمعتزلة تقول إن الكلام ليس صفة قائمة بالمتكلم ، ويريدون به اللفظ . والحق هو الجمع بين الرأيين بالتفرقة بين نوعين من الكلام ، وفى قول كل واحدة من الطائفتين جزء من الحق وجزء من الباطل ، ولو أن الفريقين جمعا بين الحق لدهما لوجدنا أن الباطل يزهى من تلقاء نفسه ، دون أن يفضى إلى تلك المنحة التى فرقت بين المسلمين ، وخصوصاً لأنها تقوم على سوء تحديد المشكلة ، وسوء فهمها على النحو الذى يحق لنا اليوم أن نبدى عجبنا له .

٩ — الجهة

ربما كان الخلاف بين المسلمين في مسألة نسبة الجهة المكانية إلى الله سبحانه خلافاً حقيقياً وجوهرياً ، على عكس ما رأيناه حتى الآن في المسائل الأخرى التى يكاد يكون الخلاف فيها لفظياً أو وليد سوء الفهم . فإننا نرى أنهم انقسموا هنا إلى قسمين كبيرين هامين : أحدهما يؤكد وجود الجهة والآخر ينفيها . فالفريق الأول يشمل المشبهة والكرامية والأشعرى وابن رشد ؛ بينما يضم الفريق الآخر كلا من المعتزلة والماتريدية وناصري

الاشعرية . ومن العجيب حقاً أن ترى ابن رشد من بين المشبهة أو من يسير عنى نهجهم ، مع أنه كان حليف المعتزلة والفلاسفة حتى الآن ، وحقاً لا ترد في أن نصف رأيه في مشكلة الجهة بأنه لا يتسق مع آرائه الأخرى ، وأنه يلقي ظلاً على طرقه العقلية في البرهنة على العقائد الدينية .

١ - المشبهة والكرامية :

لما اعتقد هؤلاء السذج من المسلمين أن الله جسم لا كالأجسام الحادثة ؛ فسبوا إليه اليد والعينين والوجه نسبة حقيقية . كذلك نسبوا إليه أنه في جهة معينة وهي العرش . وهكذا فعل الأشعرى فيما بعد .^(١) وقد استدل المشبهة على عاداتهم ببعض الآيات القرآنية التي حملوها على ظاهرها ، غافلين عن وجوب تنزيه الله عن مماثلة خلقه . فن هذه الآيات قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » ، وقوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، وقوله : « وترى الملائكة حافين من حول العرش » ، وقوله : « الذين يحملون العرش ومن حوله » ، وقوله « الرحمن على العرش استوى » . ثم عضدوا رأيهم هذا بأن عادة المسلمين جرت على أن يتجهوا بالدعاء نحو السماء مما يشهد بوجود العرش فيها .

هذا هو الرأي الذي ارتضته المجسمة ، وهو نفس الرأي الذي سيقبله الأشعرى ، والذي سيرفضه أتباعه والمعتزلة والماتريدية على حد سواء . وعلى الرغم من أنه يقال : إن الماتريدية أقرب إلى الأشعرية من المعتزلة فإننا نجد أنها أبعد ما يكون عن الأولى لأنها ترتضى وجهة نظر الثانية في مشكلة جوهرية حقيقية . فكل الطائفتين تنكر الجهة ؛ لأنهما تنكران الجسمانية صراحة ، وهذا يتضمن تنزيهه عن الجهة ؛ لأن الجهة لا يفهم لها معنى إلا بالنسبة إلى الأجسام .

(١) كتاب الإبانة ، طبعة جيدر آباد . ص ٤٢ ، وما بعدها .

١ - المفترضة :

يتلخص رأى هذه الجماعة فى إنكار الجهة إنكاراً صريحاً ؛ لأن إثباتها يفضى ، للاحالة ، إلى إثبات المكان له تعالى ، وإثبات المكان معناه إثبات الجسمية لأقل ولا أكثر . فلو كان الله يحتل مكاناً معيناً ، أو يوجد فى جهة محدودة ، لكان جسماً ، ولترتب على ذلك أن يكون حادثاً ، لأن جميع الأجسام حادثة . هذا إلى أنه لو وجد فى مكان ما لكان فى حاجة إليه ، وهذا دليل على النقص .

ولذا رأوا أن الآيات التى توهم الجهة يجب ألا تحمل أو تفهم على ظاهرها ؛ بل من الواجب تأويلها بما يتفق مع تنزيه الله وتقديسه ، من مثل قوله تعالى : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة ، وقوله : « تعرج الملائكة والروح إليه ، وقوله : « أأنتم من فى السماء أن نحسف بكم الأرض فإذا هى تمور » . ثم أوجبوا تأويل جميع الآيات التى جاء فيها ذكر العرش . فقالوا إن المراد بالاستواء على العرش هو الاستيلاء والغلبة والسلطان . أما الحديث الذى ينسب إلى الرسول من أنه سأل جارية أراد صاحبها أن يعتقها فى كفارة فقال : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، فقال اعتقها إنها مؤمنة . فقد نفاه المعتزلة . كذلك ردوا أحاديث أخرى كحديث النزول ، وقالوا عنها إنها أخبار آحاد . فما الذى ينبغى أن يُعتقد فى مسألة الجهة ؟ يقرر المعتزلة أن الله فى كل مكان ، وهم لا يريدون بذلك نوعاً من الحلول ، كما افترى عليهم ذلك خصومهم ، وإنما يقصدون به أن الله عالم بكل الأمكنة لأنه خالقها .

ح - الاستعصى :

ترتبط فكرته عن الجهة ارتباطاً وثيقاً بفكرته عن الجسمية . وقد

نحتاجنا ، والحق يقال ، أن يذهب الأشعري مذهباً أقرب إلى التشبيه والتجسيم ، رغم شهرته بأنه من أتباع السلف . فهو يثبت لله يدين ووجهها . وينكر أن يكون المقصود باليد النعمة أو القوة ؛ بل يأخذ على هؤلاء الذين يؤولون مثل هذه الآيات أنهم مبتدعون ^(١) ، ويقولون إلى حد القول بأن « ليس في اللغة أن يقول القائل بيدي يعنى نفعي . » ثم يؤكد هذا الرأي الغريب بأنه لا يحق لأحد أن يتأول هذه الآيات إلا بحجة ، وليس هناك في رأيه ما يمنع إثبات اليد لله تعالى . وكأنه أحس خطورة ما يدعو إليه فعاد يؤول . لكنه تأويل أقرب إلى التمسك بالظاهر ؛ لأنه يقول لا يراد باليد الجارحان ، ولا يراد بهما النعمة ، ولا هي كالأيدي ؛ ونحن لا ندرى بعد ذلك هل ترك لنا الأشعري احتمالاً عقلياً رابعاً وراء هذه الاحتمالات الثلاث ؟

تلك هي نظريته في مسألة الجسمية . وواضح أننا لا نفرط في الزعم عند ما نقرر أنه أقرب إلى الجسمية والمشبهة منه إلى أي طائفة إسلامية أخرى . وسوف يتأكد ظننا هذا ، فيصبح يقيناً لدى من ينصف ، أو لدى من لم يشوه التقليد فسكره ؛ إذ سيري أن الأشعري يميل إلى إثبات الجسمية ثم يحنح أيضاً إلى إثبات الجمة .

فهو يرفض تأويل آيات الاستواء على العرش ، ويقول إن الله مستو على العرش ، كما ورد في كتابه العزيز . وقد احتج لرأيه هذا بكثير من الآيات التي تدل على وجود الله في السماء ، كقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب ، وقوله في عيسى بن مريم : « بل رفعه الله إليه ، وقوله : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ، وقوله « أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض »

(١) الإبانة ص ٤٢ وما بعدها .

وقوله : « يخافون ربهم من فوقهم » ، وقوله : « تخرج الملائكة والروح إليه » ، وقوله : « ثم استوى إلى السماء » ، وقوله : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » .^(١) فشكل هذه الآيات ، ولا سيما آيات العرش تدل دلالة ظاهرة على وجوده في السماء ، لأن العرش فوق السموات ، وإذا قيل إن الله في السماء فالمراد به هو أنه على العرش ، لأن العرش أعلى السموات . كذلك استشهد أبو الحسن ببعض الأحاديث ، وهي الخاصة بالنزول ، كالحديث الذي روى عن الرسول أنه قال : « ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر » ، وكقول الرسول : « إذا بقي ثلث الليل ينزل الله تبارك وتعالى فيقول من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يستكشف الضر فأكشفه عنه ؟ من ذا الذي يستزقي فأرزقه ؟ حتى ينفجر الفجر » . ثم ذكر دليلاً سبقه إليه المشبهة والمجسمة ، وهو أن المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم بالدعاء نحو السماء ، ولا يتجهون بها نحو الأرض . فشكل هذه الأدلة الشرعية تشهد بوجود الله في السماء .

وقد رفض الأشعري تأويل المعتزلة لآيات العرش . فنص على أن الاستواء على العرش ليس معناه الاستيلاء أو القهر أو الغلبة ؛ بل المراد الاستواء حقيقة . وليس لهؤلاء أن ينكروا ذلك ؟ إذ كيف يجوز لهم أن يسلموا بوجود الله في كل مكان وينكروا أنه على العرش ؟ ووجه المغالطة هنا يفجأ النظر ؛ لأنهم يريدون بوجود الله في كل مكان معنى غير الذي يريدون هو عليه .^(٢) ثم يحاول نقده رأيهم بحجة أخرى فيقول : لو كان

(١) ذكر الأشعري آيات أخرى كقوله : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » ، وقوله : « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » ، وقوله لعيسى بن مريم : « إني متوفيك ورافئك إلى » ، وقوله « وما قتلوه وما صلبوه ... من ربه الله إليه » .

(٢) وفيما بعد غلا أيضاً ابن تيمية فقال إن من يقسم : إن الله في كل مكان هو والقائل بالخلول أو الاتحاد سواء . وقد أخذ ذلك عن الأشعري .

الاستواء على العرش هو القدرة والاستيلاء لما كان هناك فارق بين العرش والأرض ؛ لأن الله قادر على الأرض أيضاً . وقد اتهمهم بعد ذلك بفكرة الحلول ، مع أنهم أكثر منه تقديساً وتنزيهاً لله لأنهم ينفون الجسمية نفياً قاطعاً ؛ بينما يميل هو إلى المشبهة . وكيف يرى المعتزلة بأنهم من أنصار الحلول والاتحاد ، وهم الذين اشتهروا بنشر الإسلام في خراسان وأرمينيا ، وبأنهم أهل الزهد والتقوى^(١) . وأدهى من ذلك وأمر أن الأشعرى يجادل المعتزلة فيقول : لو كان الله في كل مكان لسكان في كل جزء من العالم ، وفي بطن مريم أيضاً ؟ وهذا مثال لما قد ينتهي إليه اللجج الذي يغلب عليه سوء القصد ، ولا تقوده الرغبة في الوصول إلى الحقيقة . أفنل هذا النقد يصح أن يوجه إلى المعتزلة الذين قالوا يخلق القرآن حتى يتحاشوا القول بتعدد القدماء في الذات الإلهية ؟ وهل كان الأشعرى مخلصاً عندما وجه إليهم هذا الاعتراض ، مع أنه يعلم اليقين أنهم أكثر منطقاً منه لأنهم ينكرون الجسمية والجهة والرؤية ؛ لأنهم يأبون أن يماثلوا بين الله وخلقه ؟

ولا ريب في أن أتباع الأشعرى قد فطنوا إلى تحامله على المعتزلة دون حق ، وإلى أنه لم يصب الحقيقة في مسألة الجهة والجسمية . ولذلك لم يترددوا في ترك مذهبه الضعيف ليستعضوا عنه برأى المعتزلة . ويقول ابن رشد إن بعض المتأخرين من الأشعرية ومنهم أبو المعالي قد ارتضوا أن ينقوا الجهة عن الله سبحانه . ولا شك في أن عدوهم عن رأى أستاذهم كان حافزه التنزيه والتقدیس الذي يوجب له قوله تعالى « ليس كمثل شيء » ؛ لأن إثبات الجهة اعتراف ضمني بالجسمية ، وهذا هو ما يجمع المسلمون — ما عدا السذج منهم — على نفيه .

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة عمرو بن عبيد صاحب واصل بن عطاء ، في وفيات الأعيان لأبن خلدون ج ٢ ، ١٠١ وما بعدها .

٥ - الماتريدى :

أما الماتريدى فهو على أتم وفاق مع المعتزلة ؛ إذ ينسكركم الجهة ويتناول آيات العرش ، فيقول إن العرش حادث ، وقد أوجده الله بعد أن لم يكن . وليس المراد باستوائه تعالى على العرش الاستواء المادى ، لأن الله فى غير حاجة إلى القعود عليه ، لأنه لو احتاج إلى ذلك لكان ناقصاً مقهوراً . ولو احتاج إلى العرش لأشبه الأجسام والأعراض ، وهذه حادثة فكيف يتصور الإنسان أن الذى يخلق الجواهر والأعراض يكون شبيهاً بها ؟ ثم إن الله كان ولا مكان له ، ثم خلق العالم ومن الجائز فناء جميع الأمكنة ، لكن الله يبقى بعد فناء كل شيء . ومن ثم فهو ليس فى مكان معين . هذا إلى أن الانتقال من مكان إلى مكان معناه التغير ، والله منزّه عنه ؛ لأن التغير علامة الحدوث . كذلك لو كان الله فى مكان ما لكان جزءاً من العالم ، فيكون حادثاً ومحدوداً ، وكلا الأمرين نقص يتزده الله عنه . وأخيراً لو كان الله محصوراً فى المكان لجاز أيضاً أن يكون محصوراً فى الزمان ، وينبى على ذلك أن يكون حادثاً . ويتبين لنا من هذه الأدلة أنها تدور كلها حول فكرة واحدة ، وهى أن نسبة المكان إلى الله تؤدى إلى التجسيم وإلى الحدوث تبعاً لذلك . وهذه الفكرة الواحدة هى تلك التى رأيناها من قبل لدى المعتزلة ومتأخرى الأشعرية .

فإذا ثبت استحالة الجهة بالنسبة إلى الله تعالى وجب تأويل جميع الآيات التى قد توحى بها . فالاستواء على العرش معناه امتداد الخلق وإكمله . أو الاستيلاء والغلبة ، أو العلو والارتفاع المعنويين . فقله تعالى « ثم استوى على العرش » يشبه قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » أى أنه قصد خلق العرش بعد أن خلق السموات والأرض ، ولا يجوز عقلاً المماثلة هنا بين الخالق والمخلوق فى معنى الاستواء ؛ لأن الاستواء المادى يتضمن

حركة وسكوناً ، أى حدوداً . وإذا أمكن تأويل أمثال هذه الآيات تأويلاً
تسمح به أساليب اللغة فهو أولى من التزام المعنى الحرفى الذى يؤمن به
جماعة المشبهة بمن غفلوا عن قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » .
ثم أراد الماتريدى ، غير موفق ، أن ينقض رأى المعتزلة ، فقال إنهم
يعتقدون أن الله فى كل مكان ، وهذا نوع من التجسيم ؛ إذ لا فرق هنا بين
نسبته تعالى إلى مكان واحد أو إلى الامكنة جميعها . وفى رأينا أن أبا
منصور يغلو فى جدله أكثر مما ينبغى أن يقود إليه اللجاج فى الجدل ؛ لأن
المعتزلة ينفون الجسمية مثله تماماً ، ويريدون بأنه فى جميع الامكنة أنه عالم
بكل شيء . وإذا نحن لم نر فى هذا النقد مسحة من سوء الفهم أو سوء القصد
فإننا لا نستطيع أن نبرى الماتريدى هنا من المماحكة وسداجة النقد . على
أنه ينتهى بعد تأويله لبعض الآيات التى تدل على القرب أو البعد ، من مثل
قوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا
دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » ، وقوله تعالى : « ما يكون
من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » — نقول إنه ينتهى من تأويل هذه
الآيات إلى تقرير ما سبقه إليه المعتزلة من أن وجود الله فى كل مكان معناه
العلم . فهذا يتضح لنا أن الخلاف بين المعتزلة والماتريدية ليس هنا إلا خلافاً
لفظياً ، أو لاخلاف هناك ألبتة ؛ فى حين أن الخلاف بينهما من جهة وبين
الاشعرى وطائفة المشبهة والكرامية من جهة أخرى خلاف جوهرى
يرجع إلى فكرة كل من الفريقين عن الله سبحانه ، ومقدار التنزيه لدى
كل منهما .

هـ — ابن رشد :

ربما توقع المرء أن أبا الوليد سيكون إلى جانب المعتزلة والماتريدية .
لكن مما يوجب له الظن ، ويفجع فيه الأمل ، أن ابن رشد ارتضى فى مشكلة

الجهة رأياً مخالفاً لاتجاهه العقلي العام . فتبع الأسف الأشعرية والمشبهة . واستدل مثلهم بنفس الآيات والأحاديث على أن الله يوجد في جهة معينة . وتلك في الحق نقطة ضعف بالغة في مذهبه : فهو ينكر الجسمية وينكر الرؤية البصرية ، ومع ذلك فهو يثبت الجهة . فهو إذن أقل اتفاقاً مع نفسه ؛ بينما نرى أن المعتزلة هم أكثر الناس منطقاً لأنهم ينكرون الجسمية والجهة والرؤية البصرية لله في اليوم الآخر ، ثم يأتي بعدهم الماتريدي الذي ينكر الجسمية والجهة ثم يكاد يثبت الرؤية .

فما السبب في هذا الاضطراب الذي نلسه عند ابن رشد ، أى ما الذى يدعوهم إلى إثبات الجهة بعد أن نفى الجسمية عن الله سبحانه ؟ يزعم هذا الفيلسوف أنه يريد التوفيق هنا بين العقيدة الإسلامية وفلسفة أرسطو ؛ فإن هذا الأخير ينكر وجود خلاء خارج العالم ، ويقول إن الله يوجد في هذا الاتجاه ، أى على حافة العالم وهو ليس بجسم . فالجهة إذن لا تتنافى في ظنه مع عدم الجسمية . وقد أحس الفيلسوف القرطبي أن حجته واهنة واهية ، فأراد لها أن تبدو بمظهر القوة ، وذلك بأن يفرق بين الجهة والمكان . لكنه لم يكن أكثر توفيقاً في هذا الأمر أيضاً . فهو يقول إن الله يوجد في اتجاه السماء ولكنه لا يشغل مكاناً معيناً . وهذه سفسطة . فإذا قيل له كيف يمكن أن نتصور أن إلهاً غير جسمي يوجد في جهة معينة لم يجد جواباً إلا أن يعترف بوجود نوع من التناقض ، وبأنه يجب أن تنهى العامة عن البحث في أمر الجهة . وقد خيل إليه أن العلماء لا يجدون مشقة في تصور موجود غير جسمي في جهة معينة ، والحق أن المشقة بالغة ، على عكس ما زعم ؛ إذ سوف يكون الإله محدوداً . هذا إلى أن التفرقة بين الجهة والمكان غير مجدية . لقد سخر أبو الوليد من المتكلمين ، ويعنى بهم المعتزلة ، لأنهم ينكرون الجهة . وما كان له أن يسخر منهم فإن المعتزلة

ومعهم الماتريدية كانوا أكثر منه منطقاً وأقرب إلى التنزيه من أى طائفة إسلامية أخرى . وهذا هو السبب فى أننا لا نفتقر له هذه السخرية ؛ لأنه ما كان لرجل فى مرتبته أن يؤول فى جميع المسائل الأخرى ، ثم يأتى فى مشكلة الجهة ولا يؤول ، محتجاً بأنه يخشى على عقائد العامة ؟ ومع ذلك فنحن لا أنصفه بسوء القصد . ولكنها زلة ، وأعظم بها من زلة لفيلسوف مثله !

١٠ - الرؤية

١ - المفترضة :

ليس لنا أن نتوقع من هؤلاء سوى أن ينكروا رؤية الله فى الحياة الدنيا والآخرة ، سواء بسواء ، فإنهم يحترمون مبادئهم ويستنبطون منها نتائجها المنطقية ؛ لأن من يبدأ بنفى الجسمية ، ثم يثنى بنفى الجهة ، سينتهى لا محالة إلى إنكار رؤية الذات الإلهية . إن للرؤية شروطها الخاصة كوجود الشيء المرئى فى جهة مقابلة للرأى وكاللون والضوء . وذلك كله محال فى حقه تعالى ؛ لأن شروط الرؤية إنما تصدق بالنسبة إلى الأجسام والله ليس بجسم . وهذا هو ما عبر عنه تعالى بقوله : لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وقوله : ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، الآية . ولو كانت الرؤية ممكنة لما نقأها على وجه التأكيد بقوله : لن ترانى .

حقاً إن هناك آية أخرى قد توهم الرؤية وهى قوله : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، . ولكن يجب تأويلها حتى تكون على وفاق مع

الآيتين السابقتين ، أو أن تأويلها ليس بالعسير أو المفتعل في رأيهم ؛ لأن معنى النظر هنا التوقع والانتظار لا الرؤية البصرية . أما الأحاديث التي تدل على إمكان الرؤية فرفضوها على أنها أخبار آحاد لا يصح الاحتجاج بها ضد صريح القرآن ، وهو قوله : « لا تدركه الأبصار » . لكن إذا كانت رؤية الله بالبصر أمراً مستحيلاً فإن ذلك لا يكون حائلاً دون إمكان رؤية من نوع آخر ، وهى الرؤية القلبية ، ويريدون بها زيادة علم يفيضه الله على قلوب المقربين .

ب - الأشعرية :

أما الأشعرى فكان على وفاق مع نفسه أيضاً ، فإنه لما كان يثبت ألحمة لله سبحانه فإنه لا يجد حرجاً في القول بإمكان رؤية الله في الحياة الأخرى ، دون الحياة الدنيا . وقد استدل لذلك ببعض الآيات الكريمة ، كقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » ، أى مبصرة . وليس المقصود بالنظر هنا الاعتبار ، كما في قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » ، ولا الانتظار والتوقع كقوله تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة » . وإنما كان هذان التأويلان غير مقبولين ، في رأيه ، لأن الحياة الآخرة ليست دار اعتبار أو توقع وانتظار كما ظن المعتزلة . هذا إلى أن إضافة النظر إلى الوجوه دليل على أن الرؤية بصرية . كذلك لا يجوز أن يحمل معنى النظر محلاً آخر ، فيقال إن المراد به التعطف ؛ إذ هل يجوز عقلاً أن يتعطف الخلق على خالقهم ؟ فلما كانت الاحتمالات كلها فاسدة وجب أن يكون النظر إلى الله حقيقة . وهل للمعتزلة أن يدّعوا أن المراد هو أن النفوس تنتظر ثواب ربها ؟ ولا هذا أيضاً ؛ لأنه يجب التمسك بالنص الظاهر ، فلا يجوز تأويله إلا لحجة ؟ وكان الأشعرى لا يرى في الوقوع في التجسيم حجة كافية لصرف الآية عن ظاهرها .

أما الآية الأخرى التي استدلت بها المعتزلة فليست حاسمة لأن موسى لم يسأل ربه شيئاً مستحيلاً ، وإلا لكان المعتزلة أكثر علماً بالله من أحد أنبيائه . غير أن هؤلاء لا يعدمون حجة ؛ إذ يستطيعون الإجابة ، وقد أجابوا بالفعل ، فقالوا إن قوم موسى طلبوا إليه أن يريهم الله جهرة ، فانكر عليهم ذلك فلم يكن بد من أن ينتهى الجدل بينهم وبينه بأن يسمعوا نصفاً يقطع عليهم جدلهم . وقد استنبط الأشعرى من الآية نفسها دليلاً آخر . وهو أن استقرار الجبل أمر ممكن ، ولذا فالرؤية ممكنة أيضاً . لكن هذا الدليل ليس قاطعاً ، إذ للمعتزلة أن يحتجوا بأن الجبل لم يستقر بالفعل .

ثم لجأ الأشعرى إلى آيات أخرى ليؤكد إمكان رؤية الله سبحانه ، منها قوله تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » . وهذه الزيادة هي النظر إليه . لكن لنا أن نقول إن هذا تأويل من جانبه ، وليس هناك ما يوجب الأخذ به . ومنها قوله تعالى : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » ، ومعنى الحجب هنا هو عدم الرؤية . وللمعتزلة أن يرفضوا هذا التأويل ، ويقدموا تأويلاً غيره ، فيقولوا إن الحجب هو نقصان العلم .

وأعجب من هذا أن الأشعرى ، الذى لا يميل عادة إلى تأويل النصوص الظاهرة ، قد اعتمد على نفس الآية التى استخدمها خصومه لإفكار الرؤية ، وهى قوله : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ، فقال إن المراد هو أن الأبصار تدركه بلا إحاطة ، كما أن القلوب تدركه على هذا النحو أيضاً . وسمة الافتعال فى هذا التأويل ظاهرة ؛ إذ ما معنى الرؤية بلا إحاطة ؟ أليس ذلك أقرب أن يكون رؤية فليية ؟

كذلك احتج بأدلة عقلية أهمها أن كل موجود فهو مرتقى من حيث

هو موجود ، لا من حيث هو جوهر وأعراض ، والله موجود . إذن هو مرئي . ومنها أن الله يرى الأشياء ومن يرى الأشياء فهو يرى نفسه ويجوز أن يرى نفسه ، وهذا في رأينا نوع من المماثلة بين الخالق والمخلوق .

تلك هي حجج الأشعرى . وهي لا تقنع أحداً ، بدليل أن المتأخرين من الأشعرية نفوا أن تكون شروط الرؤية للذات الإلهية هي شروط رؤية الأجسام ، أى أنهم تصدوا وجود الله في جهة مقابلة ، وأنكروا استخدام العين . وهكذا اقتربوا من المعتزلة عندما قالوا : من الممكن أن يخلق الله لعباده انكشافاً تاماً لا يتوقف على شروط الرؤية العادية . فالخلاف إذن لفظي إذ تنتهى الرؤية بعد حذف شروطها المادية بأن تكون علماً . ولهذا يقول الإمام محمد عبيد إن العلماء قد اتفقوا على نفي الرؤية بالوجه ؛ لأنهم يعترفون أن الله مخالف للحوادث ، وأنه ليس جسماً ولا يوجد في جهة ، أما هؤلاء الذين لم يريدوا إنكار الرؤية جملة فقد قالوا إنها تختلف عن الرؤية المعروفة لنا . ولذا فالخلاف بين المنكرين والمثبتين ليس حقيقياً . والحق عندنا أن الفارق بين متأخرى الأشعرية والمعتزلة ليس إلا فارقاً لفظياً ، لأن الأولين يقولون إنها رؤية بلا جهة ولا كيفية ، والآخرون يقولون إنها مزيد علم أو انكشاف يحاطه الله في قلوب المؤمنين ، وكلا التعبيرين سواء .

أما الأشعرى نفسه فهو على خلاف حقيقى مع ما أجمع عليه العلماء فيما بعد ، لأنه يتكلم عن إدراك حسى ينكشف به الله لعباده . وذلك نقطة ضعف بالغة في مذهبه يفسرها لنا ميله إلى آراء المشبهة والكرامية . في إثبات اليبدين والوجه والجهة ، كما أسلفنا . ومن الأكيد أن المعتزلة كانوا أكثر منه منطقاً وتنزيهاً .

ح — الماتريدي :

لا يختلف الماتريدي ، بحسب الظاهر ، اختلافا ملموساً عن الأشعرية لأنه يرى أن الرؤية حق ، وأنها موضع اتفاق أهل السنة . وقد جاءت بها نصوص محكمة . فلا يمكن أن تكون قلبية بل هي بصرية . ولذلك لا يراه الكافرون لأنهم محجوبون . وإذا اعترض بعضهم بأن في إثبات الرؤية البصرية نوعاً من التجسيم أجاب بأن الرؤية بالعين تتم في الآخرة بلا كيف ، لأن الكيفية إنما تكون لما كانت له صورة . فأنه يرى إذن بلا وصف من قيام أو قعود أو انفصال أو اتصال أو مقابل أو جهة . وقد استدل على إمكان الرؤية بالآية التي استخدمتها المعتزلة لنفسها ، وهي قوله تعالى ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، ، واستدل به شبهة باستدلال الأشعري على وجه التقريب . فالإدراك معناه عنده الإحاطة بالأبصار ، أي أن الرؤية إدراك حسي .

وقد تبع الأشعري أيضاً في استدلاله على جواز رؤية الله بإمكان استقرار الجبل . لكنه يعود فيقول إن الرؤية تتم بلا كيفية ولا مشابهة . وما كان يستطيع أن يقول شيئاً آخر لأنه ينكر الجهة . وعندئذ لنا أن نتساءل : إذا كان الماتريدي يحقف شروط الرؤية البصرية أفليس معنى هذا أنه يكاد يعترف بأن رؤية الله في الحياة الأخرى رؤية قلبية أو عقلية أو ما شئت من الأسماء سوى أن تكون رؤية بصرية ؟ على أن أكثر ما يدعو إلى العجب في هذا النزاع بين الماتريدية والمعتزلة هو أن الماتريدي الذي يثبت رؤية ما ليس بجسم - كما يقول الأشعري - كما سيقول الغزالي فيما بعد - يتم المعتزلة في شخص أحد أقطابهم في عصره ، وهو السكبي ، بأن القول باستحالة رؤية الله في الآخرة رؤية بصرية يؤدي لا محالة إلى

التجسيم ، ولكن كيف ذلك ؟ استمع إليه جيداً إنه يأخذ على الكمي أنه يماثل بين شروط رؤية الأجسام وشروط رؤية ما ليس بجسم ١١ والمغالطة هنا فاضحة ؛ لأن الكمي يقول بأن الرؤية البصرية للأجسام ممكنة ، ورؤية ما ليس بجسم مستحيلة . فإين إذن تلك المماثلة بين رؤية الأجسام ورؤيته تعالى ؟

ومهما يكن من شأن هذا الجدل وقيمته ، فإن الماتريدي نفسه يفتن إلى تهافت حجته ، فيعترف بعد تلك الأدلة التي ساقها أن الرؤية لا تقع على الوجه المعروف ولا بالوسائل العادية . وحينئذ تتساءل : كيف تكون الرؤية إذا لم تكن بالعين والمقابلة واللون ووجود الجهة والوسط الشفاف بين الراي والمرئي ؟ أليس معنى هذا ، في التحليل الأخير ، هو إنكار الرؤية البصرية أو لم نكن على حق حينما قلنا إن الماتريدي يبدو ، بحسب الظاهر فقط ، على وفاق مع الأشعري . أما من جهة الواقع والحقيقة فإنه يرتضى رأى المعتزلة ، ذلك الراي الذي يتفق مع التنزيه عن الجسمية وعن الجهة ، والذي ارتضاه كثير من المجتهدين فيما بعد .

٤ - ابنه رهبر :

يأخذ أبو الوليد على الأشعرية أنهم يخالفون الواقع عندما يقولون إن رؤية الله في الحياة الأخرى تقع دون حاجة إلى الشروط المادية التي تتطلبها الإبصار بالعين ، كوجود الضوء والوسط الشفاف والجهة . وليس يغني عنهم شيئاً أن الغزالي يحاول تبرير وجهة نظرهم ، حينما يقرر أن الرؤية لا تتطلب أن يكون الله في جهة مقابلة للعين ، وعند ما ضرب لذلك مثال الرجل الذي يرى نفسه في المرآة ، مع أن نفسه لا توجد في المرآة حقيقة . ومن ثم فإنه يرى نفسه في غير جهة . فلقد فات الغزالي أن الإنسان لا يرى ذاته ،

وإنما يبصر خياله . وهذا الخيال يوجد في جهة تقابل عينه .

كذلك يصف برهان الأشعرية على إمكان رؤية ما ليس بجسم بأنه نوع من العبث . ويتلخص هذا البرهان في أنهم سلكوا طريقة الجدل التي تثير المشاكل أكثر من أن تحلها ، فقالوا إن الشيء إنما تراه العين إما لأنه جسم وإما لأنه لون . وليس من الجائز أن نرى الشيء باعتبار أنه جسم وإلا لما رأينا الألوان ، كما أنه ليس من الممكن أن نرى الشيء من حيث أنه لون وإلا لما استطعنا رؤية الجسم . وإذا تبين فساد هذين الفرضين ثبت لنا أن الشيء إنما تبصره العين باعتبار أنه موجود فحسب . ولما كان الله موجوداً فمن الممكن رؤيته في الآخرة . ووجه السفسطة في هذا البرهان شديد الوضوح ؛ لأن الأشياء إنما ترى من جهة أنها أجسام لها ألوانها . هذا إلى أننا لو سلمنا لهم أن الشيء إنما يرى من جهة أنهم موجود فقط لوجب أن يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى الإحساسات الأخرى ، فيسمع الشيء أو يشم من حيث هو موجود فقط . وفي هذه الحال لا نجد معياراً للفرقة بين مختلف الإحساسات . ولو كان حقاً ما يقولون لوجب أن تبصر الأصوات وسائر المحسوسات الخمس . وقد اضطر المتكلمون لمكان هذه المسألة أن يسلموا أن الألوان يمكن أن تسمع والأصوات يمكن أن ترى . وهذا كله خروج عن الطبع وعماً يمكن أن يعقله إنسان .

إن المعتزلة وغيرهم لما علموا أن تطبيق شروط الرؤية البصرية على الله سبحانه يتنافى مع مخالفته للحوادث انجهموا إلى الحل الصحيح ، وهو أن المراد برؤية الله في الآخرة هو أن يزيد الله علماً به . وهذه الزيادة لا يلحقها إلا المصابرون ، أما من لا يستحقها نهى محجوبة عنه .

لكن ابن رشد يعتقد من البدعة أن يفرق أئمة المسلمين في هذه المسألة ،

ثم يصحوا بهذا الخلاف للامة ، فإن هؤلاء لا يرقون إلى إدراك كيف يمكن رؤية ما ليس بجسم ، أيا كان نوع هذه الرؤية . فالأولى بنا إذن أن نسكت في معهم بما وصف الله به نفسه في كتابه العزيز من أنه نور السموات والأرض . وعندئذ لا نجد الجمهور شبهة ما في رؤية الله . أما العلماء فيعلمون أن الرؤية تفيد مزيد علم به سبحانه . فهي إذن لديهم رؤية رمزية لا تشبه الرؤية الحسية في شيء .

١١ — العدل والجور

لم تتفق الفرق الإسلامية الكبرى في فهمها لإرادة الله : أي مطلقة لا تنطبق عليها معايير الحسن والقبح أو العدل والظلم ، أم تخضع لحكمته وعدله ؟ وقد ترتب على هذا الخلاف في تحديد الإرادة الإلهية أن افترق المعتزلة والأشاعرة والماتريدية في تفسير أفعاله تعالى : أي يمكن المماثلة بينها وبين أفعال العبد ، أم يجب القول بأنه لا سبيل إلى قياس الغائب على الشاهد في هذه المسألة ؟ أما الأشاعرة فيرون أن إرادته تعالى مطلقة ، وأنه مالك الملك وحده يفعل فيه ما يشاء ، فلا يوصف فعله الذي قد يخالف ما يوجب العقل ، كإثابة العاصي وعقاب المؤمن ، بأنه قبيح أو ظلم أو شر ؛ في حين أن الطائفتين الأخرتين تقرران أنه لا بد من قياس أفعاله على أفعال العبد ، مع تفرينه سبحانه عن إثبات القبيح أو الجور . ومن ثم توصف أفعاله كلها بالعدل والحسن ؛ إذ لا يتصور وقوع الظلم منه . على أننا إذا أمعنا النظر في أمر الخلاف بين هذين الرأيين وجدنا أن الأشاعرة ليسوا بعيدين كل البعد عن رأى مخالفينهم ؛ لأنهم ، وإن قالوا بالإرادة المطلقة ، فإنهم ينفون وقوع الظلم منه مادامت أفعاله لا تدخل

في نطاق الأفعال التي تصفها شرائعه بالحسن والقبح ، أو العدل والجور .
ومع هذا فإنهم لم ينتهوا إلى هذا الرأي إلا بعد أن أثاروا كثيراً من الشبه
التي تبعث اليأس في قلوب المؤمنين والأمل في نفوس العصاة البغاة .
ولو أنهم اتبعوا العقل من أول الأمر لما انتهوا إلى ما انتهوا إليه من تصوير
الله سبحانه بالطغيان والقهر ، هذا التصوير الذي لا تطعن له النفس
ولا يرتضيه العقل . ولو فعلوا ذلك أيضاً لكفونا وكفوا أنفسهم
شر الجدل ، وما يتركه من ظل كريمة وأثر بفيض في عقائد المؤمنين .

١ - المعتزلة :

يسمى المعتزلة أنفسهم بأنهم أهل العدل والتوحيد . (١) فهم أهل
ترحيد خالص ، كما رأينا من قبل ، لأنهم يتكرون تعدد الصفات الإلهية
ويسوون بينها وبين الذات ، حتى لا يكون في التسليم بتعددتها اتجاه إلى
القول بتعدد القدماء في ذات الله . وهم أهل عدل لأنهم قاموا بتقضيون
فكرة بعض الطوائف التي زعمت أن الله سبحانه يرتكب الظلم ، وأنه يقهر
عباده على الكفر ، ومن ثم فليس العاصي أو الكافر بمشتول عن كفره
أو معصيته ؛ بل تلك هي إرادة الله التي حددت له مقصده ، فلا يسأل
عن نتائجها .

فالعدل عند المعتزلة صفة من صفات الله ؛ لأنها صفة كمال ، كما هو شأنها
عند الإنسان ، وليكنها صفة سلبية ، بمعنى أنها تنفي الظلم والعسف عن الله ،
وتوجب علينا أن ننزهه تعالى عن ارتكاب الأفعال التي توصف بالقبح

(١) كتب الأستاذ الدكتور علي النشار فصولاً جيدة عن تاريخ المعتزلة وأئمتهم . انظر كتابه
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام الجزء الأول - الباب الثالث ط ١٩٦٢ .

أو الشر . فالله حكيم عادل ، وأفعاله لا يمكن أن تتجه إلى غير قصد أو غاية ، كما لا يمكن أن تكون مخالفة لما يقتضيه العقل الذي يفرق بين الحسن والقيبح ، ويقرر أن هناك أشياء قبيحة في ذاتها وأخرى حسنة في ذاتها ، كالكذب الذي لا يجوز أن يوصف بالحسن ، والصدق الذي لا يعقل أن يكون قبيحاً . وإذا كان الأمر كذلك فلا يجوز على الله الكذب ؛ لأنه يستقيح من العباد فكيف به إذا نسب إلى الله ؟ ، كما يجب أن يكون الله صادقاً لأن الصدق حسن في ذاته ، وهو صفة كمال في الإنسان ، فينبغي أن يكون أمره كذلك في حقه تعالى ؛ بل ذلك أولى وأحق . ويقترب على ذلك أنه من الضروري أن تكون أوامر الله ونواهيه خاضعة لهذا المقياس ، فلا يأمر بالقيبح أو الشر ، ولا ينهى عن الحسن أو الخير . ومعنى هذا أن الشريعة يجب أن تكون مطابقة لما يقرره العقل من الأمر بالحسن والخير ، والنهي عن القبح والشر . وبالفعل جاءت الشرائع الإلهية تأمر بالفضائل والمحافظة على الأنفس ، وتنهى عن الرذائل من قتل وسرقة وظلم ، وكذب وفسوق وعصيان . ولم نر أن شريعة ما جاءت تعض على الشر وتفر من الخير .

وقد استدلل المعتزلة لرأيهم بأن العقل كان أساساً لتقدير القيم الأخلاقية قبل ورود الشرائع ؛ لأنه يفرق للناس بين الأشياء القبيحة والحسنة في ذاتها . فلما جاءت الشرائع لم تفعل سوى أن أكدت ما اهتدى إليه العقل من قبل . على أنه لو لم تكن هناك أشياء قبيحة أو حسنة في ذاتها ، ولو لم يكن العقل قادراً على التفرقة بينها ، لما جاز للرب أن يطلبوا إلى الناس استخدام عقولهم في التفرقة بين القبيح والحسن ، ولما صح أن يطلب إلى العقل أن يؤمن برسائهم لحسنها . هذا إلى أن الشرائع لم تتعرض لسكل الأمور التفصيلية التي يشبه فيها وجه الحسن أو القبح على الناس ، فلا بد إذن من استخدام العقل

فيها لمعرفة وجه الحسن أو القبح التي تنطوي عليه . وإذا كان الإنسان قد وهب عقلا فذلك لكي يستخدمه ، أى أنه مكلف قبل ورود الشرائع التي يبعث الله بها رسله لطفًا بعباده ، وعونا لهم على معرفة طريق الخير .

* * *

ولما كان الله حكيمًا عادلاً ، أى لا يفعل شيئاً إلا لغاية فإنه يريد صلاح العباد بفعل الحسن لهم . لهذا إلى أننا إذا رأينا أن العالم يحتوى على ضرر من الشر والقبح ، وعجزنا عن معرفة الغايات التي تهدف إليها ، فليس ذلك دليلاً على أن الله يريد الشر أو القبح لذاتهما ، وإنما معناه أن العقل الإنساني قاصر عن معرفة جميع الأسباب والغايات . وربما غلا المعتزلة حيناً قالوا بأنه يجب على الله أن يفعل الصلاح والأصلح لعباده ، وربما أخذ عليهم أنهم يستخدمون كلمة تدل على عدم التأدب في حقه تعالى ، عندما يوجبون عليه فعلاً من الأفعال : غير أن بعض الباحثين يميل إلى إنكار أنهم استخدموا لفظ الوجوب . ولو فرض أنهم استخدموه فعلاً لما جاز أن يوصفوا بالمروق والزيف ، وإن وصفوا بإساءة الحديث في وصفهم لأفعال الله . ومع ذلك ، فسترى أن الماتريدي الذي يعيب عليهم سوء أدبهم يستخدم لفظاً قريباً من لفظهم ، فيقول بضرورة العدل والفضل ، أى الصلاح والأصلح ، بدلاً من وجوبهما عليه تعالى .

* * *

وترتبط بمسألة الحسن والقبح والصلاح والأصلح مسألة الخير والشر . ذلك أن إرادة الشر أو الظلم لا تتفق مع حكمته تعالى وعدله . فانه يريد الخير لأنه حسن ولأنه أصلح للعباد ؛ ولا يريد الشر لأنه قبيح وضار بمخلقه . أما الأشياء التي لا توصف بأنها خير أو شر فهي تلك التي

يقال فيها إن الله لا يريد لها ولا بكرها ؛ بل يدعها لتقدير العقل الذى وهبه لعباده . ولو أراد الله الشر لهم لسكان ظالماً ، وهو القائل : وما الله يريد ظلاماً للعباد . فثلاً لا يعقل أن يريد الكفر لعباده ؛ إذ لو أراد لما نهى عنه . ولو كان الكفر والمعصية مرادين له لما وجب العقاب عليهما ، ولجاز للمشركون أن يحتجوا لشركهم ، وشرك آبائهم من قبل ، بأن الله أراد لهم ذلك . فإله يريد الخير والهداية للجميع ، وهو يخلق أسبابهما ، والعبد هو الذى يختار بإرادته جانب الخير أو جانب الشر ، وهكذا يكون للثواب والعقاب معناهما .

لكن قد يقال إذا كان الله لا يريد إلا الخير فكيف يجوز أن يقع في ملكه شيء لا يريد به وهو الشر ؟ وهذا هو النقد الذى وجهه إلى المعتزلة خصومهم . وليست تلك بالمشكلة العويصة التى يعسر الرد عليها ؛ إذ كان للمعتزلة أن يقولوا ، لو فطنوا إلى ذلك من تلقاء أنفسهم ، بأن الله يخلق أسباب الشر لأن في وجود الشر القليل إلى جانب الخير الكثير انتظام هذا العالم وصلاحه . وهذا هو الحل الذى نجده لدى الفلاسفة ، وبخاصة عند ابن رشد .

ب - الأشعرية :

لقد بنى الأشعرية رأيهم في العدل والجور على فكرتهم عن إرادة الله . ^{ربما} فلا يخلو هذا الرأي من التخبط والتناقض ومجافاة ما يقرره العقل . فهم يقولون من جانب إن الله يخلق الخير والشر ويريدهما ؛ ثم يؤكدون من ^{بجانب آخر} أن الحسن والقبيح أمران اعتياريان ، فلا توصف الأفعال في ذاتها بأنها حسنة أو قبيحة ؛ بل مرجع ذلك إلى الشرع ، فما يصفه بأنه حسن أو قبيح فهو كذلك : فالحسن هو ما يثنى الشارع على فاعله والقبيح هو ما يذمه عليه . فكيف إذن يعترفون من جانب بأن هناك شرأ وخيراً -

ثم ينكرون الوجود الذاتي للحسن والقبح من جانب آخر ؟ . أليس الخير حسناً والشر قبيحاً ؟ .

ومهما يكن من أمر هذا التناقض ، فإنهم يخالفون المعتزلة مخالفة صريحة ، فيقولون بأن الشرع هو الذي يحدد طبيعة الحسن والقبح بدءاً ، وأن العقل لا يدخل له في التمييز بين هذين الأمرين . فلو أمر الله بالكذب لا نقلبت طبيعته فأصبح حسناً وخيراً ، ولو نهى عن الصدق لأصبح قبيحاً وشرّاً . فالواجبات كلها سمعية ، والعقل لا يوجب شيئاً ، ولا يقتضي تحسناً ولا قبيحاً .

وقد استدلوا الرايهم هذا بأن الحسن أو القبح لو كانا ذاتيين في الأشياء لما تغيرت حالتها ، مع أننا نرى أن نظرة الناس تختلف باختلاف الظروف ، فأرونه حسناً ، في بعض الأحيان ، قد يكون قبيحاً في أحيان أخرى . مثال ذلك أن قتل النفس قبيح لأن الشرع نهى عنه ، لكنه ينقلب حسناً عندما يوجهه الله للقصاص من القاتل . كذلك لا سبيل إلى إنكار نسبية الأخلاق لدى الأمم واختلاف التشريعات باختلاف الديانات فالقيم الأخلاقية ليست ثابتة مطلقة ؛ بل هي في تطور مستمر ، لأنها أمور إنسانية يتواضع عليها الناس . وكل شيء نسبي لا يجوز أن يوصف بأنه حسن أو قبيح في ذاته .

وقد تبدو هذه الحجة قوية ، وقد يظن بعضهم أن الدراسات الأخلاقية الحديثة تؤكد صحتها . لكن ليس الأمر بمثل هذا اليسر ؛ لأن القول بنسبية الأخلاق ليس صحيحاً على إطلاقه . فإن هناك أصولاً أخلاقية كبرى تتفق عليها الشرائع السماوية أو الوضعية . وهذه الأصول لا تتطور ولا تتغير . مثال ذلك وصف القتل بالشر والقبح ، ووصف الأمانة والصدق والتعاون بالخير والحسن . أما الفروع فإنها قد تتطور ، وعندئذ توصف بالنسبية .

حكم) وربما كانت هذه التفرقة الجوهرية التي نشير إليها هي التي أدت إلى تطور
فكرة الأشعرية فيما بعد على نحو جعلتهم يوافقون المعتزلة ، كما يقول
الاستاذ أحمد أمين ، موافقة جزئية عندما فرقوا بين نوعين من الحسن
والقيح : أحدهما ذاتي يدركه العقل ، والآخر نسي لا يدرك إلا بالشرع .
ومع ذلك فإن الأشعري نفسه يطبق مبدأه السابق تطبيقاً تاماً ، فيرى
أن الله لو فعل شيئاً نحكم بعقولنا أنه قبيح لما كان قبيحاً . فله أنه بخلاف الأنبياء
في النار والكفار في الجنة لأن إرادته مطلقة . وهو المالك في خلقه يفعل
ما يشاء ، ويحكم بما يريد . فلو أدخل الخلاق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ،
ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً . ، فلا يستقيم منه تعالى أن يؤلم الأطفال
في الآخرة ، ولا أن يخلق الناس للكفر أو يبتدئهم بالعذاب ، أو يثب الكافر
ويعاقب المؤمن . ولو فعل ذلك كله أو أكثر لكان عادلاً ، ولما جاز أن
يوصف فعله بالقيح . ونحن لا نملك إلا أن نعجب لهذا الرأي الغريب الذي
يصور الله سبحانه بصورة الملك المستبد الجائر . ولا شك في أن الأشعري
الذي حاول التفرقة هنا بين الغائب والشاهد لا يفعل في الحقيقة إلا أن يعاقل
بينهما بطريقة غير شعورية . لأنه يعمل رأيه في أن أفعال الله لا توصف بالقيح
بأنه لا يخضع لشرعية ولا يتجاوز حدود ما رسم له ؛ بل يتصرف فيها بملك .
وتلك فكرة قريبة من تلك التي قد يرتضيها بعض الناس للحاكم الإنساني
المطلق الذي يملك حق الحياة والموت على رعاياه ، ثم يوصف بأنه فوق
القانون ، ولا يخضع لحدود أو رسوم ؛ لأنه هو الذي يقرها ويحددها .
وقد حاول القشيري أن ينفي عن الأشعري أنه ذهب إلى هذا الرأي . لكن
كتبه ، كإلحاده واللمع ، وآراءه الأخرى ، كجواز التكليف بما لا يطاق
والقضاء والقدر وعدم ضرورة إرسال الرسل ، تبين لنا أن هذا
هو رأيه الحقيقي .

وإذا كان الله يفعل ما يشاء في ملكه فليس لأحد أن يوجب عليه فعل الصلاح أو الإصلاح لخلقه . وليست أفعاله معللة بغاية أو غرض .
ودليل ذلك أن ليس كل ما في العالم خيراً بل فيه شر كثير^(١) ، وكان من الإصلاح ، على رأي المعتزلة ، ألا يوجد هذا الشر ، فقد منع الأموال قوماً ، وأعطاهما آخرين ، وأعطى قوماً مالا ورياسة فبطروا وهلكوا ، وكانوا مع القلة والحقول صالحين / وأمرض قوماً فآلموا وضجروا ونطقوا بالكفر ، وكانوا في صحتهم شاكرين ، وأى صلاح في خلق إبليس والشياطين . وإعطائهم القوة على إضلال الناس ؟ ثم وجدناه تعالى أمات سريعاً من ولى أمور المسلمين بالحق والخير ، وولى عليهم زياداً والحجاج وبغاة الخوارج . فأى مصلحة في هذا لزياد والحجاج وقطرى أو لسائر المسلمين ؟ فالمعتزلة إذن قد أخطأوا ، في رأى الأشعرى ، عندما قاسوا أفعال الله على أفعال الناس ، وعندما قالوا إن الحكيم من البشر يفعل الحسن والإصلاح ، وإن أحكم الحاكمين يجب أن يوصف بما يوصف به عباده ، وهذا القياس غير صحيح ، وليس بضرورى ؛ إذ كيف نفسر الغايات الإلهية بقولنا الإنسانية ؟ ولو أن الأشعرى تعمق في هذه الفكرة الأخيرة فلربما اهتدى إلى ما اهتدى إليه خصومه من أن الله لا يفعل شيئاً إلا لحكمة وغرض ، وأن خفاء الأغراض أو الغايات ليس دليلاً على عدم وجودها ، وأن تصور عقل الإنسان ليس مبرراً لوصف الله سبحانه بإرادة الكفر والشر لعباده .

* * *

كذلك ترتبط مشكلة الخير والشر بفكرة الأشعرى عن الإرادة

(١) يُقدِّم أبرز « نوادر » فكرة وجود الشر في العالم ، وكانت آراؤه هذه أساساً للمذهب الاخلاقي في القرن الثامن عشر .

المطلقة . فاقه مرید لكل ما كان ، وغير مرید لما لم يكن . ولما كان الشر موجوداً في العالم فاقه مرید له . فهو يريد الكفر لعباده العاصين ، ويريد الإيمان لمن يريد هدايته . وليس للعبد اختيار فيما يريد الله له من طاعة أو عصيان ، وإنما كان الله مریداً لكل ما في العالم من خير أو شر لأن كل ما يوجد فيه محتاج إلى إرادة . ولما كان الشر والكفر والمعاصي أموراً جادة وجب أن تكون مرادة لله . ويذهب الأشعري إلى أبعد حد يمكن أن يتصوره العقل في استنباط نتائج هذا الرأي . فيقرر أن الله خلق جماعة للنار وجماعة للجنة أبدأ . وكان الخير له كل الخير أن يقول ، حتى لا يهدم أسس الثواب والعقاب ، إن الله خلق أسباب الخير وأسباب الشر ، وعلم أن هناك جماعة سيحبذون ، لأنهم سيميلون إلى جانب الشر ، وأن هناك جماعة أخرى سينعمون لأنهم سيختارون الخير . وكان أجدر به أن يقول إن الله يدعو إلى الهدى ، فإن القرآن هدى للمؤمنين الذين يقبلون ما جاء به ، دون الكافرين الذين أعرضوا عنه . وقد اعترف هو نفسه « بأن دعاء إبليس إلى الكفر إضلال للكافرين الذين قبلوا عنه ، دون المؤمنين الذين لم يقبلوا عنه » ، أقلاً يرى الأشعري حقيقة أن القبول أو الرفض دليل على حرية الاختيار ، وعلى أن الله لا يريد الكفر لعباده ؟

لكن جدله مع المعزلة وفكرته الغريبة عن إرادة الله جعلته ينصرف عن وجه الحق الذي كاد يسفر له ، فأخذ يكفر خصومه ، ويتهمهم بالزندقة واتباع الجوس الذين يقولون إن الله لا يقدر على الشر ^(١) . ثم أخذ يحتج عليهم بأدلة شرعية ، وأخرى عقلية ، فاستشهد أولاً بآيات من

(١) من المعروف أن المعزلة هم الذين بدءوا بالهتاف عن الإسلام ضد موجة النصوصية التنصيرية من مانوية ومرذكية فكيف يجوز القول بأنهم من أتباع الجوس ؟

القرآن يمكن تأويلها دون عسر ، على نحو يتفق مع روح الشرع ، من مثل قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » وقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً » ، وليس من المعقول أن يكون هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم هم نفس الذين شرح الله صدورهم للإيمان . لكن ليست الحجة هنا قاطعة ؛ لأنه يمكن تأويل أمثال هذه الآيات بأن الله خلق أسباب الخير والشر ، وأن العبد يختار أحد الجانبين بالقدره التي خلقها الله له . فإذا زاغ العبد أزاغه الله ، كما يقول تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وإذا احتج الكافرون بأن قلوبهم في أكنة عما يدعونهم الله إليه قيل لهم إنهم هم الذين صنعوا هذه الأكنة بأيديهم ، وأن ما يزعمون ليس دليلاً على أن الله يخلق كفرهم ومعاصيهم . والحق أن الأشعري يحتج ببعض آيات القرآن دون بعض . فإذا رأى آية تنفي الظلم عن الله أولها كقوله تعالى : « وما الله يريد ظليلاً للعباد » ، وقوله : « وما الله يريد ظليلاً للعالمين » . وإذا أولها فإنه يؤولها على نحو لا يوجب الافتناع ؛ بل يتحايل تحايلاً يغلب عليه التعسف . مثال ذلك أنه يقول إن عدم إرادة ظلم العباد معناه أنه ، وإن كان لا يريد ظلمهم ، فإنه قد أراد أن يظلم بعضهم بعضاً . وهذا تأويل لا يرفع الشبهة ؛ بل ينقلها في الواقع من مجال إلى آخر ؛ إذ يبقى بعد هذا أن إرادة الظلم أياً كان نوعه هي إرادة لما يوصف عادة بالقبح أو الشر ، ولو كان من العباد . كذلك تأويل قوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، فقال إنه لا يجوز مناقضة القرآن ببعضه ببعض ، لأن الله يقول : « قل كل من عند الله » . ولو علم الأشعري أن التعارض الذي يلحظ في مثل هذه الآيات إنما يهدف إلى إثبات حرية العبد في حدود ما خلقه الله من أسباب الخير أو الشر لما سلك هذا المسلك في الجدل العقيم .

أما الحجاج العقلية التي أراد بها دحض رأى المعتزلة فترتكز كلها أيضاً على فكرته عن الإرادة المطلقة . فمن ذلك أنه يرى « أن الله يقدر أن يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنته أراد أن يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم . ، ولو فعل العباد ما لا يريد » وما نكرهه لكانوا أكرهه . وإذا وقع شيء دون إرادته لكان ذلك دليلاً على الضعف والتقصير . ولو كانت المعاصي تقع في ملكه ، وهو لا يريد ، لترتب على ذلك أن تحدث ، شاء الله أم أبى ، وهذه صفة الضعف . وليس لأحد أن يقول إن إرادة الكفر والمعاصي سفة ؛ لأن الله إذا أراد سفة السفهاء فليس ذلك دليلاً على أنه ينسب إليه تعالى ، كما سبق أن رأينا ذلك عند الكلام عن الإرادة ^(١) . فالسفة لا يتصور من الله ؛ لأنه لا يكون إلا ممن يتصرف في غير ملكه ، والله رب العالمين . . . ليس تحت شريعة ، ولا فوقه من يحده له الحدود . ، ودليل آخر ، وهو أن الله إذا أقدر عباده على الكفر فهو أولى منهم بأن يكون قادراً على خلق الكفر ، لهم ، كما أننا نقول إن عباده لا يعلنون شيئاً إلا والله عالم به . ^(٢) وإذا كان الله قادراً على خلق الكفر فليماذا يتقول المعتزلة على الله ، ويقولون إنه لا يخلقه ، مع أن الله يذكر في كتابه أنه « فعال لما يريد . » ، فإذا كان الكفر مراداً له فلا شك أنه يخلقه ، كما أن الله ينعم بفضله على المؤمنين ، فيخلق لهم الطاعة بدليل قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعثهم الشيطان إلا قليلاً . » فهذا الفضل خاص بالمؤمنين . ولو حق لغيرهم لما تبع أحد من الناس شيطانه . وإذا أمر الله بالإيمان فإنه لا يعطى الكافرين القدرة عليه لأنه يخذلهم ، هذا إلى أن إيلام الأطفال في الدنيا يعتبر عدلاً . وإذا نزل عذابهم الله في الآخرة لكان ذلك عدلاً أيضاً .

(١) أنظر ص ٥٩ ، ٦٠

(٢) هذا قياس مع الفارق لأن العلم خير من الكفر شر .

لكن هذه الأدلة العقلية ، أو التي يظن أنها كذلك ، لا تقف أمام النقد . وهي تشترك جميعها في أنها تقوم على أساس فاسد ، وهو إنكار حرية العبد واختياره ، ثم القول باستحقاقه للعقاب أو العذاب على أفعال لم يردّها أو لم يخلقها ؛ بل أرادها الله له وفرضها عليه . ولا ريب في أن مثل هذه الفكرة تتنافى مع ما يوجب العقل ويرتضيه الشرع . ولو صح أن العبد مجبور على أفعاله لبطل التكليف ، ولما أمكن تصور فكرة الثواب والعقاب ، ولما كان للدؤمن أن يستمر في إيمانه ، ولا للعاصي أن يرتد عن عصيانه . إنها فكرة لا تتناسب مع كمال الله وعدله ، وإن كانت على وفاق مع فكرة الأشعرى عن الإرادة الإلهية المطلقة ، التي يتصورها في حقيقة الأمر ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، على غرار تصوره لإرادة الطغاة والمستبدين من الخلق أو لا يستطيع أكثر الناس غلواً في تقدير آراء الأشعرى ، جرياً وراء التقليد والعادة ، إلا أن يقر بأن رأى المعتزلة أقرب إلى روح الشرع والاعتراف بعدل الله وحكمته . ولا يضير هؤلاء بعد ذلك أنهم قالوا — أو قيل عنهم — إنه يجب على الله فعل الخير والصلاح والأصلح وإرادة الهدى لجميع عباده . فإنهم ، وإن لم يلتزموا جانب الأدب في الحديث ، قد عبروا عن المعنى الدقيق الذي يؤكد حكمة الله ، وينزهه عن النقص والظلم .

ح - المنازعة :

لا يكاد يختلف المازيدى في هذه المسألة أدنى اختلاف عن المعتزلة ؛ بل هو من قبيلهم فيها ؛ لأنه يوافقهم في كل تفاصيلها ، وإن خالفهم من جهة استخدام الألفاظ المناسبة في بعض المواطن . فهو يعترف منهم تماماً بأن القبح والحسن أمران ذاتيان في الأشياء ، وأن الشرع يتبع في أوامره ونواهيه ما يصف به العقل الأشياء أو الأفعال من حسن وقبح . حقاً إن

العقل لا يهتدى إلى التمييز بين هذين الأمرين في جميع الحالات . ولذلك جاء الشرع يدعمه وينير أمامه السبيل . وإنما وجب القول بأن الله لا يريد القسح أمر الشر لأن قدرته تعالى ليست ، كما توهم الأشعرية ، قوة استبدادية لا تخضع لحكمته وعدله . فافقه مالك مطلق ، وهذا أمر لا ينكره أحد . لكن ينبغي ألا يستنبط من ذلك أنه يفعل ما يقبح في نظر العقل كإثابة العاصي وعقاب المطيع ؛ فإن في ذلك هدماً لكل المعايير الأخلاقية والعقلية . وفيه مخالفة صريحة لما يقرره الشرع من حكمته وعدله . ومن ثم فقول الأشعرى غاية في السقوط ، وهو قبيح وشنيع لدى كل ذى بصيرة .

كذلك ينصر الماتريدي المعتزلة على خصومهم فيما يذهبون إليه من ضرورة مراعاة الصلاح للعباد . وهو لا يختلف عنهم إلا في الالفاظ فقط . فبدلاً من أن يقول بوجوب الصلاح والأصلح ، نراه يميل إلى استخدام عبارة أخرى تؤدي نفس المعنى ، وهي لزوم العدل والفضل . والعدل هو الصلاح أما الفضل فما زاد عن العدل أي ما كان أصلياً . فافقه حكيم عادل ، وأفعاله لا تخلو من حكمة . وهو فاعل مختار : فافعل كان فضلاً منه ، وما لم يفعله كان عدلاً منه . ويقول الماتريدي في حديثه عن رأى المعتزلة : إذا أرادوا بالأصلح الحكمة فلا خلاف بيننا وبينهم ، وإذا أرادوا به الأنفع فقد أخطأوا . ولكنه يرتضى في موضع آخر فكرة النفع ، لأنه يعرف العدل بأنه هو ما فيه كان الخير ، أي ما فيه نفعه . ولذا فليس هناك أدنى خلاف بينه وبينهم بحسب الواقع .

وقد استطاع الماتريدي أن يصحح رأى المعتزلة في مشكلة الخير والشر ، فأكد أن صلاح العالم يقتضى بالضرورة وجود الخير والشر فيه . وليس معنى ذلك أنه لا يريد الشر ، كما كان يظن المعتزلة ، وإنما معناه أنه يريد

لتحقيق الخير أو الصلاح . ومع هذا فإنه لا يرتضى رأى الأشعرية في جواز عقاب المؤمن تحقيقاً للإرادة المطلقة . فإنه لا يجوز ، في رأيه ، أن يتخلف ما وعد الله به عباده الصالحين ؛ لأنه حق للعباد على الله . أما العفو عن العصاة بمقتضى علمه الأزلى فليس داخلاً في عموم آيات الوعيد ؛ ولذا يجوز أن يشمل الله بعفوه من أراد ، ويكون ذلك منه فضلاً ورحمة ؛ في حين أن عقاب المؤمن بحجة المشيئة المطلقة أمر لا يتصوره العقل ؛ لأن العقل السليم يأبى أن يتصور أن الله يستعمل قدرته هذه في العبث والجور والسفه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ومن هذا يتبين لنا أن الماتريدي يوافق المعتزلة تماماً في مشكلة العدل والجور ، وأنه لا يخالفهم إلا في مسألة مرتكب الكبيرة . وهو أقرب إلى الحق منهم فيها ، إذ ليس لأحد أن يحجر على إرادة الله للخير والعفو عن من يشاء ^(١) .

ج - ابن سبر :

رفض أبو الوليد رأى الأشاعرة لأمرين وهما : أنه مضاد للعقل ، ومخالف لروح الشرع . أما مضادته للعقل فذلك مما تشهد به البداهة ؛ فإننا ندرك بحواسنا وعقولنا أن هناك أشياء حسنة وأخرى قبيحة . وأن الحسن أو القبح فيها لذاتها . فليس الحسن والقبح إذن أمرين اعتباريين ، كما ظن الأشعرية ؛ بل هما حقيقتان . كذلك يعد رأيهم مضاداً للعقل من جهة أخرى ؛ إذ لو كان الشرع هو الذى يحدد صفة القبح أو صفة الحسن في الأشياء لجاز القول بأن الشرك بالله ليس قبيحاً في ذاته ، وأنا لو فرضنا أن الشرع جاء ينادى به بدلاً من التوحيد - وكل شيء جائز في رأى الأشعرية - لانقلبت طبيعته ، فأصبح خيراً وحسناً .

(١) وضع الإمام الغزالي هذه الفكرة أجمع توضيح في كتابه فيصل النقرة بين الإسلام والزندقة .

وأما أن رأيهم يخالف روح الشرع فذلك لأنه يناقض كثيراً من الآيات القرآنية التي تصف الظلم بالقبح والشر ، ولقي تنفيه عن الله سبحانه ، من مثل قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وقوله : « وما ربك بظلام للعبيد ، وقوله « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، وقوله : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . »

ولذا نجد أن ابن رشد عيّل إلى رأي المعتزلة ، ويراقصهم في أن الله يفعل الصلاح والأصلاح لعباده . ومع ذلك فإنه يخالفهم في مسألة خلق الشر وإرادته . فهو يصرح بأن الله يخلق الشر كما يخلق الخير ، سواء بسواء . وهو يريد أيضاً ، لكنه لا يريد لذاته ، وإنما من أجل ما يترتب عليه من خير هو صلاح العالم . مثال ذلك إن الله يخلق أسباب الشر والخير في الإنسان ، وبعم أن في ذلك صلاحه ؛ لأن خلق الشر القليل إلى جانب الخير الكثير أفضل وأصلح من انعدام الخير الأكثر الذي يشوبه قليل من الشر . وهذا هو معنى قوله تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون ، ، ردأ على الملائكة الذين سألوه : كيف يتخذ الإنسان خليفة في الأرض ، مع أنه يعلم أنه سيفسد فيها ويسفك الدماء ؟

• • •

وهو من رأي المعتزلة أيضاً في أن الله لا يرضى لعباده الكفر . ولا يخلق لهم ؛ بل يخلق لهم قدرة تصلح للعندين . ولذا فهم مسئولون عما يختارون . أما الآيات التي احتج بها الأشعرية ، واستشهدوا بها على أن الله يريد الكفر والمعصية لفريق من عباده ؛ بينما يريد الإيمان والطاعة لفريق آخر ، فيجب تأويلها لأنها قد نوى نسبة الظلم والإضرار إليه سبحانه في نظر من لا يوفق بين الآيات القرآنية التي تبدو متضادة أو متناقضة

بحسب الظاهر ، فيكسني بقبول أحد الضدين وينكر الآخر . وهذا هو ما فعله الأشاعرة الذين يصفهم أبو الوليد بالبدعة ، فيقول : « إن ما نقوله الأشعرية من أنه يجوز على الله أن يفعل ما لا يرضاه [وهو الكفر] ، أو يأمر بما لا يريده فنعوذ بالله من هذا الاعتقاد في الله سبحانه . ، وحقيقة إن فهم بعض آيات القرآن الكريم فهماً حرفياً مثل قوله تعالى : « فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » ، يؤدي إلى إساءة فهم كثير من نصوصه الصريحة ، كقوله : « إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون » ، وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم » وأن الله ليس بظلام للعبيد . ، وليس تأويل الآيات ، التي قد توهم أن الله يريد إضلال عباده ، أو كفرهم ، بالأمر العسير أو المصطنع ؛ فقد قلنا أكثر من مرة إن الله يخلق لهم قدرة على اختيار أحد الضدين ، أى أنه يزودهم بالقدرة على اتباع أسباب الهداية أو الضلال . وهذا هو التأويل الذي يؤكد الواقع ، والذي يتفق مع روح الدين ، وإلا لما كان للثواب أو العقاب معنى ، ولما كان الإنسان مجبوراً على أفعاله ، مادام الله هو الذي يخلق له جميع هذه الأفعال ، ومنها الكفر أو الإيمان . كذلك يتفق هذا التأويل من جهة أخرى مع ما يوجهه العقل والحس معاً من إثبات حرية الإنسان واختياره .

* * *

ولما كان الأشعرى يفهم الإرادة الإلهية هذا الفهم الخاطئ . فسواء يسيء فهم إحدى المشاكل الأخرى ، وهي مشكلة القضاء والقدر وما يتصل بها من أفعال العباد ، وسواء يختلف مع المعزلة والماتريديّة اختلافاً صريحاً ، ويحاول محاولة اليائس أن يهتدى إلى حل وسط ، مع أنه أقرب الناس إلى طائفة الجبرية التي تنكر حرية الفرد واختياره ، وهي تلك

الطائفة التي كانت سبباً في انصراف المسلمين إلى التواكل على النحو الذي نراه بأجلى صورته حتى في عصرنا الحاضر ، مما يعد أكبر وأهم الأسباب في تدهورهم وانحطاطهم .

١٢ — القضاء والقدر

اختلف الناس قديماً وحديثاً في مشكلة القضاء والقدر ، وذهبوا مذاهب شتى في تفسيرها . فمنهم من ينكر على العبد حريته وإرادته ، فيجعله مسيراً لا شأن له في خلق أفعاله التي حددت له تحديداً أبدياً لا سبيل إلى تعديله أو تحويره . ومنهم من يربأ بالإنسان أن يكون في منزلة الجراد أو الحجر ، فيثبت له الإرادة ، ويحصله قادراً على أفعاله ، ويرى أنه من العدل أن يثاب أو يعاقب ، بناء على ما قدمته يده .

وقد عرضت هذه المشكلة للمفكرين المسلمين أيضاً ؛ ذلك لأن القرآن الكريم يحتوي كما قلنا على آيات تشير إلى أن الله خالق كل شيء ، وآيات أخرى تقرر أن العبد مسئول عما يفعل . ومن المؤكد أن هناك تعارضاً ، بحسب الظاهر ، في الأقل ، بين هذين النوعين من الآيات . ولذا انقسم المسلمون في فهم هذه المشكلة إلى فريقين رئيسيين : هما أهل الجبر المحض والمعتزلة . ثم حاول فريق آخر التوفيق بينهما . ونعني به فريق الأشعرية . غير أن هؤلاء لم ينجحوا فيها حاولوا ؛ بل يمكن القول بأنهم من أهل الجبر بمعنى الكلمة . ثم جاء المائزدي وأخذ يبرهن على فساد رأى المعتزلة . لكن براهينه كانت واهية . ولذا لم ندمش عندما رأينا يرضى رأى خصومه في نهاية الأمر . وأخيراً جاء ابن رشد فحل لنا هذه العقدة حلاً أقرب من أى حل آخر إلى العقل ، وإلى ما يرضيه الشرع .

٢ - الجبرية :

يميل أهل الجبر المحض ، وعلى رأسهم جهم بن صفوان ، إلى أن أفعال الناس ليست من صنعهم بحال ما ؛ فإن الله وحده هو الذى يخلقها^(١) ، ولا فرق في ذلك بين أفعالهم الاضطرارية كرعشة اليد أو السقوط من عل ، وبين أفعالهم التى قد يخيل إلى بعضهم أنها اختيارية كالسير والكلام والحركة . وإنما كان الإنسان مجبراً تمام الجبر ؛ لأنه مجرد من كل قدرة وإرادة . فهو أشبه بريشة في مهب الريح ، والله هو الذى يخلق له أفعاله ثم يجريها على يديه من هذا نرى أن أهل الجبر يهبطون بالإنسان إلى مرتبة أقل وأدنى من مرتبة الحيوان ، بل النبات أيضاً ؛ لأنهم يماثلون بينه وبين الجماد ، فيقولون إن الأفعال لا تناسب إليه على وجه الحقيقة ؛ بل على سبيل المجاز ، كما يقال مثلاً سقط الحجر ، وتحرك الغصن ، وأثمرت الشجرة ، وطلعت الشمس . وما كان للإنسان في رأيهم أن يستطيع شيئاً ؛ إذ الله وحده هو خالق كل شيء . ولو صح أن الإنسان يخلق أفعاله لكان شريكاً لله في خلقه ، أو لكانت له في الأقل أفعال لا تخضع لإرادة الله ، أولاً تم حسب مشيئته وقدرته .

وقد استدل أهل الجبر المحض لرأيهم هذا ببعض الآيات كقوله تعالى : « الله خالق كل شيء » ، وقوله « ختم الله على قلوبهم » ، وقوله « والله خلقكم وما تعملون » . غير أن هذه الآيات يمكن تأويلها ، وبخاصة إذا نحن فرقنا بين قدرة العبد وقدرة الرب ، وإذا نحن لم نمائل بين فكرة الخلق بالنسبة إلى الله تعالى وبالنسبة إلى الإنسان . ولما غفل أهل الجبر المحض عن ضرورة هذه التفرقة غلوا في التعصب لرأيهم ، وهبطوا بالإنسان إلى مرتبة أدنى بكثير من تلك التى أرادها له الخالق الذى أحسن خلقه . ولما غفل عنها

(١) أنظر الشهرستاني : نال والنحل ، والبندادى : الفرق ، والاسفرايينى : التبشير .

الاشعري أيضاً عجز عن التوفيق بين أهل الجبر المطلق وخصومهم، وأخيراً لما غفل عنها المعتزلة عجزوا عن إلخام خصومهم جميعاً ، وكانوا يستطيعون ذلك لو فطنوا إلى هذه التفرقة .

ب - اطمئزلة :

يرى معظم المعتزلة أن للإنسان قدرة على أكثر أفعاله . ويريدون بها أفعاله الاختيارية ، التي يتردد فيها أمام الفعل أو الترك . فإذا فعلها كانت مخلوقة له ما في ذلك ريب . أما الأفعال الاضطرارية كرعشة اليد وغيرها ، وهي التي تشبه الأفعال المنعكسة ، التي تتم دون تدخل الإرادة ، فلا يمكن أن يقال عنها إن من صنعها أو بحريته واختياره . والأفعال الأولى التي يمكن فعلها أو تركها أولى أن تنسب إلى الإنسان من أن تنسب إلى الله ؛ إذ لو لم يكن العبد هو خالقها ؛ بل كانت مخلوقة لله ، فليس هناك ما يدعو إذن لا إلى تكليفه بفعلها ، ولا إلى عقابه أو ثوابه عليها ، متى وقعت منه أو أجراه الله على يديه ، كما يقول أهل الجبر المحض . وكيف يثاب أو يعاقب مع أنه لم يأت في حقيقة الأمر خيراً أو شراً من تلقاء نفسه ؟ وعلى كل ، فليس هناك معنى لتكليف العبد بفعل الخير وترك الشر ، مادامنا نعلم أن ذلك ليس في استطاعته ؛ لأن الله وحده هو القادر ، وهو الخالق لكل شيء ، حتى لأفعال العباد نفسها . وكيف يتصور العقل أن نقول لمن لا يخلق شيئاً : افعل أو لا تفعل ؟ ثم كيف نجيز أن يعاقب العاجز أو يناب على عجزه أو على فعل أجراه الله على يديه ، دون أن تسكون لإرادة هذا العاجز أى تأثير في القيام به ؟

تلك هي وجهة نظرهم العقلية في ضرورة القول بخلق العبد لأفعاله . وهي وجهة نظر أخلاقية لا غبار عليها . وهي تنسق ، فيما عدا ، ذلك مع آيات كثيرة من القرآن ، وهي تلك الآيات التي لم يعدم المعتزلة أن يستشهدوا بها

لندعيم رأيهم . فنها قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . » ، وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، وقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وقوله : « من يعمل سوءاً يجز به » ، فهذه الآيات أكثر صراحة — من الآيات التي استشهد بها أهل الجبر المطلق — في إثبات أن العبد هو الذي يخلق أفعاله ، وأنه هو الذي يسأل عن عمله ، لا عن عمل غيره . ^(١) وهناك آيات أخرى تأخذ على الكافرين أنهم قصروا في حق أنفسهم عليهم ، فلم يتجهوا إلى الإيمان باختيارهم ، وقد كان في استطاعتهم أن يفعلوا لو أرادوا ، كقوله تعالى : « فالحكم عن التذكرة معرضين » ، وقوله : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ؟ » ، وأكثر من ذلك صراحة آيات أخرى تنسب المشيئة إلى العبد ، كقوله : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

والحق أننا لو تصفحنا آيات الكتاب لوجدنا أن آيات الاختيار أكثر عدداً وأشد صراحة من آيات الجبر ، وأن هناك آيات أخرى تجمع بين الجبر والاختيار ، مما يدل على ضرورة التوفيق بين هاتين الوجهتين المتضادتين من النظر ، بحيث لا يغفل المرء في تقرير الاختيار المطلق أو الجبر المحض .

ح - الأشعرية :

أراد الأشعرى أن يسلك منهجاً وسطاً بين الجبرية والمعزلة ، فخرج

(١) « إن المخالفين لكتاب الله وعدله يقولون في أمر دينهم بزعمهم على القضاء والقدر ، ثم لا يرضون في أمر دنياهم إلا بالاجتهاد والبحث والطلب والأخذ بالحزم فيه . . . » النية والأمل لأمير المارثي . وهو ناس يرويه من أحسن البصري .

بهذا الرأي الغريب الذى يحمل التناقض بين ثنائه . فإذا نحن أمعنا فيه النظر ، وبيننا مواطن التناقض والضعف فيه بدا لنا على حقيقته ، وهو أنه نفس رأى الذى ارتضاه أهل الجبر المحض من قبله (١)

لقد اتهم الأشعرى المعتزلة بأهم من الجهمية لأنهم تأثروا برأى جهم فى الصفات الإلهية ، ونستطيع بدورنا أن نقول إنه من أتباع جهم فى مسألة القضاء والقدر ؛ ويشهد بذلك أننا نجد رقيقاً به فى هذه المسألة ، وقد فطن ابن تيمية إلى هذه الحقيقة فوصف الأشعرى بأنه جهمي (٢) .

ذلك أن الأشعرى بدأ بأن فرق بين نوعين من الأفعال على غرار المعتزلة ، فقال إن هناك أفعالاً اضطرارية وأخرى إرادية . وفى الأفعال الأولى يشعر الإنسان بعجزه ، مما يدل قطعاً على أنها غير مخلوقة له وأنه لا إرادة له فيها ، ومن ثم لا يسأل عنها . أما فى الأفعال الثانية فإنه يشعر بالقدرة عليها . وهذا دليل على أن له قدرة يستطيع استخدامها ، وهذه القدرة مسبقة بالإرادة ، وبها يكتسب الإنسان أفعاله . ولكن ما معنى الكسب إذن ؟ وهل هو مختلف عن الخلق ؟ يقول الأشعرى — ومن يتشيع له — إن الكسب معناه اقتران قدرة العبد بفعل الله ، بمعنى أن الإنسان إذا أراد أن يفعل فعلاً من الأفعال فإن الله يخلق له فى هذه اللحظة نفسها قدرة على هذا الفعل . وهذه الأخيرة هى التى تكتسبها ، لكنها لا تخلقه . ومعنى

(١) يذهب الأستاذ الدكتور على النشار فى كتابه نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام الجزء الأول ط . ١٩٦٢ إلى أن الأشعرى سلك مسلكاً وسطاً عندما قال بأن الجبر فيه بعض الاختيار ، لسكنته ثم يبرهن على وجهة نظره برهنة . نفعة ؛ بل إن التمس الذى يورد . فى ص ١٩٩ فيه مسحة من الاعتزال . والنص مأخوذ من مقالات لإسلاميين ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية : ابن تيمية .

ذلك ، في التحليل الأخير عنده ، إن قدرة الإنسان لا تعدو أن تكون أداة تستخدمها قدرة الله لتنفيذ الفعل الذي أراده العبد . ويظن الأشعري ، بعد هذا التفسير الذي لا يتقنع غلة ، أنه استطاع حل المشكلة ، وأنه برهن على قساذ رأى الجبرية ورأى المعتزلة ، سواء بسواء . كذلك يخيل إليه أنه وجد حلاً مرضياً لمشكلة الثواب والعقاب ؛ لأنه متى ثبت أن للعبد قدرة فإن ذلك دليل على أنه مسئول عما يكتسب . لكن لنا أن نتساءل فنقول : أذلك حل جدى يمكن التوقف لمناقشته ؟ لنن قال الأشعري إن قدرة العبد شرط ضرورى فى وجود الفعل فإننا نقول من جانبنا إن وجود السكين وقدرتها على القطع شرط ضرورى أيضاً فى وجود فعل القتل . فهل قال أحد من العقلاء ، إن السكين يجب أن تكون مسئولة بدلاً من صاحبها الذى استخدمها ؟

ومن جانب آخر عرضت للأشعري الشبهة الآتية ، وهى كيف تتعلق قدرة العبد وقدرة الله بشئ واحد ، وهو الفعل الذى يصدر من الإنسان ؟ فقال إن قدرة العبد تتعلق به كسباً ؛ بينما تتعلق به قدرة الله خلقاً . وفى رأينا أن لاجابة إلى هذا الافتعال فى التخريج ؛ لأننا إذا فهمنا كيف يكتسب الإنسان أفعاله فهما صحيحا أمكننا أن نقول بأنه يخلقها ، ولكن بمعنى يختلف عن معنى الخلق بالنسبة إلى الله .

ومهما يكن من شأن الخلط بين هذين المعنيين ، فإننا نجد أن الأشعري يؤكد لنا أن الفعل مخلوق لله لا للإنسان ، وأنه يحدث عند وجود قدرة العبد وإرادته ، دون أن يكون نتيجة طبيعية لهما . فما معنى هذا التفسير ؟ وفيه هذا العناء والجهد ؟ أليس معناه أن الأشعري يؤكد صراحة أن العبد ليست لديه القدرة على خلق أفعاله ، ويعترف تماماً كأهل الجبر بأن الله هو الذى يخلق أفعال العباد ، لأنه خالق كل شئ ؟ وماذا يجدى أن تقترن قدرة

العبد يخلق الفعل مادامت ليست سبباً فيه ؟ لقد قيل إن مذهب الأشعرى
وسط بين الجبر والاختيار . غير أننا نتبين الآن أنه مذهب جبر مطلق ؛
لأنه ، وإن اعترف بقسرة العبد وإرادته ، فإنه لا يلبث أن يجردهما من
كل تأثير ، بحيث يستوى عندئذ نفسيهما أو إثباتهما ، أو بحيث ينتهى ، بعبارة
أكثر دقة ، إلى إنكار وجودهما .

وما يدل على صدق ما نرى أن الأشعرى لم يستشهد ، لا بالأدلة الشرعية
ولا العقلية على وجود الكسب للإنسان ؛ بل صرف جهده للعشور على أدلة
تنفي قدرة الإنسان على خلق أفعاله . وهذه الحجج لا تختلف كثيراً عما
ارتضاه أهل الجبر من قبل . فالعبد لا يستطيع أن يخلق شيئاً لقوله تعالى :
« هل من خالق غير الله ، وقوله : « لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ، وقوله :
« أفمن يخلق كمن لا يخلق . ، ، وقوله : « أم خلقوا من غير شيء أم هم
الخالقون . ، لكن هذه الآيات لا تفيد في الحقيقة أن الإنسان عاجز عن
الخلق على وجه الإطلاق ، بل تدل على أنه من المستحيل أن تنسب فكرة
الخلق إليه وإلى الله تعالى بمعنى واحد . لأن الله يخلق من العدم وفي غير
زمان ؛ بينما يستطيع الإنسان أن يخلق بمعنى آخر ، وهو أن يستخدم المادة
المخلوقة لصنع أشياء في أزمان محدودة .

أما الأدلة العقلية التي اعتمد عليها الأشعرى فتتلخص في أن الله إذا كان
لا يطلع عباده على شيء إلا كان عالماً به ، فكذلك لا يقدرهم على شيء إلا وهو
قادر عليه . وإذا قال المعتزلة إن الكافرين قادرون على الكفر ، والله
غير قادر عليه ، فقد زادوا على المجوس ؛ لأنهم يقولون معهم إن الشيطان
يقدر على الشر ، والله لا يقدر عليه . كذلك لو استطاع الإنسان أن يخلق
أفعاله لاستطاع أن يخلق غيرها ، بما قد يؤدي إلى فساد العالم . ولن نستطرد
في ذكر أمثال هذه الأدلة التي نشترك جميعها في أساس واحد خاطيء ،

وهو المائلة بين فكرة الخلق الإلهي وفكرة الخلق الإنساني ، وهي تلك
الفكرة التي سنعود إليها بشيء من التفصيل .

الماتريزية :

يقول أبو منصور الماتريدي إنه يتفق مع أبي حنيفة في إنكار مذهب
المعتزلة في خلق الأفعال ، وإنه يرى رأيه في أن قدرة العبد تصلح للضدين
كالطاعة والمعصية ، وأن العبد مختار في توجيه هذه القدرة ، وما دام
الإنسان مخلوقاً لله فأفعاله مخلوقة له أيضاً . وعلى ذلك لجميع أفعال العباد
من حركة وسكون وطاعة ومعصية كسبهم على الحقيقة ، ولكنها مخلوقة
لله . ولكن الخلاف بينه وبين المعتزلة ليس في رأينا سوى خلاف لفظي ؛
لأن الله إذا كان خالقاً للعبد فهو يخلق قدرته أيضاً ، وهي قدرة غير محددة ،
أي تصلح للأضداد . والعبد هو الذي يستخدمها . وإذن فالفارق الوحيد
هو أنه يقول لمن العبد يكسب أفعاله ، والمعتزلة ترى أنه يخلقها . فتثار
الزاع كله هو كلمة خلق والخلق له معنيان : خلق من العدم ، وهوقة وحده ،
وخلق من مادة سابقة وفي شروط محددة ، وهو للإنسان . وإذن فلا أهمية
لاختلاف المصطلحات مادام المعنى واحداً ، وما دام الماتريدي قد اهتدى
في نهاية الأمر إلى التفرقة بين معنيي الخلق . ومع هذا الاتحاد العميق بين
الفريقين ، فإن الماتريدي قد رأى ضرورة البرهنة على فساد رأى المعتزلة .
وله في ذلك أدلة كثيرة ، سنعرضها بإيجاز ونشفع كل دليل منها برده :

١ - إن الإنسان لا يعلم جميع أفعاله وتفصيلها . فلو جاز له أن
يكون خالقاً لأفعاله لجاز لمن لا يعلم الأشياء ومقاديرها أن يخلق العالم
على ما هو عليه .

ونملك نتيجة غريبة ؛ إذ ما الصلة بين علم الله وعلم الإنسان ؟ وهل

الخلق بمعنى واحد في كلتا الحالتين ؟ ولماذا نمانح هنا بين الله والإله حتى يجوز لنا القول بأن الإنسان إذا خلق أفعاله كان قادراً على خلقه ؟

٢ — إن الأفعال الإنسانية توصف بالحسن أو القبح ، مع أن الإله لا يعرف مقدار الحسن والتبجح فيها . على وجه التحديد ، وقد يقع على غير تقديره . فهذا دليل على أنه لا يخلق أفعاله .

ويعتمد هذا الدليل على نفس الأساس الخاطئ الذي اعتمد سابقه ، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على قصور علم الإنسان بالقوى التي وضعها الله في الكون ، وعلى أن قدرته محدودة .

٣ — يقصد الإنسان بأفعاله تحصيل اللذة والابتعاد عن الألم لكننا نشاهد أن أفعاله قد تجري على غير ما يريد . وهذا دليل على الألم واللذة ليسا من صنع العبد ؛ بل لا بد لهما من خالق غيره ، وهو الله ويمكن نقض هذا الدليل بأن اللذة والألم أفعالا تتم لهما ، وقد يـ الإنسان على وجه التحقيق ، ولكن لا ريب في أنه هو الذي للأفعال التي قد تؤدي إلى ما يريد ، أو إلى عكس ما يريد .

٤ — لقد أجمع المسلمون ، قبل المعتزلة ، على أن الله خالق كل شيء وهذا دليل ضعيف ، ولا يغني فيه الإجماع ؛ لأنه يقوم على الخلط بين فكرة الخلق الإلهية وفكرة الخلق الإنسانية ،

٥ — إن قدرة العبد ناقصة فإذا كان الله غير قادر على أفعال فقدرته ناقصة أيضا .

ويمكن الرد على هذا الدليل بأن العبد إذا فعل أحد أمرين يمكنين هو الذي خلق شروط كل منهما . فأيهما فعل العبد فآله قادر ، ولا قدرة الله أن تكون قدرة العبد ناقصة .

٦ - إذا خرج شيء من المقدورات عن أن يكون مخلوقا لله فكيف يمكن الإيمان بوعده ووعيده ، وهو لا يقدر على أفعال مخلوقاته ، ولو كانت بعوضا ؟ .

وهذا نوع من السفسطة ؛ لأن إثبات أفعال العبد للعبد ليس معناه إنكار قدرة الله الذى يخلق كل الأشياء ، ومنها قدرة العبد والشروط المادية التى تعد مسرعا لأفعاله .

٧ - الله مالك كل شيء . وإذن وجب أن تكون له القدرة على كل شيء . ويستحيل عقلا أن يكون مالكا لما لا يقدر عليه ولا يخلقه . ولو كان غير خالق لأفعال العباد لما كان مالكا لكل شيء .

وهذا تكرار للدليل السابق ، وهو مردود مثله ؛ لأن الله يخلق قدرة العبد على اختيار أفعاله . فأفعال العبد تقع إذن فى ملك الله ، أى داخل الحدود والشروط التى خلقها .

٨ - إن قدرة العبد مخلوقة لله ، والعبد قادر بإقدار الله له ، وإذن يستحيل أن يصدر منه فعل بغير قدرة الله . فالله خالق لأفعاله .

ونزد على هذا الدليل بأنه لا يلزم من خلق القدرة للعبد خلق الفعل نفسه ؛ لأن القدرة تصلح للضدين ، كما يعترف الماتريدى . فإذا فعل العبد أى الضدين وقع فعله داخل الحدود التى خلقها الله . فالعبد يخلق أفعاله بالمعنى الإنسانى للخلق ، لا بالمعنى الإلهى .

٩ - العالم مكون من أجسام وأعراض ، ولو جاز لغير الله أن يخلق الأعراض لكان مشاركا لله فى أفعاله ، وهذا يناقض الوحدةانية .

وهذه سفسطة أيضا ؛ لأن الماتريدى لا يفرق بين الخلق بمعنييه . فالعبد لا يخلق الأجسام والأعراض من العدم ، وإنما يؤلف بينها مختارا قادرا . وهذا هو ما تشهد به البدهاة الحسية .

١٠ — الإيمان أحسن الأفعال فلو قلنا إن الله لا يخلق له لترتب على ذلك أن يسكون المؤمن أحسن خلقاً من الله ؛ لأنه خلق الحسن ، بينما خلق الله الجوراء الخبيثة ، وعلى ذلك يكون العبد أفضل في الخلق من الله .

والرد على هذا الدليل يسير ؛ إذ لا يلزم من أن العبد يخلق فعلاً حسناً أن الله يجب عليه أن يخلق القبيح ؛ ثم إن العبد يختار بقدرته بين حسن وقبيح مخلوقين .

١١ — إن الله يوجب الشكر على الإيمان . فإذا لم يكن خالقاً للإيمان فما وجه شكره وحمده ؟ .

وليس هذا الدليل أسعد خطأ من سابقه ؛ لأن الشكر ليس على الفعل ، وإنما هو على القدرة المخلوقة التي تصلح للضدين ، أى للكفر والإيمان . وقد اعترف الماتريدى ، فيما مضى ، أن الله لا يريد لعباده الكفر . فاختيار الإيمان لا ينفي خلق القدرة ، كما أن اختيار الكفر لا ينفي أن العبد يخلق أفعاله ، وإلا لكان الله سبحانه ظالماً ، كما يقول الماتريدى نفسه .

١٢ — لو كان العبد هو الذى يخلق أفعاله لكان أعظم قدرة من الله ، وللزم أن يكون مختاراً ، والله غير مختار .

ومن قال هذا ؟ إن فعل العبد ليس دليلاً على أنه أعظم قدرة من الله ؛ لأنه إنما يفعل ، كما قلنا ، فى حدود ما خلق الله . هذا إلى أن الماتريدى يخلط هنا بين فكرة الخلق الإنسانى والخلق الإلهى . ثم كيف يأخذ هذا المفكر على المعتزلة أنهم يقولون باختيار العبد ، مع أنه يسلم به أيضاً ؟ وأخيراً فليس اختيار العبد لفعل ما دليلاً على أن الله مجبور ؛ لأن العبد لا يمنع الله من سلك الحدود التى يدخل فعله هو فى نطاقها .

كذلك استدلل الماتريدى أيضاً ببعض الآيات القرآنية ، كما سبق أن

وأينا ذلك لدى الأشعرية وأهل الجبر المحض . لكن يمكن تأويل هذه الآيات جميعها على أساس مناقشتنا للأدلة العقلية السابقة .

• • •

من هذا كله يتضح لنا أن الخلاف بين الماتريدي والمعتزلة خلاف لفظي ، وأن سيئه يرجع إلى عدم تحديد معنى الخلق بالنسبة إلى كل من الله والإنسان . غير أننا نعترف ، من جانب آخر ، أن الماتريدي كان أكثر فطنة من المعتزلة والأشعرية ، عندما اهتدى بنفسه إلى سبب هذا الخلاف ، ففرق أخيراً بين الخلق بمعنييه . وذلك أنه يرى ضرورة التفرقة بين الخلق أو الإيجاد وبين قدرة الكسب . فالإنسان يكتسب ما يختاره ؛ لأنه لا تلك إخراج شيء من العدم إلى الوجود . وهذا مالا سبيل إلى إنكاره . لكن الماتريدي سمي فعل الإنسان كسباً وسمته المعتزلة خلقاً ، وكلاهما لا يدعى أن الإنسان يخلق الأشياء من العدم . فسواء بعد ذلك أن تختلف المصطلحات ، ما دام مدلولها واحداً .

وقد ارتضى الماتريدي أيضاً رأى المعتزلة عندما أكد ، على خلاف الأشعرية ، أن قدرة العبد سابقة للفعل ومقارنة له . لكنه يعود فيميل ، مرة أخرى ، إلى جانب الأشعرية ، فيقول إن القدرة المقارنة تخلق وقت الفعل ، أي أنها مخلوقة باستمرار . والاولى أن يقال إنها خلقت مرة واحدة ثم تستنجم في مختلف الأفعال . لكنه آثر القول بتجدد القدرة لسبب أخلاقي ، وهو أن الحكمة تقتضى أن يتجدد شعور العبد بحاجته إلى ربه في جميع حرركاته . وفي الواقع ليس الأمر كذلك دائماً . فكثيراً ما يفعل المرء ، دون أن يكون فعله مصحوباً بهذا الشعور ، وبخاصة إذا كان فعله لا يرضى الله .

ثم إن الماتريدي قد وافق المعتزلة على القول بوجود القدرة على الصدين

لدى الإنسان ؛ في حين أن الاشعرية يرون أن هناك قدرة للطاعة وأخرى
للمعصية . ولذا يعد رأى الماتريدى محاولة حقيقية للوصول إلى رأى المعتزلة .
لأنه عندما يؤكد وجود القدرة على الضدين فذلك لأنه يريد تقرير أصل
من أصول المعتزلة ، وهو التكليف بما يطاق . فالعبد مكلف بالإيمان لأنه
قادر على الكفر والإيمان . أما الاشعرية فإنهم لما قالوا بالقدرة الواحدة
اضطروا إلى التسليم بجواز تكليف الإنسان بما لا يطيقه .

لكن قد يقال : حقاً إن الماتريدى ، وإن خالف الاشعرية في هذه
المسألة ، فإنه لم يرتض فكرة المعتزلة بخدافيرها . وعندئذ لا يعوزنا الدليل
الحاسم على أنه معتزلى تمام الاعتزال في هذه المسألة ، رغم محاولة الخروج
أعلى أصولهم المقررة . ذلك أنه لما عرض لمشكلة القضاء والقدر في موطن
آخر ، اعترف بأن العبد مختار ، ومستول عن اختياره ، لأن علم الله لا يجبره .
وإذا أردنا نصاً صريحاً على أنه قد تراجع في مسألة خلق الأفعال فلن نجد
نصاً أكثر صراحة من النص الآتى . وهو : « إن خلق الأفعال وتقديرها
ليس كخلق سائر الجواهر والأعراض والأوقات والامكنة التى تقع فيها
الأفعال . ثم هو يعترف من جانب آخر بأن علم الله بما سيقع من العبد لا يؤثر
في وقوع أفعاله . فن الواضح إذن أنه إذا كان هناك فارق بين الماتريدى
وبين المعتزلة ، في هذا المقام ، فهو أن الأول يحمل علم الله متوقفاً على اختيار
العبد ، بينما يجعل المعتزلة اختيار العبد متوقفاً على القدرة التى منحها له ربه .
غير أن هذا الفارق لا يهدم الوحدة العميقة في التفسير بينه وبينهم .

١١٦ - ابن سدر :

لم يتحايل هذا الفيلسوف على حل مشكلة القضاء والقدر ، ولم يستخدم
طرق الجدل التى رأينا أمثلة لها عند الفرق الكلامية السابقة ؛ بل أثر
أن يواجه المسألة ، وأن يعحص جميع عناصرها . فإن استطاع أن يهتدى

إلى حل منطق لها قنع به ، وإلا اعترف بعجزه عن الغلبة عليها . لذا نراه يسلك مسلكاً مستقراً^(١) . فيبدأ باستعراض الأدلة الشرعية والعقلية التي تشهد لكل من القائلين بالجبر المحض ، أو بالاستطاعة الكاملة . وقد جاء أن هناك تعارضاً قوياً بين أدلة كل فريق . ففي القرآن العزيز آيات تدل على الجبر ، وأخرى لا تقل عنها صراحة في تأكيد الاختيار . مثال الآيات الأولى قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، وقوله : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » ، وقوله : « وكل شيء عنده بمقدار » . ومثال الآيات الثانية قوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ، وقوله : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وأكثر من هذا ، يتفق أن تحتوى الآية الواحدة على تأكيد لهما الرأيين المتناقضين كقوله تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير » ، وقوله : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، كذلك يوجد مثل هذا التضاد في الأحاديث النبوية ، كالتضاد في قوله عليه السلام ، كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، ، وقوله حكاية عن ربه « خلقت هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون » ، وخلقت هؤلاء للنار ، وبأعمال أهل النار يعملون .

تلك هي حال الأدلة السمعية . ولا تختلف عنها في ذلك الأدلة العقلية ؛

(١) هذا دليل على أن منهج ابن رشد ليس منهجاً أرسطوطاليسياً ؛ بل هو المنهج العلمي الصحيح ، الذي ندمه منهجاً يتفق مع العقلية الغربية والإسلامية .

لذا التعارض واضح كل الوضوح بين رأيي القائلين بالاختيار ورأيي القائلين بالجبر المحض . فلو كان العبد هو الذي يخلق أفعاله لكانت إرادة الله وقدرته محدودتين ؛ لأنهما لا تنطبقان إحداهما على أفعال الإنسان . وهذا يخالف لما أجمع عليه المسلمون من أن الله خالق كل شيء . ومن جهة أخرى لو قلنا إن الإنسان يعجز عن خلق أفعاله لاسمى بنا ذلك الإنكار إلى مازق ، وهو كيف يكون هذا الإنسان العاجز أهلاً للتكليف بأوامر الشرع ونواهيه ؟ وكيف يعقل أن يجبر على فعل ، ثم يثاب أو يعاقب عليه ؟

وهذا التعارض أو التضاد هو الذي كان سبباً في الخلاف بين المعتزلة ومن يرى رأيهم من جانب ، وبين الجهمية والاشعرية من جانب آخر . وهو نفس التعارض الذي فطن أبو الوليد إلى أنه لم يأت عبثاً أو صدقة ؛ بل كان مقصوداً من الشارع لكي يوحى إلى العلماء ، القادرين على فهم الكتاب والسنة فهماً صحيحاً ، بالحل الذي يجب أن يذهب الشبهة التي ربما فرقت بين أهل الجدل ، والتي فرقت بينهم بالفعل .

وهذا الحل الصحيح هو الذي كادت تقع عليه المعتزلة عندما نصت على أن الله يخلق للعبد قدرة على الضدين . فهذه القدرة في رأي أبي الوليد ليست مطلقة ، كما يتوهم أنصار الاختيار المطلق ، وإنما هي مقيدة بالأسباب الخارجية التي أودعها الله في الكون . وهذه الأسباب قد تساعدنا على إتمام أعمالنا ، وقد تقف في سبيلها ؛ بل تجبرنا في بعض الأحيان على أفعال معينة نعجز عن القيام بأضدادها ، وهي تلك الأفعال الاضطرارية كالسعال والتثاؤب ، والحرب أمام الخطر ، وضيق الحدة ، وغير ذلك من الأفعال المنعكسة . لكن هناك أفعالاً اختيارية ؛ لأننا نتردد بين أمرين ممكنين أو أكثر ، ثم نختار أحدهما . وتتوقف هذه الأفعال أيضاً على الأسباب الخارجية . ومتى اخترنا فعلاً محددًا كانت حريتنا كاملة

وعلى هذا، فهناك أساس معقول ومنطقي للتكليف والعقاب أو الثواب .
وهكذا ينتهى ابن رشد إلى أن الجبر لا يمكن أن يكون محضاً ، وأن
الاختيار لا يجوز أن يكون مطلقاً ؛ بل الحق هو فى التوسط بين هذين
الرأىين ، وذلك بأن نقرر أن أفعال الإنسان ليست اختيارية تماماً ،
ولا اضطرارية تماماً ، وإنما تتوقف على عاملين : إرادته حرة ترتبط فى
الوقت نفسه بأسباب خارجية تجرى دائماً على نمط واحد . (١) وهذا
هو ما يميل إليه العلم الحديث الذى لا ينق حرة الاختيار ، والذى يعترف
بوجود القوانين المطردة فى الطبيعة . (٢)

(١) لقد عرف بعضهم الفعل الإرادى بأنه الفعل الحر ، وبين أن هناك مراتب للعمل
الإرادى . وأسمى هذه المراتب هى تلك التى تتدخل الإرادة فى أثناء الفعل فتوجهه وتخلق
الظروف التى تساعد على تحقيقه . ويمكن التمثيل لتلك بحرية القائد فى توجيه المعركة وتعديل
ظروفها فى أثناء تحقيقها بالفعل .

(٢) أراجع إلى رأى ابن رشد بالتفصيل فى كتابنا « ابن رشد وفلسفته الدينية » ط .
الإنجلو المصرية . سنة ١٩٦٤ . ص ١٤٣ - ١٩٤

١٣ - خاتمة

إذا نحن أردنا أن نجعل نتائج هذا البحث في جمل قليلة ، تكشف لنا عن قيمة الآراء الدينية لدى كل مدرسة من المدارس الكلامية الثلاث الكبرى ، استطعنا أن نؤلف بين آراء كل مدرسة منها ، ثم نقارن بينها وبين آراء المدرستين الآخرين .

١ - فهناك مدرسة ^{المدرسة الأشعرية} أخطأت في برهنها على وجود الله ؛ إذ لم ترتض الأدلة العقلية التي جاء بها الشرع ، واستعاضت عنها بدليلين جدليين يثيران كثيرا من الشبه ، وهما دليل الجوهر الفرد ودليل الواجب والممكن . ولم تكن أحسن حالا في محاولة البرهنة على الوحدةانية ؛ لأنها لما أرادت استنباط أدلتها من آيات القرآن أساءت فهم هذه الآيات ، ولجأت إلى الجدل والتفريع في غير ما يحدى . ثم عرضت لمشكلة الصفات ، فابتدعت رأيا لم يقل به السلف ، وهو أن صفات الله زائدة على ذاته ، أولا هي هو ولا هي غيره . والرأي الأول ضعيف لأنه يماثل بين الله والإنسان ، والرأي الثاني لا معنى له ؛ هذا إلى أنه يحتوى على تناقض لا سبيل إلى رفعه . ثم فرقت هذه المدرسة بين صفات الذات كالعلم والإرادة وبين صفات الأفعال كالإحياء والإماتة ، وقالت إن الأولى قديمة والثانية حادثة ، وهذه بدعة أخرى . وقد حاولت إنكار الجسمية عن الله سبحانه ، وترددت في أن يكون الله في جهة محددة ، ثم أثبتت إمكان رؤية المؤمنين له في الآخرة ، فتناقضت في ذلك ما قالته منذ لحظة ، وهو أن الله ليس بجسم . وخالفت الحس والعقل عندما قالت بإمكان رؤية الأصوات ، وسماع الألوان . كذلك كونت لنفسها فكرة غريبة عن إرادة الله ؛ فظنت إن الإرادة المطلقة تتجلى في أن يكون الله مستبدا جاثرا . ثم أنكرت أن تكون

أفعاله لغرض أو غاية ، أو منفعة أو مصلحة لعباده ، مادامت إرادته شاملة . وقد أنكرت ضرورة وجود الغاية والحكمة والصلاح في العالم . وهي تحقر من شأن العقل في التفرقة بين الحسن والقيح ، وتزعم أن الشرع لو مدح الكذب لمكان حسناً ، ولو ذم الصدق لمكان قبيحاً . كذلك نفت هذه المدرسة أن يكون للفرد حرية واختيار وقدرة على خلق أفعاله . ومع ذلك ، فهي ترى أنه من الممكن أن يكلف الإنسان بما لا يطيق ، كأن يكلف الكافر بالإيمان ، مع عدم استطاعته له بناء على إرادة الله ومشيئته . وأخيراً أجازت أيضاً أن يثيب الله العاصي ويعاقب المؤمن ، وألا يرسل الرسل ، وأن يريد الله الشر والسفه والكفر والظلم لعباده ، إلى غير ذلك مما لا يطمئن عقل ولا شرع .

إن هذه الآراء التي قد تثير حفيظة كثير من النفوس هي آراء الأشعرية ، وهي الطائفة التي يظن أو يقال إنها تمثل رأى أهل السنة ، وتعبر عن وجهة النظر الإسلامية التقليدية ، وفي رأينا أنه ينبغي إعادة النظر في هذه القضية الأخيرة للتقريب بين وجهات النظر الإسلامية والعودة إلى فهم العقائد فهمها يتفق مع روح الدين الواضح السمع .

المستخلص

ب - وهناك مدرسة أخرى لم تحسن البرهنة ، هي الأخرى ، على وجود الله ولا على وحدانيته ، ولكنها افترقت عن الأشعرية في أمور عديدة ، فقالت ليس من الممكن المائلة بين صفات الله وصفات الإنسان . فالصفات الأولى ليست شيئاً زائداً على ذاته تعالى ، وإلا كان هناك موصوف وصفات أوجوه وأعراض ، وهذا هو معنى التركيب الذي يجب أن ينزه الخالق عنه . لكنها افترقت أيضاً بين صفات الذات وبين صفات الأفعال ، كالمدرسة السابقة ، فقالت بقدّم الصفات الأولى ، وحدوث الثانية ، ف وقعت في البدعة ، وخالفت ما جرى عليه السلف . أما رأيها في

القرآن فهو أنه مخلوق ، على عكس ما يزعم الأشعرية وغيرهم من أهل الظاهر الذين ذهبوا في علومهم كل مذهب . كذلك خالفت الأشعرية في فكرتها عن إرادة الله . فهي تعتقد أن هذه الإرادة ليست مستبعدة جائرة ؛ لأن أفعال الله تتصف بالحكمة والعناية . ثم أنكرت الجسمية والجهة والرؤية ، فكانت أكثر منطقاً مع نفسها من المدرسة المناهضة لها . وقد نزهت الله أن تكون أوامره ونواهيه غير جارية على أسس العقل في التفرقة بين الخير والشر ، والحسن والقبيح ، والعدل والظلم . فالله يفعل الأصالح لعباده ، ولا يريد الشر لهم أو السيف . والعبد حر الإرادة قادر على اختيار أفعاله والقيام بها . ولذا فن المعقول أن يثاب أو يعاقب على فعله مادام قد أراد مختياراً . كذلك لا يجوز عقلاً أن يكلف الله الناس بما لا يطيقون . وأخيراً ، رأى هؤلاء القوم أنه لا يجوز على الله أن يخلف وعده أو وعيده فيعاقب المؤمن ويثيب العاصي . كذلك قالوا بضرورة إرسال الرسل لطفاً بالعباد ؛ وذلك لقصور العقل عن الاهتداء إلى جميع أوجه الخير والحق من تلقاء نفسه ؛ بينما كان يقول الأشعرية إنه من الجائز ألا يرسل الله الرسل . إن تلك الآراء السابقة التي تجد ، دون ريب ، قبولاً لدى العقل ، والتي لاتعدم أن تجد أدلة شرعية تشهد بصحتها ، هي آراء المعتزلة الذين يوصفون عادة وظلماً بالمروق أو الزيف ، أو الذين وصفهم الأشعرى ، في الأقل ، بأنهم أهل كفر وزندقة . وتلك قضية أخرى يجب أن نعيد النظر فيها من جديد ؛ لأنها تسمى إلى أكبر مفكرى الإسلام ، فتنسب إلى الإسلام نفسه . الماتريدية

ح - أما المدرسة الكلامية الثالثة فهي المدرسة الماتريدية التي أرادت أن تقرب بين المعتزلة والأشعرية ، وأن تطهر آراء الفرقة الأخيرة من الغلو الذي يشوه فكرتها عن إرادة الله وعدله وحكمته . وميطن عادة أن الأشعرية والماتريدية يمثلان فريق أهل السنة ، وأنهما فرسا رهان

يسيران جنباً إلى جنب في هدم آراء المعتزلة المبتدعة . تلك هي الفسكرة السائدة ، وليست كل الأفكار السائدة صادقة ؛ بل إن أضعف الآراء يبدو في مظهر الحقائق المسلم بها كلما طال الزمن ، وغلبت روح التقليد التي تعنى صاحبها من البحث ، والتي تتيح له أن يزهى بآراء لا يفهمها ، وقد ينكرها إذا فهمها .

ولسنا من هؤلاء الذين يعرفون الحق بالرجال ، وإنما يعرفون الرجال بالحق ، أى أننا لانسلم بصدق الرأى تقليداً ؛ بل عن سبيل الاقتناع ، فإذا بدا لنا فساد رأى نهنا إليه ، ودعونا الناس إلى وجهة نظرنا . هذا إلى أنه إذا تبين لنا خطأنا فإننا أسرع الناس عودة عنه ورجوعاً إلى الحق . أما في هذه المسألة التي نحن بصدددها فقد تبين لنا أن وجه الحق فيها ينحصر في أن الماتريدية كانوا أقرب إلى المعتزلة ، وإلى روح الإسلام أيضاً ، من الأشعرية .

حقاً إنهم يتفوقون مع الأشعرية في مسائل قليلة ليست بالجوهرية . فمن ذلك أنهم يهجون مثلهم منهجاً وسطاً بين العقليين والنقليين ، ولا يستنكر كل فريق منهما النظر في العقائد . وهذا أمر يتفق معهم فيه المعتزلة إلى حد كبير . ثم يثبت الماتريدى الصفات الأزلية ، ويقول إنها زائدة على الذات مع إنكار التشبيه والتجسيم . ومع هذا ، فليس الاتفاق هنا كاملاً : لأن الماتريدى يقول بقدّم الصفات جميعها ، سواء أكانت صفات ذاتية أم صفات أفعال ؛ في حين أن الأشعرى يقول بحدوث الصفات الأخيرة . وقد لاحظنا أن جميع المسائل التي يخالف فيها الأشعرية هي في الواقع نفس المسائل التي يراضى فيها رأى المعتزلة :

١ — من ذلك مسألة الحسن والقيبح . فالأشعرية تقول إنهما اعتباريان ، ويقول الماتريدى والمعتزلة إنهما ذاتيان .

٢ — ومن ذلك أيضاً أنه خالف الأشعرية في إمكان سماع السلام النفسى القديم لله تعالى، فأفكره الماتريدى كما فعل المعتزلة، وأجازه الأشاعرة.

٣ — ومن مسائل الخلاف مسألة قدرة العبد : ألها تأثير في الفعل أم لا ؟ فالماتريدى والمعتزلة يقررون وجود هذا التأثير . أما الأشعرى فينص على أن قدرة العبد وإرادته لا أثر لهما في الفعل .

٤ — كذلك قال المعتزلة والماتريدى إن للعبد قدرة تصلح للصديق ، بينما تقول الأشعرية : إن له قدرة لكل ضد على حدة .

٥ — وهو يوافق المعتزلة في أن الله لم يخلق الخلق عبثاً ، وأن أفعاله لا تخلو من الحكمة . أما الأشعرية فيقولون إن الله يفعل ما يشاء ، ولا يقبح منه شيء ، ولا غرض لفعله ، وليس له غاية يقصدها . والحق أن فكرة الأشعرية عن الله هنا في غاية القبح . ولذا فإن العقلاء من المسلمين من أمثال الماتريدى ومحمد عبده وغيرهما يميلون إلى رأى المعتزلة .

٨ — يرى الماتريدى رأى المعتزلة في ضرورة تكليف الناس باتباع الشرائع ، وذلك لقصور العقل الإنسانى . أما الأشعرية ، الذين قد يستخدمون العقل أحياناً ، فإنهم يقولون هنا : يجوز لله ألا يكلف عباده . وليس الخلاف بين الماتريدى والمعتزلة في هذه المسألة إلا خلافاً لفظياً ، فإنهم يقولون بوجوب التكليف . أما هو فيعبر عن ذلك بقوله : لزوم التكليف . فهو أكثر منهم تأديباً .

٩ — تقول المعتزلة بعدم جواز خلف الوعد والوعيد ؛ إذ لو جاز ذلك ، لكان معناه أننا نقول بجواز الكذب والجور والسفه عليه سبحانه . وقد ترتب على هذا الخلاف بين المعتزلة والأشعرية في مسألة تعذيب المؤمن وإثابة العاصى . فقال الأولون لا يجوز ذلك مطلقاً ؛ لأنه قبيح في نظر العقل ؛ بينما ذهب الآخرون إلى إمكانه ، لأن ما يفعله الله لا يوصف

بالقيح أو الجور . أما الماتريدي فيرتضى رأى المعتزلة ويقول : ليس هذا من الجائز عقلاً ولا شرعاً .

١٠ - يوافق المعتزلة أيضاً في مسألة المصالح والإصاح ، وإن اختلف عنهم في اختيار مصطلحات جديدة ، فقال بضرورة العدل والفضل منه تعالى رعاية لعباده . وهذا على نقيض ما يراه الأشعرية .

١١ - كذلك يوافق المعتزلة في مسألة إرسال الرسل . فمؤلاء يقولون برجوبها ، وترى الأشعرية أن بعث الرسل جائز ، وليس بمحال ولا واجب . أما الماتريدي فيقصد إلى نفس المعنى الذى عبر عنه المعتزلة ، ولكنه يعبر عنه بصيغة أكثر تأدباً ، فيقول بضرورة إرسال الرسل .

١٢ - ونقطة أخرى ينصر فيها الماتريدي المعتزلة على الأشعرية ، وهى مسألة المعجزات : أمى الدليل الأول ، أم هناك دليل أكثر قوة منها على صدق الرسول ؟ أما الأشعرية فيرون أنها هى كل شىء ، إذ يقول إمام الحرمين لادليل على صدق النبي غير المعجزة . لكن المعتزلة ومعهم الماتريدي يجعلون المعجزات فى الدرجة الثانية : ويجعلون المقام الأول لأخلاق الرسول وتعاليمه . وهذا هو الرأى الذى يرتضيه ابن رشد أيضاً .

ولو تتبعنا تفاصيل المذهبين لوجدنا أنهما يتفقان فى كثير من المسائل الفرعية . غير أن هذا يمكن أن يكون موضوعاً لبحث آخر . وقد رأينا ألا نستطرد إليه فى هذا الموطن الذى نعتى فيه بالأصول العامة ، لا بالتفاصيل الجزئية .

أما مسألة الخلاف الوحيدة الحقيقية ، بينه وبينهم ، فهى مسألة المنزلة بين المنزلتين : أى أيخلد صاحب الكبيرة فى النار أبدأ أم يعفو الله عنه ؟ لقد قال المعتزلة إن المؤمن الذى يرتكب الكبيرة ليس كافراً وليس مؤمناً ؛ بل هو فى منزلة بين هاتين المنزلتين وجزاؤه النار ؛ وعذابه فيها أقل من

عذاب الكافرين ، ويرى الماتريدي أنهم ، بقولهم هذا ، قد يسووا من روح الله الذي قد يغفر لعباده كل شيء ما دون الإشراك به .^(١) وينبني الخلاف بين الماتريدي والمعتزلة هنا على رأى كل فريق فى الصلة بين الإيمان والعمل : هل العمل جزء متمم للإيمان أم لا ؟ ففى رأى المعتزلة أنه متمم له . وهذه نقطة خلاف حقيقية . أما أوجه الخلاف الأخرى فهى لفظية وشكلية . مثال ذلك مسألة رؤية الله فى اليوم الآخر . فإن الماتريدي يرجع فى آخر الأمر إلى رأى المعتزلة فيها . وفى مسألة الصفات الإلهية نراه يتأرجح بين رأى الأشعرية والمعتزلة ، ثم يضيق صدره بالبحث فى هذه المسألة ، فيعود إلى ما يقرب من رأى السلف ، ويقرر أنها صفات الله ، ليس عن هذا مجاوزة ، . والحق أن البحث فى مسألة الصفات الإلهية كان بحثاً عقيماً ، ينحصر أساس الاختلاف فيه فى أن أحد الفريقين يلتزم وجهة نظر إنسانية ، والآخر لا يلتزمها . فن قال بتعدد الصفات سلك مسلك التشبيه ، ومن سوى بينها وبين الذات نهج منهج التنزيه . ومثل هذا القول يمكن أن يقال فى معظم أوجه الخلاف الثانوية بين الماتريدي والمعتزلة .

أما ابن رشد فقد استطاع تصحيح آراء المعتزلة ، وانتهى بأن برهن على جميع العقائد الإسلامية برهنة سليمة ، بحيث لم نأخذ عليه رأيه إلا فى مسألة واحدة ألزم فيها ظاهر الشرع ، وخالف فيها معظم المتكلمين ، وهى مسألة الجهة بالنسبة إلى الله ، وهى فى الحق مشكلة غاية فى الدقة .

(١) هذا هو ماذهب اليه الإمام النزالي فى كتابه القيم "فصل فى الفرق بين الإسلام والزندقة"

١٤ — تحقيق النص

كنا قد اعتمدنا في تحقيق نص كتاب الكشف عن مناهج الأدلة ، في طبعته الأولى ، على النسخ الآتية :

١ — مخطوط رقم ١٢٩ (حكمة) من المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية .

٢ — مخطوط رقم ١٣٣ (حكمة) من المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية .

٣ — نسخة نشرها د . م . ج . مولر ، بميونخ سنة ١٨٥٩ ، تحت عنوان : Philosophie und Theologie Von Averroes (M. j . : Muller, 1859 .

لكن اهتدينا إلى مخطوط جديد مصور من مكتبة الاسكوريال تحت رقم ٦٣٢ (Escorial, cod. 632) . وقد رأينا أن نجعل المصورة المأخوذة عن هذا المخطوط أصلاً في التحقيق ، نظراً لأن هذا المخطوط أقدم المخطوطات التي عثرنا عليها ، وأكثرها دقة ، وسنرمز إلى الصورة بالرمز « س » ؛ في حين سنرمز إلى المخطوط رقم ١٢٩ بالحرف « أ » ، وإلى المخطوط رقم ١٣٣ بالحرف « ب » .

وصف مخطوط « س » من الاسكوريال :

قبل وصف هذا المخطوط ، ينبغي أن أتقدم بشكري الخاص إلى صديق وزميلي الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة ، أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة عين شمس ؛ فقد تفضل بأن مكنتني من أخذ مصورة من ميكروفلم هذا المخطوط ، كما تكرم بأن أباح لاسكوية دار العلوم أن تأخذ ماشاءت من صور لميكروفلومات أخرى عديدة . ولاني لمدين

له بالشكر على هذه الأريحية العلمية التي تجاوزت شخصي إلى كلية دار العلوم .

ويرجع تاريخ هذا المخطوط إلى سنة ٨٧٢٤ هـ ، وهو مكتوب بخط أندلسي واضح ، ويمتاز بالدقة ، وهو يحتوي على فصل المقال ، وضميمة في العلم ومناهج الأدلة ، ورسائل أخرى في المنطق لابن رشد . أما الجزء الخاص بمناهج الأدلة فيشغل الصفحات من ٢١ إلى ٧٤ . وقد بحى اسم ناسخه وهو ينتهى بهذه العبارة :

« كمل الكتاب بحمد الله تعالى وحسن عونه وتأيده ومنه على يدى العبد الفقير إلى رحمة مولاه الراجى رحمته ^{بمغفرته} ... لطف الله تعالى به بمنه ورحمته ، وذلك بمدينة المرية ، ^{محظوظ} ~~محظوظ~~ الله تعالى ، صبيحة يوم الاثنين الثاني والعشرين لشهر ربيع الأول عام أربعة وعشرين وسبعمائة ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وخير جليس في الزمان كتاب ، حسبي الله ونعم الوكيل . »

مخطوط ١٢٩

مكتوب بخط عثمانى جميل ، كتبه عبد الله بن عثمان الذى كان قاضياً بالمدينة المنورة . وقد نسخه فى سنة ١٢٠٢ هـ وهو منقول عن نسخة كتبها عبد الله بن عثمان المعروف بمسجى زاده ، وذلك فى أوائل ذى الحجة سنة ١١٣٥ .

وهو مخطوط ردى* لكثرة الزيادات فيه ، كما فى الأوراق : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ؛ ولكثرة ما يسقط من جملة فقراته ، كما فى ورقة ١٠١ إذ تسقط منها فقرة طويلة نجدها بعد ذلك فى ورقى ١١٥ ، ١١٦ .

أما التصحيح فيه فلا يكاد يقع تحت حصر .

هذا لى أن صاحب هذا المخطوط يتحامل على ابن رشد ، فيصفه بأنه من أتباع الباطنية ، وأنه لم يحارب الغزالي إلا لهذا السبب ، وهو أن الغزالي هاجم آراء الباطنية . وقد اعترف مستجى زاده برداءة هذا المخطوط فقال فى خاتمة بالحرف الواحد : « كان أصل هذه النسخة سقيماً ، ثم ضم الكتاب تحريفات وتغييرات زائدة ، وصححتها بقدر الوسع والطوق ، مع غاية السقم والسخافة وبقاء شئ منها على حالها ، وكتبت على بعض المواضع فيها تعليقات على سبيل الارتجال بلا مراجعة كتاب . . . ولم يتفق لى التبييض والتنقيح لضيق الوقت عن ذلك . . . وأنا الفقير إليه سبحانه وتعالى عبد الله بن عثمان المعروف بمستجى زاده . . . »

مخطوط ١٣٣

وهو مكتوب بخط مغربي واضح . ولا يعرف كاتبه ولا تاريخ كتابته ؛ إذ ليست هناك إشارة ما إلى هذين الأمرين . وهو فى ظننا أحدث عهداً من المخطوط السابق ، ويمتاز بالدقة البالغة . وقد اعتمدنا عليه اعتماداً كبيراً إلى جانب مخطوطة الاسكوريال ؛ فقد وجدناه مطابقاً لها وللنسخة التى حققها « مولر » .

النسخة المطبوعة بمصر

ليست دقيقة وتحتوى على أخطاء كثيرة ، وقد سقطت منها أجزاء ، كما هى الحال فى صفحات : ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ . وبها إلى جانب ذلك تصحيف كثير .

مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد

« كتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة »

« وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل »

« من السبب المزيفة والبرع المفضلة »

الفصل الأول

[البرهنة على وجود الله]

١/٢١ بسم الله الرحمن الرحيم ، عونك اللهم يارب ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

قال الشيخ الفقيه العلامة الأوحد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن رشد رضى الله عنه ، ورحمه بمنه . (١)

وبعد حمد الله الذى اختص من يشاء بحكمته ، ووقفهم لفهم شريعته ، واتباع سنته ، وأطلعهم ، من مكنون علمه ومفهوم وحيه ومقصد رسالة نبيه إلى خلقه / ، على ما استبان به عندهم زيغ الزائغين من أهل ملته ، و تحريف المبطلين من أمته ، وانكشف لهم أن من التأويل ما لم يأذن الله ورسوله به ؛ وصلواته التامة على أمين وحيه ، وخاتم رسله وعلى آله وأسرته ؛ فإنه لما كنا قد بينا قبل هذا ، فى قول أفردها (٢) ، مطابقة الحكمة للشرع ، وأمر الشريعة بها ، وقلنا (٣) هناك إن الشريعة قسمان : ظاهر

(١) يبدأ بخطوط « ب » ، رقم ١٣٣ « حكمة » المكتبة التيمورية هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين : قال الفقيه الأجل الأوحد العلامة الصدر الكبير القاضى الأعدل أبو الوليد محمد ابن أحمد بن رشد رضى الله عنه ورحمه . أما بعد »

أما فى خطوط « ح » ، رقم ١٢٩ « حكمة » من المكتبة لتجديدية فيبدأ الكلام بقوله : قال الفقيه الأجل الأجل القاضى الإمام الأوحد فضل الحكماء أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد رضى الله عنه . (٢) يشير ابن رشد هنا إلى رسالته تسمية : فصل فى بيان الشريعة والحكمة من الاتصال ، وهى الرسالة التى يدل فيها على وجوب موافقة العقل للشريعة الإسلامية من الوجه النظرية .

(٣) فى « ا » ، « ب » ، « ج » : قلنا

و مؤول^(١) وإن الظاهر منها هو^(٢) فرض الجمهور ، وإن المؤول^(٣) هو^(٤) فرض العلماء ؛ وأما الجمهور ففرضهم فيه حمله على ظاهره وترك تأويله ، وإنه لا يحسن للعلماء أن يفصحوا بتأويله للجمهور ، كما قال علي رضي الله عنه : « حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » - فقد رأيت أن أحص ، في هذا الكتاب ، عن الظاهر من العقائد التي قصد الشرع حمل الجمهور عليها ، وأنحرى^(٥) ، في ذلك كله ، مقصد الشارع صلى الله عليه وسلم ، بحسب الجهد والاستطاعة ؛ فإن الناس قد اضطربوا في هذا المعنى كل الاضطراب في هذه الشريعة ، حتى حدثت فرق ضالة ، وأصناف مختلفة : كل واحد منهم يرى أنه على الشريعة الأولى ، وأن من خالفه إما مبتدع ، وإما كافر مستباح الدم والمال . وهذا كله عدول عن مقصد الشارع ؛ وسببه ما عرض لهم من الضلال عن فهم مقصد الشريعة .

وأشهر هذه الطوائف في زماننا هذا أربعة : الطائفة التي تسمى بالأشعرية ، وهم الذين يرى أكثر الناس اليوم أنهم أهل السنة ، والتي تسمى بالمعتزلة^(٦) ، والطائفة التي تسمى بالباطنية ، والطائفة التي تسمى بالحشوية .

١ / ٢٧ وكل هذه الطوائف قد اعتقدت في الله اعتقادات مختلفة ، وصرفت كثيراً من ألفاظ الشرع عن ظاهرها إلى تأويلات نزلوها على تلك الاعتقادات ، وزعموا أنها^(٧) الشريعة الأولى التي قصد بالحمل عليها جميع الناس ، وأن من زاغ عنها فهو إما كافر ، وإما مبتدع . وإذا تؤملت جميعها وتؤمل مقصد الشرع ظهر أن جعلها التأويل محدثة وتأويلات مبتدعة . وأنا أذكر من ذلك ما يجري مجرى العقائد الواجبة في الشرع التي لا يتم الإيمان

(٢) سقطت في « أ » ، « ب »

(٤) سقطت في « أ » ، « ب »

(٦) في « د » ، لم تنقل

(١) في « د » : مأول

(٣) في « د » : التأول

(٥) في « د » : وتحرى

(٧) في « أ » : وزعم كل واحد منهم أن عقده هو شريعة حق .

إلا بها ، وأتحدى في ذلك كله مقصد الشارع صلى الله عليه وسلم ، دون ما جعل أصلاً في الشرع وعقيدة من عقائده ، من قبل التأويل الذي ليس بصحيح .

وابتدى^(١) من ذلك بتعريف ما قصد الشارع أن يعتقده الجمهور في الله تبارك وتعالى^(٢) ، والطرق التي سلك بهم في ذلك ، وذلك في الكتاب^(٣) العزيز فلنبتدى^(٤) من ذلك بمعرفة الطريق التي تفضي إلى وجود الصانع ؛ إذ كانت أول معرفة يجب أن يعرفها المكلف . وقبل ذلك ، فينبغي أن نذكر آراء تلك الفرق المشهورة في ذلك فنقول :

أما الفرقة التي تدعى بالحشوية فإنهم قالوا : إن طريق معرفة^(٥) وجود الله تعالى هو السمع لا العقل ، أعنى أن الإيمان بوجوده الذي كلف الناس التصديق به يسكنى فيه أن يتلقى من صاحب الشرع ، ويؤمن به إيماناً ، كما يتلقى منه أحوال المعاد ، وغير ذلك مما لا مدخل فيه للعقل — وهذه الفرقة الضالة الظاهر من أمرها أنها مقصرة عن مقصود الشرع في الطريق^(٦) التي نصبا للجميع مفهومة إلى معرفة وجود الله تعالى ، ودعاهم من قبلها إلى الإقرار به . وذلك أنه يظهر ، من غير ما آية / من كتاب الله تعالى^(٧) ، أنه /^{٢٢} دعا الناس فيها إلى التصديق بوجود الباري سبحانه بأدلة عقلية منصوص عليها فيها ، مثل قوله تبارك وتعالى : يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، الآيات^(٨) ، ومثل قوله تعالى : أفى الله شك فاطر السموات ، إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى .
وليس لقائل أن يقول : إنه لو كان ذلك واجباً على كل من آمن بالله

(١) في «س» : التكب

(٢) في «س» : معرفة طريق

(٣) سقطت في «أ ، ب»

(٤) في «س» : تبرك وتعالى

(٥) في «أ» ، «ب» : ونبتدى

(٦) في «أ» : الطريقة

(٧) في «أ ، ب» : الآية

أعنى أن لا يصح إيمانه إلا من قبل وقوعه عن هذه الأدلة ، لكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعو أحداً إلى الإسلام إلا عرض عليه هذه الأدلة ؛ فإن العرب كلها^(١) تعترف بوجود الباري سبحانه . ولذلك قال تعالى : ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، ولا يمتنع أن يوجد من الناس من تبلغ به فدامة العقل^(٢) وبلادة القرينة إلى أن لا يفهم شيئاً من الأدلة الشرعية التي نصبها صلى الله عليه وسلم للنجمور . وهذا فهو أقل الوجود . فإذا وجد ففرضه الإيمان بالله من جهة السماع . فهذه حال الحشوية مع ظاهر الشرع .

وأما الأشعرية فإنهم رأوا أن التصديق بوجود الله تبارك^(٣) وتعالى لا يكون إلا بالعقل . لكن سلكوا في ذلك طرقاً ليست هي الطرق الشرعية التي نبه الله عليها ، ودعا الناس إلى الإيمان به من قبلها . وذلك أن طريقهم المشهورة انبنت على بيان أن العالم حادث ، وأنبي عندهم حدوث العالم على القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ ، وأن الجزء الذي لا يتجزأ محدث ، والأجسام محدثة بحدوثه . وطريقتهم التي سلكوا في بيان حدوث الجزء الذي لا يتجزأ ، وهو الذي يسمونه الجوهر الفرد ، طريقة معاصرة ، تذهب على كثير من أهل الرياضة في صناعة الجدل ، فضلاً عن الجمهور . ومع ذلك فهي طريقة غير برهانية ، ولا مفهوية بيقين إلى وجود الباري سبحانه^(٤) .

وذلك أنه إذا فرضنا أن العالم محدث لازم — كما يقولون — أن يكون له ولا بد فاعل محدث . ولكن يعرض في وجود هذا المحدث شك ليس في قوة صناعة الكلام الانفصال عنه ؛ وذلك أن هذا المحدث لسنا نقدر أن

(٢) في ١٠ : الطبع
(٤) سقطت في كل من « أ » ، « ب »

(١) في « أ » : كانت كلها
(٣) في « د » : تبرك وتعالى

نجعلهُ أزلِيّاً ولا محدثاً . أما كونه محدثاً فلا نحتاجه يفتقر إلى محدث ، وذلك المحدث إلى محدث ، ويمر الأمر إلى غير نهاية ، وذلك مستحيل . وأما (١) كونه أزلِيّاً فإنه يجب أن يكون فعله المتعلق بالمفعولات أزلِيّاً ، فتكون المفعولات أزلِيّة ، والحادث يجب أن يكون وجوده متعلقاً بفعل حادث ؛ اللهم إلا لو سلموا أنه يوجد فعل حادث عن فاعل قديم ، فإن المفعول لا بد أن يتعلق به فعل الفاعل ؛ وهم لا يسلمون ذلك . فإن من أصولهم أن المقارن للحوادث حادث ، وأيضاً إن كان الفاعل حَيّاً يفعل ، وحينئذ لا يفعل ، وجب أن تكون هنالك علة صيرته بإحدى الحالتين أولى منه بالأخرى . فيسأل أيضاً في تلك العلة مثل هذا السؤال ، وفي علة العلة ، فيمر الأمر إلى غير نهاية .

وما يقوله المتكلمون في جواب هذا ، من أن الفعل الحادث كان بإرادة قديمة ، ليس بمنج ولا مخلص من هذا الشك ؛ لأن الإرادة غير الفعل المتعلق بالمفعول . وإذا كان المفعول حادثاً فوجب أن يكون الفعل المتعلق بإيجاده حادثاً ، وسواء فرضنا الإرادة قديمة أو حديثة ، متقدمة على الفعل أو معه ، فكيفها كان فقد يلزمهم : إما أن يجوزوا على القديم أحد ثلاثة / أمور : ١/٣ إما إرادة حادثة وفعل حادث ، وإما فعل حادث وإرادة قديمة ، وإما فعل قديم وإرادة قديمة . والحادث ليس يمكن أن يكون عن فعل قديم بلا واسطة ، إن سلمنا لهم أنه يوجد عن إرادة قديمة . ووضع الإرادة نفسها هي للفعل المتعلق بالمفعول شيء لا يعقل . وهو كفرض مفعول بلا فاعل . فإن الفعل غير الفاعل ، وغير المفعول وغير الإرادة . والإرادة هي شرط الفعل لا الفعل . وأيضاً فهذه الإرادة القديمة يجب أن تتعلق بعدم الحادث دهرأ لانهاية له [إذ كان الحادث معدوماً دهرأ لانهاية له] (٢) ، فهي لا تتعلق

(١) في «ب» وفي «س» وفي نسخة موالر : وإنما .

(٢) سقطت هذه الجملة من مخطوط «ب» .

بالمрад في الوقت الذي اقتضت إيجاده إلا بعد انقضاء دهر لا نهاية له ، وما لا نهاية له لا ينقضي . فيجب ألا يخرج هذا المراد إلى الفعل أو ينقضي دهر لا نهاية له ، وذلك ممتنع . وهذا هو بعينه برهان المتكلمين الذي اعتمدوه في حدوث دورات الفلك . وأيضاً فإن الإرادة التي تتقدم المراد ، وتتعلق به بوقت مخصوص ، لا بد أن يحدث فيها ، في وقت إيجاد المراد ، عزم على الإيجاد لم يكن قبل ذلك الوقت ؛ لأنه إن لم يكن في المريد ، في وقت الفعل ، حالة زائدة على ما كانت عليه في الوقت الذي اقتضت الإرادة عدم الفعل ، لم يكن وجود ذلك الفعل عنه ، في ذلك الوقت ، أولى من عدمه ، إلى ما في هذا كله من التشعيب والشكوك العويصة التي لا يتخلص منها العلماء المهمة يعلم الكلام والحكمة ، فضلاً عن العامة . ولو كلف الجمهور العلم من هذه الطرق لكان من باب تكليف ما لا يطاق .

وأيضاً فإن الطرق التي سلك هؤلاء القوم في حدوث العالم قد جمعت بين هذين الوصفين معاً ، أعني / أن الجمهور ليس في طباعهم قبولها ، ولا هي مع هذا برهانية . فليست تصلح لا للعلماء ولا للجمهور . ونحن ننبه على ذلك ههنا (١) بمض التنبية ، فنقول : إن الطرق التي سلكوها (٢) في ذلك طريقان : أحدهما ، وهو الأشهر الذي اعتمد عليه عامتهم ، يبنى على ثلاث مقدمات هي بمنزلة الأصول لما يرومون إنتاجه عنها من حدوث العالم : إحداهما أن الجواهر لا تنفك من الأعراض ، أي لا تخلو منها ، والثانية أن الأعراض حادثة ، والثالثة أن ما لا ينفك عن الحوادث حادث ، أعني ما لا يخلو من الحوادث هو جادث .

فأما المقدمة الأولى ، وهي القائلة إن الجواهر لا تتعزى من الأعراض ،

(١) سقطت في كل من « ا » و « ب » .

(٢) في « ا » : سلكوها .

فإن عنواها الأجسام المشار إليها القائمة بذاتها فهي مقدمة صحيحة . وإن
عنوا بالجواهر الجزء الذى لا ينقسم ، وهو الذى يريدونه بالجواهر الفرد ،
ففيها شك ليس باليسير . وذلك أن وجود جوهر غير منقسم ليس معروفا
بنفسه ، وفي وجوده أقاويل متضادة شديدة التعاند ، وليس في قوة
صناعة الكلام تخلص الحق منها ، وإنما ذلك لصناعة البرهان . وأهل
هذه الصناعة قليل جداً . والدلائل التي تستعملها الأشعرية في إثباته هي
خطيئة^(١) في الأكثر . وذلك أن استدلالهم المشهور في ذلك هو أنهم
يقولون : إن من المعلومات الأول أن القيل مثلاً إنما نقول فيه إنه أعظم
من الثلة ، من قبيل زيادة أجزاء فيه على أجزاء الثلة . وإذا كان ذلك
كذلك فهو مؤلف من تلك الأجزاء ، وليس هو واحداً بسيطاً . وإذا
فسد الجسم فإليها ينحل . وإذا تركب فتنها يتركب .

وهذا الغلط إنما دخل عليهم / من شبه السكمية المنفصلة بالمتصلة . فظنوا ٢/٢
أن ما يلزم في المنفصلة يلزم في المتصلة . وذلك أن هذا إنما يصدق في
العدد^(٢) ، أعنى أن نقول : إن عدداً أكثر من عدد من قبيل كثرة
الأجزاء الموجودة فيه ، أعنى الوحدات . وأما السكم المتصل فليس يصدق
ذلك فيه . ولذلك نقول في السكم المتصل : إنه أعظم وأكبر ، ولا نقول :
إنه أكثر وأقل^(٣) . ونقول في العدد : إنه أكثر وأقل ، ولا نقول :
أكبر وأصغر . وعلى هذا القول ، فتسكون الأشياء كلها أعداداً ، ولا يكون
هناك عظم متصل أصلاً ، فتسكون صناعة الهندسة هي صناعة العدد بعينها .
ومن المعروف بنفسه أن كل عظم فإنه ينقسم بنصفين ، أعنى الأعظام
الثلاثة التي هي الخط والسطح والجسم . وأيضاً فإن السكم المتصل هو الذى

(١) هكذا في «س» ، «أ» ، «ب» ، ونسخة موار : وفي طبعة مصر : خطائية .

(٢) في هامش «س» توجد العبارة الآتية : انظر الفرق بين السكم المتصل والمنفصل .

(٣) في «أ» ، «ب» : أو أقل .

يمكن أن يعرض^(١) عليه في وسطه نهاية يلتقي عندها طرفا القسمين جميعا ، وليس يمكن ذلك في العدد .

لكن يعارض هذا أيضاً أن الجسم ، وسائر أجزاء الحكم المتصل ، يقبل الانقسام ، وكل منقسم فإما أن ينقسم إلى شيء منقسم أو إلى شيء غير منقسم . فإن انقسم إلى غير منقسم فقد وجدنا الجزء الذي لا ينقسم ، وإن انقسم إلى منقسم عاد السؤال أيضاً في هذا المنقسم : هل ينقسم إلى منقسم أو إلى غير منقسم ؟ فإن انقسم إلى غير نهاية كانت في الشيء المتناهي أجزاء لانهاية لها . ومن المعلومات الأول أن أجزاء المتناهي متناهية .

ومن الشكوك المتعاسة التي تلزمهم أن يسألوا : إذا حدث الجزء الذي لا يتجزأ ما القابل لنفس الحدوث ؟ فإن الحدوث عرض من الأعراض ، وإذا وجد الحادث فقد ارتفع الحدوث . فإن من أصولهم أن الأعراض لا تفارق الجواهر^(٢) . فيضطرم الأمر إلى أن يضعوا الحدوث من موجود ما ، ولموجود ما .

وأيضاً فقد يسألون : أين كان الموجود يكون من غير عدم فبماذا يتعلق فعل الفاعل ؟ فإنه ليس بين الوجود وعدم وسط عندهم . وإن كان ذلك كذلك ، وكان فعل الفاعل لا يتعلق عندهم بعدم ، ولا يتعلق بما وجد وفرغ من وجوده ، فقد ينبغي أن يتعلق بذات متوسطة بين الوجود وعدم . وهذا هو الذي اضطرب المعتزلة إلى أن قالت إن في عدم ذاتاً ما . وهو لا أيضاً يلزمهم أن يوجد ما ليس بموجود بالفعل موجوداً بالفعل . وكلتا الطائفتين يلزمهم أن يقولوا بوجود الخلا .

فمذه الشكوك — كما ترى — ليس في قوة صناعة الجدل حلها . فإذا

(١) في ١٥٠ : يفرس .

(٢) سقطت من ١٥٠ .

يجب ألا يجعل هذا مبدأ لمعرفة الله تبارك وتعالى ، وبخاصة للجمهور . فإن طريقة معرفة الله تعالى أوضح من هذه ، على ماسنيين من قولنا بعد .

* * *

وأما المقدمة الثانية، وهى القائلة إن جميع الأعراض محدثة ، فهى مقدمة مشكوك فيها . وخفاء هذا المعنى فيها كخفائه فى الجسم . وذلك أنا إنما شاهدنا بعض الأجسام محدثة ، وكذلك بعض الأعراض ، فلا فرق فى النقلة من الشاهد ، فى كليهما ، إلى الغائب . فإن كان واجباً فى الأعراض أن ينقل حكم الشاهد منها إلى الغائب ، أعنى أن نحكم بالحدوث على ما لم نشاهده منها ، قياساً على ما شاهدناه ، فقد يجب أن يفعل ذلك فى الأجسام ، ونستغنى عن الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام . وذلك أن الجسم السمارى ، وهو المشكوك فى إلحاقه بالشاهد ، الشك فى حدوثه / ٢٠ ب / أعراضه كالشك فى حدوثه نفسه ؛ لأنه لم يُحس حدوثه ، لاهو ولا أعراضه . ولذلك ينبغي أن نجعل الفحص عنه من أمر حركته ، وهى الطريق التى تفضى بالسالكين إلى معرفة الله تبارك وتعالى بيقين . وهى طريق الخواص ، وهى التى خص الله به إبراهيم عليه السلام فى قوله : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » ؛ لأن الشك كله إنما هو فى الأجرام السماوية . وأكثر النظائر انتهوا إليها ، واعتقدوا أنها آلهة .

وأيضاً ، فإن الزمان من الأعراض ، ويعسر تصور حدوثه ؛ وذلك أن كل حادث فيجب أن يتقدمه العدم بالزمان . فإن تقدم عدم الشيء على الشيء لا يتصور إلا من قبل الزمان . وأيضاً ، فإن المسكان الذى يكون فيه العالم ، إذا كان كل متكون بالمسكان سابقاً له ، يعسر تصور حدوثه أيضاً ؛ لأنه إن كان خلاه - على رأى من يرى أن الخلاه هو المسكان - احتاج أن

يتقدم حدوثه — لمن فرض حادثاً — خلاء آخر . وإن كان المكان نهاية الجسم المحيط بالتمسك^(١) ، على الرأى الثانى ، لزم أن يكون ذلك الجسم فى مكان ، فيحتاج الجسم إلى جسم ، ويمر الأمر إلى غير نهاية .

وهذه كلها شكوك عويصة . وأدلتهم التى يلبسون بها بيان إبطال قدم الأعراض إنما هى لازمة لمن يقول بقديم ما يحس منها حادثاً ، أعنى من يضع أن جميع الأعراض غير حادثة . وذلك أنهم يقولون : إن الأعراض التى يظهر للحس أنها حادثة ، إن لم تكن حادثة فإما أن تكون منتقلة من محل إلى محل ، وإما أن تكون كائنة فى المحل الذى ظهرت فيه قبل أن تظهر . ثم يبطلون هذين / القسمين ، فيظنون أنهم قد بينوا أن جميع الأعراض حادثة . وإنما بان من قولهم أن ما يظهر من الأعراض حادثاً فهو حادث ، لا مالا يظهر حدوثه ، ولا مالا يشك فى أمره ، مثل الأعراض الموجودة فى الأجرام السماوية : من حركاتها وأشكالها ، وغير ذلك . فتؤول أدلتهم على حدوث جميع الأعراض إلى قياس الشاهد على الغائب ، وهو دليل خطي^(٢) إلا حيث النقلة معقولة بنفسها ، وذلك عند التيقن باستواء طبيعة الشاهد والغائب .

• • •

وأما المقدمة الثالثة ، وهى القائلة إن مالا يخلو من الحوادث فهو حادث ، فهى مقدمة مشتركة الاسم ؛ وذلك أنه يمكن أن تفهم على معنيين : أحدهما مالا يخلو من جنس الحوادث ، ويخلو من آحادها ، والمعنى الثانى مالا يخلو من واحد منها بخصوص مشار إليه ، كأنك قلت : مالا يخلو من هذا السواد المشار إليه . فأما هذا المفهوم الثانى فهو صادق ، أعنى مالا يخلو عن عرض.

(١) فى «أ» : التمسك

(٢) مكذاً فى «س» ، «أ» ، «ب» ونسخه موالر .

مشار إليه ، وذلك العرض حادث ، أنه يجب ضرورة أن يكون الموضوع له حادثاً ؛ لأنه إن كان قديماً فقد خلا من ذلك العرض ، وقد كنا فرضناه لا يخلو ، هذا خلف^(١) لا يمكن . وأما المفهوم الأول ، وهو الذى يريدونه ، فليس يلزم عنه حدوث المحل ، أعنى الذى لا يخلو من جنس الحوادث ؛ لأنه يمكن أن يتصور المحل الواحد ، أعنى الجسم ، تتعاقب عليه أعراض غير متناهية : إما متضادة وإما غير متضادة ؛ كأنك قلت حركات لا نهاية لها ، كما يرى ذلك كثير من القدماء فى العالم أنه يتكون واحد^(٢) بعد آخر . ولهذا لما شعر المتأخرون من المتكلمين بوهى هذه المقدمة راموا شدها وتقويتها ب/٢٦ بأن يبنوا ، فى زعمهم ، أنه لا يمكن أن تتعاقب على محل واحد أعراض لا نهاية لها . وذلك أنهم زعموا أنه يجب عن هذا الموضع ، ألا يوجد منها فى المحل عرض ما مشار إليه إلا وقد وجدت قبله أعراض لا نهاية لها ، وذلك يؤدى إلى امتناع الموجود منها ، أعنى المشار إليه ؛ لأنه يلزم ألا يوجد إلا بعد انقضاء ما لا نهاية له . ولما كان ما لا نهاية له لا ينقضى ، وجب ألا يوجد هذا المشار إليه ، أعنى المفروض موجوداً . مثال ذلك أن الحركة الموجودة اليوم للجرم السماوى ، إن كان قد وجد قبلها حركات لا نهاية لها فقد كان يجب ألا توجد .^(٣) ومثلوا لذلك برجل قال لرجل : ولا أعطيك هذا الدينار حتى أعطيك قبله دنانير لا نهاية لها . . فليس يمكن أن يعطيه ذلك الدينار المشار إليه أبداً . وهذا التمثيل ليس بصحيح ؛ لأن فى هذا وضع مبدأ ونهاية ، ووضع ما بينهما غير متناه ؛ لأن قوله وقع فى زمان

(١) فى «س» : خلف . أما فى بقية النسخ فقد أخطأ السامع وكتبوها : هذا خلو .

(٢) هكذا فى جميع النسخ .

(٣) هذا هو دليل الإسكندى أيضاً على حدوث العالم : إذ يبنى على القضية القائلة بأن غير المتناهى لا يمكن أن يتحقق كاه بالفعل . فإذا كان لعالم قديماً فإن حركته فى اللحظة احاصرة تسبق من لا نهاية له ، وهذا مستحيل ، لأن الزمن للمتناهى لا يمكن أن يتحقق فعلاً .

محدود ، وإعطاؤه الدينار يقع أيضاً في زمن^(١) محدود . فاشترط هو أن يعطيه الدينار في زمان يكون بينه وبين الزمان الذي تكلم فيه أزمنة لانهاية لها ، وهي التي يعطيه فيها دنانير لانهاية لها ، وذلك مستحيل . فهذا التمثيل يبين من أمره أنه لا يشبه المسألة الممثل بها .

وأما قولهم «إن ما يوجد بعد وجود أشياء لانهاية لها لا يمكن وجوده ، فليس صادقاً في جميع الوجوه ؛ وذلك أن الأشياء التي بعضها قبل بعض ، توجد على نحوين : إما على جهة الدور ، وإما على جهة الاستقامة . فالتى توجد على جهة الدور الواجب فيها أن تكون غير متناهية ، إلا أن يعرض عنها ما ينهيها . مثال ذلك أنه إن كان شروق فقد كان غروب ، وإن كان غروب فقد كان شروق ، فإن كان شروق فقد كان شروق . وكذلك إن كان غيم فقد كان بخار صاعد من الأرض ، وإن كان بخار صاعد من الأرض فقد ابتلت الأرض ، فإن كان ابتلت الأرض فقد كان مطر ، وإن كان مطر فقد كان غيم ، فإن كان غيم فقد كان غيم . وأما التي تكون على استقامة^(٢) مثل كون الإنسان من الإنسان ، وذلك الإنسان من إنسان آخر . فإن هذا إن كان بالذات لم يصح أن يمر إلى غير نهاية ؛ لأنه^(٣) إذا لم يوجد الأول من الأسباب لم يوجد الأخير . وإن كان ذلك بالعرض ، مثل أن يسكون الإنسان بالحقيقة عن فاعل آخر غير الإنسان الذي هو الأب ، وهو المصور له ، ويكون الأب إنما منزلته منزلة الآلة من الصانع فليس يتمتع ، إن وجد ذلك الفاعل يفعل فعلاً لانهاية له ، أن يفعل ، بآلات متبدلة ، أشخاص لانهاية لها . وهذا كله ليس يظهر في هذا الموضع . وإنما سقناه ليعرف أن ماتوهم القوم من هذه الأشياء أنه برهان فليس برهاناً ، ولا هو من الأقاويل

(١) في «أ» ، «ب» : زمان

(٢) في «أ» ، «ب» : الاستقامة

(٣) في «أ» ، «س» : ولأنه .

التي تليق بالجمهور ، أعنى البراهين البسيطة التي كلف الله بها الجميع من عباده
الإيمان به . فقد تبين لك من هذا أن هذه الطريقة ليست برهانية صناعية ،
ولا شرعية . (١)

* * *

وأما الطريقة الثانية فهي التي استنبطها أبو المعالي في رسالته المعروفة
بالنظامية . ومبناها على مقدمتين : إحداهما أن العالم ، بجميع ما فيه ، جائز
أن يكون على مقابل ما هو عليه [حتى يكون من الجائز مثلاً أصغر مما هو ،
وأكبر مما هو] (٢) ، أو بشكل آخر غير الشكل الذي هو عليه ، / أو عدد ٢٧/ب
أجسامه غير العدد الذي هو (٣) عليه ، أو تكون حركة كل متحرك منها
إلى جهة ضد الجهة التي يتحرك إليها ، حتى يمكن في الحجر أن يتحرك
إلى فوق ، وفي النار إلى أسفل ، وفي الحركة الشرقية أن تكون غربية ،
وفي الغربية أن تكون شرقية . والمقدمة الثانية : أن الجائز يحدث ، وله
حدث ، أي فاعل صيِّره بأحد (٤) الجائزين أولى منه بالآخر .

فأما المقدمة الأولى فهي خطيئة ، وفي بادىء الرأي . وهي أما في بعض
أجزاء العالم فظاهر كذبها بنفسه ، مثل كون الإنسان موجوداً على خلقه
غير هذه الخلقة التي هو عليها . وفي بعضه الأمر فيه مشكوك ، مثل كون
الحركة الشرقية غربية والغربية شرقية ؛ إذ كان ذلك ليس معروفاً بنفسه ؛
إذ كان يمكن أن يكون لذلك علة غير بيّنة الوجود بنفسها ، أو تكون من العلة
الخفية على الإنسان . ويشبه أن يكون ما يعرض للإنسان ، في أول الأمر ، عند

(١) في المخطوط رقم ١٢٩ وهو مخطوط ٠ توجد زيادة قدرها ٥١ سطراً في ورقات ٠

١٤ ، ١٥ ، ١٦ . وهي تعليق على المتن أدخله الناسخ في صاب الكتاب .

(٢) سقط هنا الجزء في المخطوط رقم ١٣٣ ، وهو مخطوط «ب»

(٣) في «س» : مى

(٤) بأحدى : في جميع النسخ

النظر في هذه الأشياء شبيها بما يعرض لمن ينظر في أجزاء المصنوعات ، من غير أن يكون من أهل تلك الصنائع . وذلك أن الذى هذا شأنه قد سبق إلى ظنه أن كل ما فى تلك المصنوعات ، أو جملها ، يمكن أن يكون بخلاف ما هو عليه ، ويوجد عن هذا المصنوع ذلك الفعل بعينه الذى صنع من أجله ، أعنى غايته . فلا يكون فى ذلك المصنوع عند هذا موضع حكمة . وأما الصانع والذى يشارك الصانع فى شيء من علم ذلك فقد يرى أن الأمر بضد ذلك ، وأنه ليس فى المصنوع إلا شيء واجب ضرورى ، أو ليسكون به المصنوع أتم وأفضل ، إن لم يكن ضرورياً فيه . وهذا هو معنى الصناعة . ٢٨ / ١ والظاهر أن المخلوقات / شبيهة فى هذا المعنى بالمصنوع . فسيبحان الخالق العظيم .

فهمذ المقدمة من جهة أنها خطيبة قد تصلح لإقناع الجميع . ومن جهة أنها كاذبة ومبطلّة لحكمة الصانع فليست تصلح لهم . وإنما صارت مبطلّة للحكمة ؛ لأن الحكمة ليست شيئاً أكثر من معرفة أسباب الشيء . وإذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضى وجوده ، على الصفة التى هو بها ذلك النوع موجود ، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره . كما أنه لو لم يكن ههنا أسباب ضرورية فى وجود الأمور المصنوعة لم تكن هنالك صناعة أصلاً ، ولا حكمة تنسب إلى الصانع ، دون من ليس بصانع . وأى حكمة كانت تكون^(١) فى الإنسان لو كانت جميع أفعاله وأعماله يمكن أن تتأتى بأى عضو انفق ، أو بغير عضو ، حتى يكون الإبصار مثلاً يتأتى بالأذن كما يتأتى بالعين ، والشم بالعين كما يتأتى بالأنف . وهذا كله إبطال للحكمة ، وإبطال للمعنى الذى سمي^(٢) به نفسه حكماً ، تعالى وتقدسست أسماؤه عن ذلك .

° ° °

(٢) فى د س ، سنا .

(١) فى د ب ، وأى حكمة تكون

وقد نجد أن ابن سينا يذعن لهذه المقدمة بوجه ما ؛ وذلك أنه يرى أن كل موجود ما ، سوى الفاعل ، فهو ، إذا اعتبر بذاته ، ممكن وجائز ، وأن هذه الجائزات صنفان : صنف هو جائز باعتبار فاعله ، وصنف هو واجب باعتبار فاعله ، ممكن باعتبار ذاته ، وأن الواجب بجميع الجهات هو الفاعل الأول . وهذا قول في غاية السقوط ؛ وذلك أن الممكن في ذاته وفي جوهره ليس يمكن أن يعود ضروريا من قبل فاعله إلا لو انقلبت طبيعة الممكن إلى طبيعة الضروري . فإن قيل إنما يعنى بقوله ممكن باعتبار ذاته أى (١) / أنه متى تسوهم فاعله مرتفعاً ارتفع هو ، قلنا هذا الارتفاع هو ٢٨/ب مستحيل . وليس هذا موضع الكلام مع هذا الرجل . ولكن للحرص على الكلام معه في الأشياء التي اخترعها هذا الرجل استعرجنا القول إلى ذكره ، فانرجع إلى حيث كنا فنقول :

وأما القضية الثانية ، وهي القائلة إن الجائز محدث ، فهي مقدمة غير بيّنة بنفسها . وقد اختلف فيها العلماء : فأجاز « أفلاطون » أن يكون شيء جائز أزلياً ، ومنعه أرسطو . وهو مطلب عويص . ولن تتبين حقيقة إلا لأهل صناعة البرهان (٢) ، وهم العلماء الذين خصهم الله تبارك [وتعالى] (٣) بعلمه ، وقرن شهادتهم في الكتاب العزيز بشهادته وشهادة ملائكته .

وأما أبو المعالي فإنه رام أن يبين هذه المقدمة بمقدمات : إحداها أن الجائز لا بد له من مخصص يجعله بأحد الوصفين الجائزين أولى منه بالثاني ؛ والثانية أن هذا المخصص لا يكون إلا مريداً ؛ والثالثة أن الموجود عن

(١) غير موجودة في « ب » .

(٢) انظر مناقشة ابن رشد لفكرة الممكن والواجب عند ابن سينا في كتابنا « نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها » رشيد توماس الأكوفى « - الأنجلو المصرية سنة ١٩٦٤ ص ١١١ ، وما بعدها .

(٣) سقطت في مخطوط « ١ » ومخطوط « ب » .

الإرادة هو حادث . ثم يبين أن الجائر يكون عن الإرادة ، أى عن فاعل
عريد ، من قبل أن كل فعل فيما أن يكون عن الطبيعة ، وإما عن الإرادة .
والطبيعة ليس يكون عنها أحد الجائزين المائلين ، أعنى لا تفعل المائل دون
مائله ؛ بل تفعلهما . مثال ذلك أن السقمونيا^(١) ليست تجذب الصفراء التى
فى الجانب الأيمن من البدن مثلاً دون التى فى الأيسر . وأما الإرادة فهى
التى تختص الشئ دون مائله . ثم أضاف إلى هذه أن العالم مائل كونه فى
الموضع الذى خلق فيه من الجو الذى خلق فيه ، يريد الخلاء ، لسكونه
٢٩ / ١ فى غير ذلك الموضع / من ذلك الخلاء^(٢) . فأتيج عن ذلك أن العالم خلق
عن إرادة .

والمقدمة القائلة إن الإرادة هى التى تخص أحد المائلين صحيحة ، والقائلة
إن العالم فى خلاء يحيط به كاذبة ، أو غير بيّنة بنفسها . ويلزم أيضاً عن
وضعه هذا الخلاء أمر شنيع عندهم ، وهو أن يكون قديماً ؛ لأنه إن كان
محدثاً احتاج إلى خلاء .

وأما المقدمة القائلة إن الإرادة لا يكون عنها إلا مراد محدث فذلك
شئ غير بين . وذلك أن الإرادة التى بالفعل فهى مع فعل المراد نفسه ؛
لأن الإرادة من المضاف . وقد تبين أنه إذا وجد أحد المضافين بالفعل
وجد الآخر بالفعل ، مثل الأب والأبن ؛ وإذا وجد أحدهما بالقوة وجد
الآخر بالقوة . فإن كانت الإرادة التى بالفعل حادثة فالمراد ولا بد
حادث [بالفعل] .^(٣) وإن كانت الإرادة التى بالفعل قديمة فالمراد الذى
بالفعل قديم . وأما الإرادة التى تتقدم المراد فهى الإرادة التى بالقوة ،
أعنى التى لم يخرج مرادها إلى الفعل ؛ إذ لم يقترن بتلك الإرادة الفعل

(١) نبات يؤخذ صمغه ويحرق ، ويستخدم دواء فى علاج الصفراء .

(٢) يريد بذلك أن العالم يمكن أن يحس مكاناً فى الفضاء مماثلاً للمكان الذى يوجد فيه الآن .

(٣) سقط فى «ب» .

الموجب لحدوث المراد . ولذلك هو بين أنها ، إذا خرج مرادها ، أنها على نحو من الوجود لم تسكن عليه قبل خروج مرادها إلى الفعل ؛ إذ كانت هي السبب في حدوث المراد بتوسط الفعل . فإذا لو وضع المتكلمون أن الإرادة حادثة لوجب أن يكون المراد محدثاً ولا بد .

والظاهر من الشرع أنه لم يتعمق هذا التعمق مع الجمهور . ولذلك لم يصرح لا بإرادة قديمة ولا حادثة ؛ بل صرح بما الأظهر منه أن الإرادة [موجدة موجودات] ^(١) حادثة ؛ وذلك في قوله تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » ، وإنما كان ذلك كذلك لأن الجمهور لا يفهمون موجودات حادثة عن إرادة قديمة ؛ بل الحق أن الشرع لم يصرح في الإرادة لا بحدوث ولا بقديم ؛ لتكون هذا من المتشابهات في حق الأكثر . وليس بأيدي المتكلمين برهان قطعي على استحالة قيام إرادة حادثة في موجود قديم ؛ لأن الأصل الذي يعولون عليه في نفي قيام الإرادة بمحل قديم هو المقدمة التي بينا وهنأ ^(٢) ، وهي أن ما لا يخلو عن الحوادث حادث . وسنبين هذا المعنى بيانا أتم عند القول في الإرادة .

فقد تبين لك من هذا كله أن الطرق المشهورة للأشعرية في السلوك إلى معرفة الله سبحانه ليست طرقاً نظرية يقينية [ولا طرقاً شرعية يقينية] ^(٣) . وذلك ظاهر لمن تأمل أجناس الأدلة المنبهة ، في السكتاب العزيز ، على المعنى ، أعني بمعرفة وجود الصانع . وذلك أن الطرق الشرعية إذا توكلت وجدت ، في الأكثر ، قد جمعت وصفين : أحدهما أن تكون يقينية . والثاني أن تكون بسيطة غير مركبة ، أعني قليلة المقدمات ، فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأولى .

□ □ *

(١) سقط هذا الجزء في نسخة «س» .

(٢) في «أ» ، «ب» وفي نسخة «مولر» : «بيناهما» . (٣) سقطت في «ب» .

وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقاً نظرية ، أعنى مركبة من مقدمات وأنيسة . وإنما يزعمون أن المعرفة بالله ، وبغيره من الموجودات ، شيء يلقي في النفس عند تجريدتها من العوارض الشهوانية ، وإقبالها بالفكرة على المطلوب ، ويحتجون لتصحيح هذا بظواهر من الشرع كثيرة ، مثل قوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، ومثل قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، ومثل قوله [تعالى] (١) : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ، إلى أشباه ذلك كثيرة . يظن أنها عاضدة لهذا المعنى .

١/٣- ونحن نقول : إن هذه الطريقة ، وإن سلمنا / وجودها ، فإنها ليست عامة للناس بآهم - ناس . ولو كانت هذه الطريقة هي المقصودة بالناس لبطلت طريقة النظر ، ولما كان وجودها بالناس عبثاً . والقرآن كله إنما هو دعاء إلى النظر والاعتبار ، وتنبيه على طرق النظر . نعم لسنا ننسكركم أن تكون إمامة الشهاب شرطاً في صحة النظر ، مثلاً تكون الصحة شرطاً في ذلك ، لأن إمامة الشهاب هي التي تفيد المعرفة بذاتها ، وإن كانت شرطاً فيها ، كما أن الصحة شرط في التعلم ، وإن كانت ليست مفيدة له . ومن هذه الجهة دعا الشرع إلى هذه الطريقة ، وحث عليها في جملة حثاً ، أعنى على العمل ، لأنها كافية بنفسها كما ظن القوم ؛ بل إن كانت نافعة في النظرية فعلى الوجه الذي قلنا . وهذا يتبين عند من أنصف ، واعتبر بالأمور بنفسه .

• • •

وأما المعتزلة فإنه لم يصل إلينا في هذه الجزيرة من كتبهم شيء نقف منه على طرقهم التي سلكوها في هذا المعنى . ويشبه أن تكون طرقهم من جنس طرق الأشعرية .

(١) لا توجد في «س»

فإن قيل : فإذا قد تبين أن هذه الطرق كلها ليست واحدة منها هي الطريقة الشرعية التي دعا الشرع منها جميع الناس ، على اختلاف فطرتهم ، إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه ، فما هي الطريقة الشرعية التي نبه الكتاب العزيز عليها ، واعتمدتها الصحابة رضوان الله عليهم ؟
قلنا : الطريق ^(١) التي نبه الكتاب العزيز عاينها ، ودعا الكل من بابها ، إذا استقرى الكتاب العزيز ، وجدت تنحصر في جنسين :
أحدهما : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها ^(٢) ، ولنسم هذه دليل العناية .

والطريقة الثانية / ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات ، م/٣.
مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل ، ولنسم هذه دليل الإختراع .

فأما الطريقة الأولى فتنبئ على أصلين : أحدهما أن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان ؛ والأصل الثاني أن هذه الموافقة هي ، ضرورة ، من قبل فاعل قاصد لذلك حريد ؛ إذ ليس يمكن أن تسكون هذه الموافقة بالاتفاق . فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان . وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له ، والمكان الذي هو فيه أيضاً ، وهو الأرض . وكذلك نظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوان له والنبت والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار ، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء . وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان ، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده .

(١) ج ١ ص ١٠٠ الطرق

(٢) ج ١ ص ١٠٠ من أجله .

وبالجملة فمعرفة ذلك ، أعنى منافع الموجودات ، داخلة في هذا الجنس . ولذلك
وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع
جميع الموجودات .

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ، ووجود النبات
ووجود السموات . وهذه الطريقة تنبنى على أصليين موجودين بالقوة
في جميع فطر الناس :

أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة . وهذا معروف بنفسه في الحيوان
والنبات ، كما قال تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً
ولو اجتمعوا له ، الآية . » فإننا نرى أجساماً جمادية ثم تحدث فيها الحياة ،
١ / ٣١ فننزع قطعاً / أن ههنا موجداً للحياة ومنعياً بها ، وهو الله تبارك وتعالى . وأما
السموات فننزع ، من قبل حركاتها التي لا تفتر ، أنها مأمورة بالعناية بما ههنا ،
ومسخرة لنا ، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة .

وأما الأصل الثاني فهو أن كل مخترع فله مخترع .

فيصح من هذين الأصلين أن للوجود فاعلاً مخترعاً له . وفي هذا الجنس
دلائل كثيرة على عدد المخترعات . ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة
الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ، ليقف على الاختراع الحقيقي (١)
في جميع الموجودات ؛ لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة
الاختراع . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : « أولم ينظروا في ملكوت
السموات والأرض وما خلق الله من شيء . » وكذلك أيضاً من تتبع (٢)
معنى الحكمة في موجود موجود ، أعنى معرفة السبب الذي من أجله
خلق ، والغاية المقصودة به ، كان وقوفه على دليل العناية أتم .

(١) يقابل هنا ابن رشد بين الاختراع الحقيقي الذي هو من فعل الله ، والاختراع الإنساني

الذي يتم في نطاق ما خلق الله .

(٢) في « س » : يتبع

فهذان الدليлан هما دليللا الشرع . وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المقضية إلى وجود الصانع سبحانه في السكتاب العزيز هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة فذلك بيّن لمن تأمل الآيات الواردة في السكتاب العزيز في هذا المعنى . وذلك أن الآيات التي في السكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع : إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية ، وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع ، وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً .

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية / فقط فمثل قوله تعالى : « ألم نجعل ٣١/ب الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ، إلى قوله « وجنات ألفافاً ، ، ومثل قوله : « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً ، ، ومثل قوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، الآية . ومثل هذا كثير في القرآن .

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط فمثل قوله تعالى : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، ، ومثل قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، الآية ، ومثل قوله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، . ومن هذا قوله تعالى ، حكاية عن قول إبراهيم : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ، إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى .

وأما الآيات التي تجمع الداليتين فهي كثيرة أيضاً ؛ بل هي الأكثر ، مثل قوله تعالى : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، إلى قوله : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ، ، فإن قوله « الذي خلقكم والذين من قبلكم ، تنبيه على دلالة الاختراع ، وقوله : « الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، تنبيه على دلالة العناية . ومثل هذا قوله تعالى :

« وآية لهم الأرض الميِّتة أحييناها وأخرجنا منها حياءً فته يأكلون ،
وقوله تعالى : « الذين [يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم و]
يتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا
سبحانك فقتنا عذاب النار . » (١) وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى
يوجد فيها النوعان من الدلالة .

فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة
١/٣٤ وجوده ، ونههم على ذلك بما جعل في فطرم من إدراك هذا المعنى . وإلى
هذه القطرة الأولى المغروزة في طباع البشر الإشارة بقوله تعالى : « وإذ
أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، إلى قوله : « قالوا بلى شهدنا ،
ولهذا قد يجب على من كان وكده طاعة الله في الإيمان به ، وامثال
ما جاءت به رسله ، أن يسلك هذه الطريقة ، حتى يكون من العلماء الذين
يشهدون لله بالربوبية ، مع شهادته لنفسه وشهادة ملائكته له ، كما قال
تبارك وتعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأزوا العلم قائماً
بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . » ومن دلالة الموجودات من هاتين
الجهتين عليه هو التسبيح المشار إليه في قوله تبارك وتعالى : « وإن من شئ
إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . »

فقد بان من هذه الأدلة أن الدلالة على وجود الصانع منحصرة في هذين
الجنسين : دلالة العناية ودلالة الاختراع ، وتبين أن هاتين الطريقتين هما
بأعيانهما طريقة الخواص ، وأعنى بالخواص العلماء ، وطريقة الجمهور ، وإنما
الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل ، أعنى أن الجمهور يقتصرون من معرفة
العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس .
وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان ،

(١) سقط هذا الجزء في جميع النسخ انظر : سورة آل عمران . آية ١١٩ .

أعنى من العناية والاختراع ، حتى لقد قال بعض العلماء إن الذى أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة . وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هى الطريقة الشرعية والطبيعية ، وهى التى جاءت بها الرسل ، ونزلت بها السكتب . والعلماء ليس يفضلون الجمهور فى هذين الاستدلالتين من قبل السكثرة فقط ؛ بل ومن قبل / التعمق فى معرفة الشيء الواحد نفسه . فإن مثال الجمهور فى النظر إلى الموجودات مثالهم فى النظر إلى المصنوعات التى ليس عندهم علم بصنعتهما . فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط ، وأن لها صانعاً موجوداً . ومثال العلماء فى ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التى عندهم علم ببعض صنعتهما وبوجه الحكمة فيها . ولا شك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال فهو أعلم بالصانع ، من جهة ما هو صانع ، من الذى لا يعرف من تلك المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط . وأما مثال الدهرية فى هذا ، الذين جحدوا الصانع سبحانه ، فنال من أحسن مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات ؛ بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والامر الذى يحدث من ذاته . (١)

(١) يخونى المخطوط ١٥ ، على زيادة فى الورقة رقم ٢٦ . وهى فقرة ممدوسة على ابن رشد ، ولا موضع لها هنا ؛ إذ هى خاصة بمسألة الجسمية - وهل أثبتها القرآن أم نقاها .

[الفصل الثاني]

القول في الوجدانية

فإن قيل : فإن كانت هذه الطريقة هي الطريقة الشرعية في معرفة وجود الخالق سبحانه فما طريق وحدانيته الشرعية أيضاً ، وهي معرفة أنه لا إله إلا هو ، فإن هذا النفي هو معنى زائد على الإيجاب التي ^(١) تضمنت هذه الكلمة ، والإيجاب قد ثبت في القول المتقدم ، فما يطلب بثبوت النفي ؟ قلنا : أما نفي الألوهية عن سواه فإن طريق الشرع في ذلك هي الطريق التي نص عليها الله تعالى في كتابه العزيز ، وذلك في ثلاث آيات : إحداها قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، والثانية قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » ، والثالثة قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون ^(٢) إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . »

١/٣٣ / فاما الآية الأولى فدلائلها مغروزة في الفطر بالطبع ؛ وذلك أنه من المعلوم بنفسه أنه إذا كان ملاكان كل واحد منهما فعله فعل ^(٣) صاحبه ، أنه ليس يمكن أن يكون عن تدبيرهما مدينة واحدة ؛ لأنه ليس يكون عن فاعلين من نوع واحد فعل واحد . فيجب ضرورة - إن فعلا معا - أن تفسد المدينة الواحدة ؛ إلا أن يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر عطلا ؛ وذلك منتف في صفة الآلهة . فإنه متى اجتمع فعلا من نوع

(١) هكذا في جميع النسخ ماعدا « أ » ففيها : الذي .

(٢) في س : تقولون : ~~الذين~~ .

(٣) في نسخة . ولر : غير فعل .

واحد على محل واحد ففسد المحل ضرورة^(١)، [هذا]^(٢) معنى قوله سبحانه :
« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(٣)

وأما قوله : « إذا لذهب كل إله بما خلق »^(٤) فهذا رد منه على من
يضع آلهة كثيرة مختلفة الأفعال ، وذلك أنه يلزم في الآلهة المختلفة الأفعال
التي لا يكون بعضها مطيعاً لبعض ، ألا يكون عنها موجود واحد . ولما كان
العالم واحداً وجب ألا يكون موجوداً عن آلهة متفنة^(٥) الأفعال .

وأما قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي
العرش سبيلا »^(٦) فهي كآية الأولى ، أعني أنه برهان على امتناع إلهين
فعلمهما واحد . ومعنى هذه الآية أنه لو كان فيهما آلهة قادرة على إيجاد
العالم وخلقه غير الإله الموجود ، حتى تكون نسبته من هذا العالم نسبة
الخالق له ، لوجب أن يكون على العرش معه . فكان يوجد موجودان
متماثلان ينسبان إلى محل واحد نسبة واحدة . فإن المتماثلين لا ينسبان إلى
محل واحد نسبة واحدة ؛ لأنه إذا اتحدت النسبة اتحد المنسوب ، أعني
لا يجتمعان في النسبة إلى محل واحد ، كما لا يخلان في محل واحد ، إذا كانا
بما شأنهما أن يقوموا بالمحل ، وإن كان الأمر / في نسبة الإله إلى العرش ضد ٣٣/ب
هذه النسبة ، أعني أن العرش يقوم به ، لا أنه يقوم بالعرش . ولذلك قال
الله تعالى : « وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما » ، فهذا
هو الدليل الذي بالطبع والشرع في معرفة الوحدانية . وإنما الفرق بين
العلماء والجمهور في هذا الدليل أن العلماء يعلمون من إيجاد العالم وكون

(١) في «أ» زيادة وهي : «أو تمنع الفعل» فإن الفعل الواحد لا يصدر إلا عن واحد فهذا الخ »

(٢) سقطت في نسخة «س» .

(٣) الأنبياء : آية ٢٢ .

(٤) المؤمنون : آية ٩١ .

(٥) في نسخة «س» متعينة .

(٦) الإسراء : آية ٤٢ .

أجزائه بعضها من أجل بعض بمنزلة الجسد الواحد أكثر مما يعلمه الجمهور من ذلك . ولهذا المعنى الإشارة بقوله تعالى في آخر الآية : « سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » تسبيح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً .

وأما ما تتكلفه الأشعرية من الدليل الذى يستنبطونه من هذه الآية ، وهو الذى يسمونه دليل الممانعة ^(١) فشئى ليس يجرى مجرى [الأدلة الطبيعية والشرعية . أما كونه ليس يجرى مجرى] ^(٢) الطبع فلأن ما يقولون فى ذلك ليس برهاناً . وأما كونه لا يجرى مجرى الشرع فلأن الجمهور لا يقدرّون على فهم ما يقولون من ذلك ، فضلاً عن أن يقع لهم به إفتاع ، وذلك أنهم قالوا : لو كانا اثنين فأكثر لجاز أن يختلفا ، وإذا اختلفا لم يحل ذلك من ثلاثة أقسام لأربع لها : إما أن يتم مرادهما جميعاً ، وإما ألا يتم مراد واحد منهما ، وإما أن يتم مراد أحدهما ولا يتم مراد الآخر — قالوا ويستحيل ألا يتم مراد واحد منهما ؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان العالم لا موجوداً ولا معدوماً . ويستحيل أن يتم مرادهما معاً ؛ لأنه كان يكون العالم موجوداً معدوماً . فلم يبق إلا أن يتم مراد الواحد ، ويبطل مراد الآخر . فالذى بطلت إرادته عاجز ، والعاجز / ليس بالله .

١ / ٣٤

ووجه الضعف فى هذا الدليل أنه كما يجوز فى العقل أن يختلفا ، قياساً على المرئيين فى الشاهد ، يجوز أن يتفقا ، وهو أليق بالآلهة من الخلاف . وإذا اتفقا على صناعة العالم كانا مثل صانعين ^(٣) اتفقا على صنع مصنوع . وإذا كان هذا هكذا فلا بد أن يقال إن أفعالهما ^(٤) ، ولو اتفقا ، كانت

(٢) سقط فى « ١ »

(٤) فى نسخة س : أفعالهم

(١) فى « ١ » التمانع .

(٣) فى س : الصانعين

تتعاون لورودها على محل واحد ؛ إلا أن يقول قائل : فاعمل هذا بفعل بعضاً والآخر بعضاً ، ولعلهما يفعلان على المداولة ، إلا أن هذا التشكيك لا يليق بالجمهور . والجواب في هذا لمن يشكك من الجدليين في هذا المعنى أن يقال : إن الذى يقدر على اختراع البعض يقدر على اختراع الكل ، فيعود الأمر إلى قدرتهما على كل شىء . فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا ، وكيفما كان تعاون الفعل . وأما التداول فهو نقص في حق كل واحد منهما . والأشبه أن لو كانا اثنين أن يكون العالم اثنين : فإذا العالم واحد فالفاعل واحد . فإن الفعل الواحد إنما يوجد عن واحد . فإذا ليس ينبغي أن يفهم من قوله تعالى : « ولعل بعضهم على بعض » من جهة اختلاف الأفعال فقط ؛ بل ومن جهة اتفاقها . فإن الأفعال المتفقة تتعاون في ورودها على المحل الواحد ، كما تتعاون الأفعال المختلفة . وهذا هو الفرق بين ما فهمناه نحن من الآية وما فهمه المتكلمون ، وإن كان قد يوجد في كلام أبى المعالى إشارة إلى هذا الذى قلناه .

وقد يدل ذلك على أن الدليل الذى فهمه المتكلمون من الآية ليس هو الدليل الذى تضمنته الآية أن المحال الذى أفضى إليه [دليلهم غير المحال الذى أفضى إليه]^(١) الدليل المذكور في الآية . وذلك أن المحال الذى أفضى إليه الدليل الذى زعموا أنه دليل الآية / هو أكثر من محال واحد ؛ إذ قسموا الأمر بـ ٣/ب إلى ثلاثة أقسام ، وليس في الآية تقسيم . فدليلهم الذى استعملوه هو الذى يعرفه أهل المنطق بالقياس الشرطى المنفصل ، ويعرفونه هم ، في صناعتهم ، بدليل السبر والتقسيم . والدليل الذى في الآية هو الذى يعرف في صناعة المنطق بالشرطى المتصل ، وهو غير المنفصل . ومن نظر في تلك الصناعة أدنى نظر تبين له الفرق بين الدليلين .

(١) سقط في « ب » .

وأيضاً ، فإن المحالات التي أفضى إليها دليلهم غير المحال الذي أفضى إليه دليل الكتاب ؛ وذلك أن المحال الذي أفضى إليه دليلهم هو أن يكون العالم : إما لا موجوداً [ولا معدوماً ؛ وإما أن يسكون موجوداً]^(١) معدوماً ؛ وإما أن يكون الإله عاجزاً مغلوباً . وهذه مستحيلات دائمة لاستحالة أكثر من واحد ، والمحال الذي أفضى إليه دليل الكتاب ليس مستحيلاً على الدوام ، وإنما علققت الاستحالة فيه في وقت مخصوص ، وهو أن يوجد العالم فاسداً في وقت الوجود . فكأنه قال : لو كان فيهما آلهة إلا الله ، لوجد العالم فاسداً في الآن ، ثم استثنى أنه غير فاسد ، فوجب ألا يكون هنالك إلا إله واحد .

فقد تبين من هذا القول الطرق التي دعا الشرع من قبلها الناس إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه ، ونفى الإلهية عن سواه . وهما المعنيان اللذان تتضمنهما كلمة التوحيد ، [أعني لا إله إلا الله ، فمن نطق بهذه الكلمة]^(٢) ، وصدق بهذين المعنيين اللذين تضمنتهما . بهذه الطريق التي وصفنا ، فهو المسلم الحقيقي الذي عقيدته العقيدة الإسلامية . ومن لم تكن عقيدته مبنية على هذه الأدلة ، وإن صدق بهذه الكلمة ، فهو مسلم مع المسلم الحقيقي باشتراك الاسم .

(١) سقط في : « ا »

(٢) سقط في : « ا » .

الفصل الثالث

في الصفات

١٣٥ / وأما الأوصاف التي صرح الكتاب العزيز بوصف / الصانع الموجد للعالم بها فهي أوصاف الكمال الموجودة للإنسان ، وهي سبعة ^(١) : العلم ، والحياة ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

أما ^(٢) العلم فقد نبه الكتاب العزيز على وجه الدلالة عليه في قوله تعالى : «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» ، ووجه الدلالة أن المصنوع يدل — من جهة الترتيب الذي في أجزائه ، أعني كون صنع بعضها من أجل بعض ، ومن جهة موافقة جميعها للمقصد المقصود بذلك المصنوع — أنه لم يحدث عن صانع هو طبيعة ، وإنما حدث عن صانع رتب ما قبل الغاية قبل الغاية ، فوجب أن يكون عالماً به . مثال ذلك أن الإنسان إذ نظر إلى البيت فأدرك أن الأساس إنما صنع من أجل الحائط ، وأن الحائط من أجل السقف ، تبين أن البيت إنما وجد عن عالم بصناعة البناء .

وهذه الصفة هي صفة قديمة ؛ إذ كان لا يجوز عليه سبحانه أن يتصف بها وقتاً ما . لكن ليس ينبغي أن يتعمق في هذا ، فيقال ما يقول المتكلمون ^(٣) : لأنه يعلم المحدث في وقت حدوثه بعلم قديم . فإنه يلزم عن هذا أن يكون العلم بالمحدث ، في وقت عدمه وفي وقت وجوده ، علماً واحداً . وهذا أمر غير معقول ؛ إذ كان العلم واجباً أن يكون تابعاً للموجود . ولما كان الموجود تارة يوجد فعلاً ، وتارة يوجد قوة ، وجب

(١) في نسخة «س» : سبع

(٢) في «ب» و«د» و«ا» وفي نسخة موالار : وأما .

(٣) في «س» : يقوله

أن يكون العلم بالوجودين مختلفاً ؛ إذ كان وقت وجوده بالقوة غير وقت وجوده بالفعل . وهذا شيء لم يصرح به الشرع ؛ بل الذي صرح به خلافه ، وهو أنه يعلم المحدثات حين حدوثها ، كما قال تعالى : « وما تسقط / من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب / ٣/ب ولا يابس إلا في كتاب مبين . » ، فينبغي أن يوضع في الشرع أنه عالم بالشيء قبل أن يكون [على أنه سيكون ، وعالم بالشيء إذا كان على] (١) أنه قد كان ، وعالم بما قد تلف أنه قد تلف في وقت تلفه (٢) . وهذا هو الذي تقتضيه أصول الشرع . وإنما كان هذا هكذا لأن الجمهور لا يفهمون من العالم في الشاهد غير هذا المعنى .

وليس عند المتكلمين برهان يوجب أن يكون بغير هذه الصفة إلا أنهم يقولون إن العلم المتغير بتغير الموجودات هو محدث ، والبارئ سبحانه لا يقوم به حادث ؛ لأن ما لا ينفك عن الحوادث زعموا حادث . (٣) وقد بينا نحن كذب هذه المقدمة . فإذا الواجب أن تقر هذه القاعدة على ماوردت ، ولا يقال إنه يعلم حدوث المحدثات وفساد الفاسدات لا يعلم محدث ولا بعلم قديم ؛ فإن هذه بدعة في الإسلام ، وما كان ربك نسيا ، (٤)

وأما صفة الحياة فظاهر وجودها من صفة العلم ؛ وذلك أنه يظمر في الشاهد أن من شرط العلم الحياة ، والشرط عند المتكلمين يجب أن ينتقل فيه الحكم من الشاهد إلى الغائب . وما قالوه في ذلك صواب .

(١) سقط في « ب » (٢) في نسخة س : « ثلاثة » (٣) في « ا » : أنه حادث .

(٤) في « ا » زيادة ، وهي : « والذى يقال للخوارج أن العلم القديم لا يشبه العلم المحدث . وأما العلم القديم فيجب فيه اتحاد هذه العلوم ؛ لأن انتفاء العلم عنه بما يحدثه من هذه الموجودات الثلاث محال . فقد وقع اليقين بعلمه سبحانه بها ، واتقن التكليف ؛ إذ التكليف يوجب تعقيب العلم القديم بالعلم المحدث . »

وأما صفة الإرادة فظاهر اتصافه بها ؛ إذ كان من شرط صدور الشيء عن الفاعل العالم أن يكون مرئياً له . وكذلك من شرطه أن يكون قادراً . فاما أن يقال إنه مرید للامور المحدثه بإرادة قديمة فبدعة ، وشيء لا يعقله العلماء ، ولا يقنع الجمهور ، أعني الذين بلغوا مرتبة الجدل ؛ بل ينبغي أن يقال إنه مرید لكون الشيء في وقت كونه ، وغير مرید لكونه ١/٣٦ في غير وقت كونه ، كما قال تعالى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . فإنه ليس عند الجمهور ، كما قلنا ، شيء يضطرهم إلى أن يقولوا إنه مرید للحادثات بإرادة قديمة ، إلا ما توهمه المتكلمون من [أن] ^(١) الذي تقوم به الحوادث حادث . ^(٢)

* * *

فإن قيل فصفة الكلام من أين تثبت له [قلنا ثبتت له] ^(٣) من قيام صفة العلم به ، وصفة القدرة على الاختراع . فإن الكلام ليس شيئاً أكثر من أن يفعل المتكلم فعلاً يدل به المخاطب على العلم الذي في نفسه [أو يصير المخاطب بحيث ينكشف له ذلك العلم الذي في نفسه] ^(٤) وذلك فعل من جملة أفعال الفاعل . وإذا كان المخلوق الذي ليس بفاعل حقيقياً ، أعني الإنسان ، يقدر على هذا الفعل من جهة ما هو عالم قادر فكم بالحرى أن يكون ذلك واجباً في الفاعل الحقيقي ؛ ولهذا الفعل شرط آخر في الشاهد ، وهو أن يكون بواسطة ، وهو اللفظ . وإذا كان هذا هكذا وجب أن

(١) سقطت في نسخة «س» (٢) في مخطوط «أ» زيادة في ورقة ٣٢ . وأسلوبها ليس أسلوب ابن رشد . ولكن معناها يتفق مع آرائه بدليل قوله : « وإنما طور العلماء في هذا المقام أن يقوم البرهان عندهم أن هناك إرادة غير مكيفة ، لا يقال عنها إرادة قديمة يلزم عنها حادث ، ولا إرادة حادثة مثل التي في الشاهد ؛ بل هي إرادة المقول الإنسانية مقصورة عن تسكيها ، كما هي مقصورة عن تسكي صفات التي وصف بها نفسه ... »

(٣) سقط في «ب» . (٤) سقط في «ب» .

يكون هذا الفعل من الله تعالى ، في نفس من اصطلي من عباده ، بواسطة ما
إلا أنه ليس يجب أن يكون لفظاً ولا بد مخلوقاً له ؛ بل قد يكون بواسطة
ملك ، وقد يكون وحياً ، أى بغير لفظ [يخلقه ؛ بل يفعل فعلاً في السامع
ينكشف له به ذلك المعنى . وقد يكون بواسطة لفظ]^(١) يخلقه الله في سمع
المختص بكلامه سبحانه . وإلى هذه^(٢) الأطوار الثلاثة الإشارة بقوله تعالى :
« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا
فيوحي ما يشاء » . فالوحي هو وقوع ذلك المعنى في نفس الموحى إليه
بغير واسطة لفظ يخلقه ؛ بل بانكشاف ذلك المعنى له بفعل يفعله في نفس
المخاطب ، كما قال تبارك وتعالى : « فكان قاب قوسين أو أدنى / فأوحى إلى عبده ٣٦ / ب
ما أوحى » . ود من وراء حجاب ، هو الكلام الذى يكون بواسطة ألفاظ
يخلقها [الله]^(٣) في نفس^(٤) الذى اصطفاها بكلامه . وهذا هو كلام حقيقى ،
وهو الذى خص الله به موسى . ولذلك قال تعالى : « وكلم الله موسى
تكليماً » . وأما قوله : « أو يرسل رسولا »^(٥) فهذا هو القسم الثالث ،
وهو الذى يكون منه بواسطة الملك ، وقد يكون من كلام الله ما يلقاه الله
إلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بواسطة^(٦) البراهين . وهذه الجهة صرح عند
العلماء أن القرآن كلام الله .

فقد تبين لك أن القرآن الذى هو كلام الله قديم ، وأن اللفظ الدال
عليه مخلوق له سبحانه ، لا لبشر . وبهذا باين لفظ القرآن الألفاظ التى ينطق
بها في غير القرآن ، أعنى أن هذه الألفاظ هى فعل لنا بإذن الله . وألفاظ
القرآن هى خلق الله . ومن لم يفهم هذا على هذا الوجه لم يفهم هذه الصورة ،
ولا يفهم كيف يقال في القرآن إنه كلام الله . وأما الحروف التى في

(١) إسقط في « ١ » (٢) في نسخة س : هذا (٣) سقطت في نسخة « س »

(٤) في « ١ » : سمع (٥) في « ١ » : فيوحي (٦) في النسخ الأخرى : بواسطة

المصحف فإنما هي من صنعنا بإذن الله . وإنما وجب لها التعظيم لأنها دالة على اللفظ المخلوق لله ، وعلى المعنى الذى ليس بمخلوق . ومن نظر إلى اللفظ دون المعنى ، أعنى لم يفصل الأمر ، قال إن القرآن مخلوق . ومن نظر إلى المعنى الذى يدل عليه اللفظ قال إنه غير مخلوق ، والحق هو الجمع بينهما .

والأشعرية قد نفوا أن يكون المتكلم فاعلاً للكلام ؛ لأنهم تخيلوا أنهم إذا سلبوا هذا الأصل وجب أن يعترفوا أن الله فاعل لكلامه . ولما اعتقدوا أن المتكلم هو الذى يقوم^(١) الكلام بذاته ظنوا أنهم يلزمهم عن هذين الأصلين أن يكون الله فاعلاً للكلام بذاته ، فتكون ذاته محلاً للحوادث . فقالوا المتكلم / ليس فاعلاً للكلام . وإنما هي صفة قديمة لذاته ، كالعلم وغير ذلك . وهذا يصدق على كلام النفس ، ويكذب على الكلام الذى يدل على مافى النفس ، وهو اللفظ .

والمعتزلة لما ظنوا أن الكلام هو مفعله المتكلم قالوا إن الكلام هو اللفظ فقط . ولهذا قال هؤلاء إن القرآن مخلوق . واللفظ عند هؤلاء من حيث هو فعل فليس من شرطه أن يقوم بفعله . والأشعرية تميمسك بأن من شرطه أن يقوم بالمتكلم . وهذا صحيح فى الشاهد فى الكلامين معاً ، أعنى كلام النفس واللفظ الدال عليه . وأما فى الخالق فكلام النفس هو الذى قام به . فأما الدال عليه فلم يقم به سبحانه . فالأشعرية لما شرطت أن يكون الكلام بإطلاق قائماً بالمتكلم أنكرت أن يكون المتكلم فاعلاً للكلام بإطلاق . والمعتزلة لما شرطت أن يكون المتكلم فاعلاً للكلام بإطلاق أنكرت كلام النفس . وفى قول كل واحدة من الطائفتين جزء من الحق وجزء من الباطل ، على ما لاح لك من قولنا .

* * *

(١) فى نسخة س : يقول ، وهو كصيف إذ يقول بعد ذليل : (ليس من شرطه أن يقوم بفعله

وأما صفتنا^(١) السمع والبصر [فإنما أثبتهما الشرع لله تبارك وتعالى من قبل أن السمع والبصر]^(٢) يختصان بمعان مدركة في الموجودات ليس يدركها العقل . ولما كان الصانع من شرطه أن يكون مدركاً لكل ما في المصنوع وجب أن يكون له هذان الإدراكان . فواجب أن يكون عالماً بمدركات البصر وعالماً بمدركات السمع ؛ إذ هي مصنوعات له . وهذه كلها منبهة على وجودها للخالق سبحانه في الشرع من جهة تنبيهه على وجود العلم له . وبالجملة فما يدل عليه اسم الإله واسم المعبود فيقتضى أن يكون مدركاً بجميع^(٣) الإدراكات ؛ لأنه / من الحبث أن يعبد الإنسان من لا يدرك أنه عابد له . ٣٧/ب كما قال تعالى : « يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يسمع ولا يفتي عنك شيئاً ، وقال تعالى : « أفتعبدون من دون الله مالا يشفعكم شيئاً ولا يضركم . ، فهذا القدر مما يوصف به الله سبحانه ، ويسمى به ، هو القدر الذي نص الشرع أن يعلمه الجمهور ، لا غير ذلك .

ومن البدع التي حدثت في هذا الباب السؤال عن هذه الصفات : هل هي الذات أم زائدة على الذات ، أي هل هي صفة نفسية أو صفة معنوية ؟ وأعني بالنفسية التي توصف بها الذات لنفسها ، لالقيام معنى فيها زائد على الذات ، مثل قولنا واحد وقديم . والمعنوية التي توصف بها الذات لمعنى قائم فيها - فإن الأشعرية يقولون إن هذه الصفات هي صفات معنوية ، وهي صفات زائدة على الذات . فيقولون إنه عالم بعلم زائد على ذاته ، وحى بحياة زائدة على ذاته ، كالحال في الشاهد . ويلزمهم على هذا أن يكون الخالق جسماً ؛ لأنه يكون هنالك صفة وموصوف وحامل ومحمول ، وهذه هي حال الجسم . وذلك أن الذات لا بد أن يقولوا إنها قائمة بذاتها والصفات

(١) في «س» : صفة . (٢) سقط في «ب» . (٣) في «ا» : الجميع .

قائمة بها ، أو يقولوا إن كل واحد منها قائم بنفسه فالآلهة كثيرة . وهذا قول النصارى الذين زعموا أن الأقانيم ثلاثة : أقانيم الوجود والحياة والعلم . وقد قال تعالى في هذا : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » ، وإن قالوا أحدهما قائم بذاته والآخر قائم بالقائم بذاته فقد أوجبوا أن يكون جوهرًا وعرضًا ؛ لأن الجوهر هو القائم بذاته ، والعرض هو القائم بغيره ، والمؤلف من جوهر وعرض جسم ضرورة .

١/٢٨ وكذلك قول المعتزلة في هذا / الجواب « إن الذات والصفات شيء واحد ، هو أمر بعيد من العارف الأول ؛ بل يظن أنه مضاد لها . وذلك أنه يظن أنه من المعارف الأول أن العلم يجب أن يكون غير العالم ، وأنه ليس يجوز أن يكون العلم هو العالم ، إلا لو جاز أن يكون أحد المضافين قرينة ، مثل أن يكون الأب والابن معنى واحداً بعينه . فهذا تعليم بعيد عن أفهام الجمهور والتصريح به بدعة وهو أن يضل الجمهور أخرى منه أن يرشدهم : (١) وليس عند المعتزلة برهان على وجوب هذا في الأول سبحانه ؛ إذ ليس عندهم برهان ، ولا عند المتكلمين ؛ على نفي الجسمية عنه ؛ إذ نفي الجسمية عندهم عنه انبنى على وجوب الحدوث للجسم بما هو جسم . وقد بينا في صدر هذا الكتاب أنه ليس عندهم برهان على ذلك [وأن الذين (٢) عندهم برهان على ذلك] (٣) هم العلماء .

ومن هذا الموضع زل النصارى . وذلك أنهم اعتقدوا كثرة الأوصاف . وأنها جواهر ، لا قائمة بغيرها ؛ بل قائمة بتعسها كالذات ، واعتقدوا أن الصفات التي بهذه الصفة هما صفتان : العلم والحياة . قالوا فالإله واحد

(١) يجمل أن رشد في الواقع إلى رأى المعتزلة ، وسوف يصرح به في كتاب تهافت التهافت . انظر كتابنا نظرية المعرفة عند ابن رشد — القسم ثانى — الفصل الأول ، الفقرة الثالثة من ص ١٣٨ إلى ص ١٤٨ .

(٢) سقط في « د » .

(٣) في « س » : الذى

من جهة ، ثلاثة من جهة ، يريدون أنه ثلاثة من جهة أنه موجود وحى
وعالم : وهو واحد من جهة أن مجموعها شيء واحد . فهنا ثلاثة مذاهب :
مذهب من رأى ^(١) أنها نفس الذات ولا كثرة هنالك ، ومذهب من رأى
الكثرة ، وهؤلاء قسمان : منهم من جعل الكثرة [كثرة] ^(٢) قائمة بذاتها ،
ومنهم من جعلها كثرة قائمة بغيرها ، وهذا كله بعيد عن مقصد الشرع . وإذا
كان هذا هكذا فإذا الذى ينبغي أن يعلم الجمهور من أمر هذه الصفات هو
ما يصرح به الشرع فقط ، وهو الاعتراف بوجودها ، دون تفصيل / الأمر ٣٨/ب
فها هذا التفصيل ؛ فإنه ليس يمكن أن يحصل عند الجمهور فى هذا يقين
أصلا . وأعنى هنا بالجمهور كل من لم يعن بالصنائع البرهانية ، وسواء
كان حصلت له صناعة الكلام أو لم تحصل له . فإنه ليس فى قوة صناعة
الكلام الوقوف على هذا القدر من المعرفة ؛ إذ أغنى مراتب صناعة
الكلام أن يكون حكمة جدلية لا برهانية . وليس فى قوة صناعة الجدل
الوقوف على الحق فى هذا . فقد تبين من هذا القول القدر الذى صرح
به للجمهور من المعرفة فى هذا ، والطرق التى سلكت بهم فى ذلك . ^(٣)

(١) و نسخة س : رأ . (٢) توجد و نسخة «س» .
(٣) فى «أ» زيادة : « وأن المصنف الذى سلك اتس فى هذه الأشياء وزعموا أنها
من أصل المصنف ليست من أصل المصنف ؛ بل هى مسكوت عن فى المصنف . »

الفصل الرابع

في معرفة التنزيه

وإذ قد تقرر من هذا ^(١) المناهج التي سلكها الشرع في تعليم الناس أولاً وجود الخالق سبحانه ، والطرق التي سلكها في نفي الشريك عنه ثانياً ، والتي سلكها ثالثاً في معرفة صفاته ، والقدر الذي صرح به من ذلك في جنس جنس من هذه الأجناس ، وهو القدر الذي [إذا] ^(٢) زيد فيه أو نقص أو حُرف أو أُوِّل لم تحصل به السعادة المشتركة للجميع — فقد بقي علينا أن نعرف أيضاً الطرق التي سلكها بالناس في تنزيه الخالق سبحانه عن النقائص ومقدار ما صرح به من ذلك ، والسبب الذي من قبله اقتصر بهم على ذلك المقدار . ثم نذكر بعد ذلك الطرق التي سلك بها الناس في معرفة أفعاله ، والقدر الذي سلك بهم من ذلك . فإذا تم لنا هذا فقد استوفينا غرضنا الذي قصدناه .

ف نقول : أما معرفة هذا الجنس الذي هو التنزيه والتقديس فقد صرح به أيضاً في غير ما آية من الكتاب العزيز ؛ وأبينها في ذلك وأتمها قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » وهو السميع البصير ، وقوله « أفن يخلق ١/ ٣٩ كمن لا يخلق » ^(٣) هي برهان قوله تعالى : « ليس كمثله شيء » . وذلك / أنه من المعروز في فطر الجميع أن الخالق يجب أن يكون : [ما على غير صفة الذي لا يخلق شيئاً ، [أو على صفة غير شبيهه بصفة الذي لا يخلق شيئاً] ^(٤)

(١) في نسخة «مولار» وفي طبعة مصر : هذه .

(٢) توجد في مخطوط «أ» فقط .

(٣) في «أ» زيادة وهي : « أفن لا يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكر » والآية الأولى

هي نتيجة . وهذه الثانية برهانية ، أعني أن قوله تعالى « أفن يخلق كمن لا يخلق » برهان قوله :

« ليس كمثله شيء » . (٤) سقط في «ب» .

وإلا كان من يخلق ليس بخالق . فإذا أضيف إلى هذا الأصل أن المخلوق ليس بخالق لزم عن ذلك أن تكون صفات المخلوق : إما منتفية عن الخالق ، وإما موجودة في الخالق على غير الجهة التي هي عليها في المخلوق . وإنما قلنا على غير الجهة لأن من الصفات التي في الخالق صفات استدللنا على وجودها بالصفات التي في أشرف المخلوقات ههنا ، وهو الإنسان ، مثل إثبات العلم له والحياة والقدرة والإرادة وغير ذلك . وهذا هو معنى قوله عليه السلام : « إن الله خلق آدم على صورته » .

وإذا تقرر أن الشرع قد صرح بنفي المماثلة بين الخالق والمخلوق ، وصرح بالبرهان الموجب لذلك ، وكان نفي المماثلة يفهم منه شيان : أحدهما أن يعدم الخالق كثيراً من صفات المخلوق ، والثاني ^(١) أن توجد فيه صفات للمخلوق على جهة أتم وأفضل مما لا يتناهى في العقل . فلينظر فيما صرح به الشرع من هذين الصنفين وما سنكت عنه ، وما السبب الحكيم في سكوتنا ؟ فنقول : أما ما صرح الشرع به من نفي صفات المخلوق عنه فما كان ظاهراً من أمره أنه من صفات النقائص . فمنها الموت ، كما قال تبارك وتعالى : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » ، ومنها النوم وما دونه بما يقتضى الغفلة والسهو عن الإدراكات والحفظ للموجودات ، وذلك مصرح به في قوله تعالى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ، ومنها النسيان والخطأ ، كما قال تعالى : « [علمها عند ربى] » ^(٢) في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، والوقوف على انتفاء هذه النقائص هو قريب من العلم الضروري . وذلك أن ما كان قريباً / ٣٨ ب من هذه من العلم الضروري فهو الذى صرح الشرع بنفيه عنه سبحانه ، وأما ما كان بعيداً عن المعارف الأولى الضرورية فإنما نبه عليه ، بأن عرف أنه من علم الأقل من الناس ، كما قال تعالى في غير ما آية من الكتاب :

(١) في جميع النسخ الأخرى : « الثاني » . (٢) سقط في مخطوط « د » .

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، مثل قوله تعالى : الخالق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، » ومثل قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . » فإن قيل : فما الدليل على نفي هذه النقائص عنه ، أعني الدليل الشرعي ، قلنا : الدليل عليه ما ظهر من أن الموجودات محفوظة لا يتخللها اختلال ولا فساد . ولو كان الخالق تدركه غفلة أو خطأ أو نسيان أو سهو لاختلت الموجودات . وقد نبه الله تعالى على هذا المعنى في غير ما آية من كتابه ، فقال تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، [ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ،] ^(١) الآية ، وقال تعالى : « ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم . »

[القول في صفة الجسمية]

فإن قيل : فما تقول في صفة الجسمية : هل هي من الصفات التي صرح الشرع بنفيها عن الخالق أو هي من المسكوت عنها ، فنقول : إنه من البين من أمر الشرع أنها من الصفات المسكوت عنها ، [وهي إلى التصريح بإثباتها في الشرع أقرب منها إلى نفيها] ^(٢) ؛ وذلك أن الشرع قد صرح بالوجه واليدين في غير ما آية من الكتاب العزيز . وهذه الآيات قد توهم أن الجسمية هي له من الصفات التي فضل فيها الخالق المخلوق ، كما فضل في صفة القدرة والإرادة ، وغير ذلك من الصفات التي هي مشتركة بين الخالق والمخلوق ؛ إلا أنها في الخالق / آتم وجوداً . ولهذا صار كثير من أهل

(١) سقط في « ١ »

(٢) سقط في « ١ »

الإسلام إلى أن يعتقدوا في الخالق أنه جسم لا يشبه سائر الأجسام . وعلى هذا الخبايلة ، وكثير من تبعهم .^(١)

والواجب عندى في هذه الصفة^(٢) أن يُجرى فيها على منهاج الشرع ، فلا يصرح فيها بنفى ولا إثبات^(٣) ، ويحجب من سأل في ذلك من الجمهور بقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » وهو السميع البصير ، وينهى عن هذا السؤال ؛ وذلك لثلاثة معان :

أحدها أن إدراك هذا المعنى^(٤) ليس هو قريباً من المعروف بنفسه ، برتبة واحدة ، ولا ربتين ولا ثلاث . وأنت تبين ذلك من الطريق التى سلكها المتكلمون فى ذلك . فإنهم قالوا إن الدليل على أنه ليس بجسم أنه قد تبين أن كل جسم محدث . وإذا سئلوا عن الطريق التى منها يوقف على أن كل جسم محدث سلكوا فى ذلك الطريق التى ذكرناها من حدوث الأعراض ، وأن ما لا يتعزى عن الحوادث حادث . وقد تبين لك من قولنا إن هذه الطريق ليست برهانية ، ولو كانت برهانية لما كان فى طباع الغالب من الجمهور أن يصلوا إليها . وأيضاً فإن ما يضعه هؤلاء القوم من أنه سبحانه ذات وصفات زائدة على الذات يوجبون بذلك أنه جسم أكثر مما ينفون عنه الجسمية ، بدليل انتفاء الحدوث عنه . فهذا هو السبب الأول فى أن لم يصرح الشرع بأنه ليس بجسم .

وأما السبب الثانى فهو أن الجمهور يرون أن الموجود هو المتخيل والمحسوس ، وأن ما ليس بمتخيل ولا بمحسوس فهو عدم . فإذا قيل لهم إن ههنا موجوداً ليس بجسم ارتفع عنهم التخيل ، فصار عندهم من قبيل

(١) توجد هنا زيادة فى نسخة « ١ » ، وهى ركبة ، وليست من أسلوب ابن رشد ، ولا تحتوى على معنى جديد .

(٢) فى « ١ » زيادة هى : « قبل أن يهرج الفرق الضالة بانباتها . »

(٣) هذا هو مذهب السلف (٤) فى « ١ » زيادة هى : « أعنى أنه ليس بجسم الذى موافق »

المعدوم ، ولا سيما إذا قيل إنه لا خارج العالم ولا داخله ، ولا فوق ولا أسفل ، ولهذا اعتقدت الطائفة الذين أثبتوا ^(١) الجسمية في الطائفة / ب. / التي نفتها عنه سبحانه أنها ملشية ، واعتقد ^(٢) الذين نفوها ^(٣) في المثبتة أنها مكثرة .

وأما السبب الثالث فهو أنه إذا صرح بنفي الجسم عرضت في الشرع شكوك كثيرة ، مما يقال في المعاد وغير ذلك . فمنها ما يعرض من ذلك في الرؤية التي جاءت بها السنة الثابتة . وذلك أن الذين صرحوا بنفيها فرقتان : المعتزلة والأشعرية . فأما المعتزلة فدعاهم هذا الاعتقاد إلى أن نفوا الرؤية . وأما الأشعرية فأرادوا أن يجمعوا بين الأمرين ، ففسر ذلك عليهم ، ولجأوا في الجمع إلى أقاويل سوفسطائية سترشد إلى الوهن الذي فيها عند الكلام في الرؤية . ومنها أنه يجب انتفاء الجهة ، في بادئ الرأي ، عن الخالق سبحانه أنه ليس بجسم ، فترجع الشريعة من مشابهة . وذلك أن بعث الأنبياء أنبيى على أن الوحي نازل إليهم من السماء . وعلى ذلك انبئت شريعتنا هذه ، أهنى أن الكتاب العزيز نزل من السماء ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » ، وأنبيى نزل الوحي من السماء على أن الله في السماء ، وكذلك كون الملائكة تنزل من السماء ، وتصعد إليها ، كما قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ، وقال تعالى : تعرج الملائكة والروح إليه » ، وبالجملة جميع الأشياء التي تلزم القائلين بنفي الجهة ، على ما سنذكره بعد عند التكلم في الجهة . ومنها أنه إذا صرح بنفي الجسمية وجب التصريح بنفي الحركة . فإذا صرح بنفي هذا عسر ما جاء في صفة الحشر ، من أن الباري يطلع على أهل الحشر ، وأنه الذي يتولى حسابهم ، كما قال تعالى : وجاء ربك والملك صفاً صفاً .

(٢) في «س» : ~~أثبتوا~~ ١

(١) في «١» التي أثبتت

(٣) في «١» اعتقدوا التي نفتها .

وذلك يصعب تأويل حديث النزول المشهور، وإن كان التأويل أقرب
إليه منه إلى أمر الحشر مع أن مجاء / في الحشر متواتر في الشرع .

فيجب ألا يصرح للجمهور بما يؤول عندهم إلى إبطال هذه الظواهر؛
فإن تأثيرها في نفوس الجمهور إنما هو إذا حملت على ظاهرها . وأما إذا
أولت فإنما يؤول الأمر فيها إلى أحد أمرين : إما أن يسلط التأويل على
هذه وأشياء هذه في الشريعة ، فتتمزق الشريعة كلها ، وتبطل الحكمة
المقصودة منها ؛ وإما أن يقال في هذه كلها إنها من المتشابهات . [وهذا كله
بطلان للشريعة ومحورها من النفوس ، من غير أن يشعر الفاعل لذلك
بعضيم ما جناه على الشريعة] ^(٢) ، مع أنك إذا اعتبرت الدلائل التي احتج
بها المؤولون لهذه الأشياء تجدوها كلها غير برهانية ؛ بل الظواهر الشرعية
أقنع منها ، أعني أن التصديق بها أكثر . وأنت تبين ذلك من قولنا في
البرهان الذي بنوا عليه نفي [الجسمية . وكذلك تبين ذلك في البرهان
الذي بنوا عليه نفي] ^(٣) الجهة ، على ما سنقول به بعد .

وقد يدل ذلك على أن الشرع لم يقصد التصريح بنفي هذه الصفة [للجمهور] ،
أن لمكان انتفاء هذه الصفة] ^(٤) عن النفس ، أعني الجسمية ، لم يصرح
الشرع للجمهور بما هي النفس ، فقال في الكتاب العزيز : « ويسألونك
عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وذلك
أنه يعسر قيام البرهان عند الجمهور على وجود موجود قائم بذاته ليس بجمع .
ولو كان انتفاء هذه الصفة مما يقف عليه الجمهور لاكتفى بذلك الخليل ،
صلى الله عليه وسلم ، في محاجة الكافر ، حين قال له : « رب الذي يحيي ويميت
قال أنا أحيي وأميت ، الآية ؛ لأنه كان يكتفي بأن يقول له : أنت جسم

(١) في « أ » وفي نسخة « مؤلف » : وكذلك . (٢) سقط في « أ » .

(٤) سقط في « ب » .

(٣) سقط في « ب » .

والله ليس بجسم ؛ لأن كل جسم محدث ، كما تقول الأشعرية . وكذلك كان يكتفى موسى ، عليه السلام ، عند حاجته لفرعون في دعواه الإلهية . (١) وكذلك كان يكتفى صلى الله عليه وسلم في أمر الدجال / في إرشاد المؤمنين ١/٤١ إلى كذب ما يدعيه من الربوبية من أنه جسم والله ليس بجسم ؛ بل قال عليه السلام [في إرشاد المؤمنين إلى كذب ما يدعيه من الربوبية] (٢) ، : « إن ربكم ليس بأعور » . فاكتمى بالدلالة على كذبه بوجود هذه الصفة الناقصة التي ينتفى ، عند كل أحد ، وجودها ، ببديهة العقل ، في الباري سبحانه . (٣)

فهذه كلها ، كما تراه ، بدع حادثة في الإسلام هي السبب فيما عرض فيه من الفرق التي أنبا المصطفى أنها ستفترق أمته إليها . -

فإن قال قائل : فإذا لم يصرح الشرع للجمهور لا بأنه جسم ولا بأنه غير جسم فما عسى أن يجابوا في جواب ما هو ؟ فإن هذا السؤال طبعى للإنسان ، وليس يقدر أن ينفك عنه ؛ ولذلك ليس يقنع الجمهور أن يقال لهم في موجود وقع الاعتراف به ، أنه لا ماهية له ؛ لأن مالا ماهية له لا ذات له .

قلنا الجواب في ذلك أن يجابوا بجواب الشرع ، فيقال لهم : إنه نور . فإنه الوصف الذي وصف الله به نفسه في كتابه العزيز ، على جهة ما يوصف الشيء بالصفة التي هي ذاته ، فقال تعالى : « الله نور السموات والأرض » . وبهذا الوصف وصفه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، في الحديث الثابت . فإنه جاء إنه قيل له عليه السلام : هل رأيت ربك ؟ قال نوراني أراه . وفي حديث الإسراء أنه لما قرب ، صلى الله عليه وسلم ، من سدرة المنتهى غشى السدرة من النور ما حجب بصره عن النظر إليها وإليه سبحانه . (٤)

(١) في « ١ » : الألوهية (٢) توجد هذه الزيادة في نسخة الأسكوريال .

(٣) زيادة في « ١ » : « وكذلك كان يكتفى بنى الجسمية في عجل بنى إسرائيل . . . » .

(٤) هكذا في « ١ » . أما بقية النسخ فجاء فيها « أولية سبحانه » .

وفي كتاب مسلم : إن لله حجاباً من نور لو كشف لاحترقت سبحات وجهه ما اتمى إليه بصره . وفي بعض روايات هذا الحديث « سبعين حجاباً من نور » ، وبذبحي أن تعلم أن هذا المثال شديد المناسبة للخالق / سبحانه ؛ لأنه يجتمع [فيه] ^(١) أنه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه ، وكذلك الأفهام . مع أنه ليس بجسم ، والموجود ^(٢) عند الجمهور إنما هو المحسوس ، والمعدوم عندهم هو غير المحسوس ، والنور لما كان أشرف الموجودات وجب أن يمثل لهم به ^(٣) أشرف الموجودات . وههنا أيضاً سبب آخر وجب أن يسمى به نوراً ، وذلك أن حال وجوده من عقول العلماء الراسخين في العلم ، عند النظر إليه بالعقل ، هي حال الأبصار عند النظر إلى الشمس ؛ بل حال عيون الخفافيش . وكان هذا الوصف لائقاً عند الصنفين من الناس ، وحقاً . وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى لما كان سبب الموجودات وسبب إدراكنا لها ، وكان النور مع الألوان هذه صفته ، أعنى أنه سبب وجود الألوان بالفعل وسبب رؤيتنا لها ، فبالحق ما سمي الله تبارك وتعالى نفسه نوراً . وإذا قيل إنه نور لم يعرض شك في الرؤية التي جاءت في الميعاد .

فقد تبين لك من هذا القول الاعتقاد الأول الذي في هذه الشريعة ، في هذه الصفة ، وما حدث في ذلك من البدعة . وإنما سككت الشرع عن هذه الصفة لأنه لا يعترف بوجود في الغائب أنه ليس بجسم إلا من أدرك ببرهان أن في الشاهد موجوداً بهذه الصفة ، وهي النفس . ولما كان الوقوف على معرفة هذا المعنى من النفس بما لا يمكن الجمهور لم يمكن فهم أن يعقلوا وجود موجود ليس بجسم . فلما حججوا عن معرفة اليقين ^(٤) علمنا أنهم

(١) سقط في « أ » . (٢) في « س » وفي نسخة موال : الموجود .

(٣) في « ب » وفي نسخة موال : يمثل به . (٤) في « أ » : النفس .

حججوا عن معرفة هذا المعنى من الباري سبحانه (١)

القول في الجمة

وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة ، من أول الأمر ، يثبتونها قد سبحانه حتى نفتها المعتزلة ، ثم تبعهم / على نفيا متأخرو الأشعرية ، كآبي ٤٢/ب المعالي ومن اقتدى بقوله . وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجمة ، مثل قوله تعالى (٢) : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، ومثل قوله : « يدبر الأرض من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ، ومثل قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه » الآية ، ومثل قوله تعالى : « أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور » ، إلى غير ذلك من الآيات ، التي إن سلط عليها التأويل عاد الشرع كله مؤولا ، (٣) وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشاهما ؛ لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء ، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين ، وأن من السماء نزلت السكتب ، وإليها كان الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى قرب من سدرة المنتهى . وجميع الحكماء قد اتفقوا أن الله والملائكة في السماء ، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك .

والشبهة التي قادت فغاة الجمة إلى نفيا هي أنهم اعتقدوا أن إثبات الجمة يوجب إثبات المسكان ، وإثبات المسكان يوجب إثبات الجسمية .

(١) توجد « ١ » زيادة في ورقة ٤٦ ، وهي مأخوذة من كلام سابق في ورقة ٢١ ، وهي ثمانية عشر سطرا .

(٢) زيادة في مخطوط « ١ » : الرحمن على العرش استوى ، ومثل قوله تعالى : « وسيعرسيه السموات والأرض » ومثل قوله تعالى « الفخ » .

(٣) في س : مأولا .

ونحن نقول إن هذا كله غير لازم؛ فإن الجهة غير الممكن. وذلك أن الجهة هي : إما سطوح الجسم نفسه المحيطة به ، وهي ستة ، وبهذا نقول إن للحيوان فوق وأسفل ، ويمينا وشمالا ، وأمام وخاف ؛ وإما سطوح جسم آخر يحيط بالجسم ذى الجهات الست . فاما الجهات التى هى سطوح الجسم نفسه فليست بمكان للجسم نفسه أصلا . وأما سطوح الأجسام المحيطة به فهى له مكان ، مثل سطوح الهواء المحيطة بالإنسان وسطوح الفلك المحيطة بسطوح الهواء هى أيضاً مكان للهواء . وهكذا الأتلاك بعضها محيطة ببعض ومكان له . وأما سطح الفلك الخارجى فقد تبين أنه ليس خارجه جسم / ؛ لأنه لو كان (١) كذلك لوجب أن يكون خارج هذا الجسم جسم آخر ، ويمر الأمر إلى غير نهاية . فإذا سطح آخر أجسام العالم ليس مكاناً أصلا ؛ إذ ليس يمكن أن يوجد فيه جسم ؛ لأن كل ما هو مكان يمكن أن يوجد فيه جسم . فإذا إن قام البرهان على وجود وجود فى هذه الجهة فوجب أن يكون غير جسم . فالذى يمتنع وجوده هناك هو عكس ما ظنه القوم ، وهو موجود هو جسم ، لا موجود ليس بجسم .

واليس لهم أن يقولوا : إن خارج العالم خلا . وذلك أن الخلا قد تبين، فى العلوم النظرية ، امتناعه ؛ لأن ما يدل عليه اسم الخلا ليس هو شيئاً أكثر من أبعاد ليس فيها جسم ، أعنى طولاً وعرضاً وعمقاً . لأنه إن رفعت الأبعاد عنه عاد عدما . وإن أنزل الخلا ، وجوداً لزم أن تكون أعراض موجودة فى غير جسم . وذلك أن الأبعاد هى أعراض من باب السكية ولا بد . ولكنه قيل فى الآراء السالفة القديمة والشرائع الغابرة أن ذلك الموضع هو مسكن الروحانيين يريدون الله والملائكة . وذلك أن ذلك الموضع ليس هو بمكان ولا يحويه زمان : وذلك أن كل ما يحويه

(١) طبعة مصر : ذلك كذلك .

الزمان والمكان فاسد . فقد يلزم أن يكون ما هنالك غير فاسد ولا كان . وقد تبين هذا المعنى مما أقوله . وذلك أنه لما لم يكن ههنا شيء إلا هذا الموجود المحسوس أو العدم ، وكان من ^(١) المعروف بنفسه أن الموجود إنما ينسب إلى الوجود أعني أنه يقال إنه موجود ، أى في الوجود ؛ إذ لا يمكن أن يقال إنه موجود في العدم - فإن كان ههنا موجود هو أشرف الموجودات فواجب أن ينسب من الموجود المحسوس إلى الجزء الأشرف ، وهو السموات . ولشرف هذا الجزء قال تبارك وتعالى : « خلقت السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . / وهذا كله يظهر على التام للعلماء الراسخين في العلم ^(٢) . ٤٣ / ب

فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل ، وأنه الذي جاء به الشرع ، وانبنى ^(٣) عليه ، وأن إبطال هذه القاعدة لإبطال للشرائع ، وأن وجه العسر في تفهيم هذا المعنى ، مع نفي الجسمية ، هو أنه ليس في الشاهد مثال له . فهو بعينه السبب في أن لم يصرح الشرع بنفي الجسم عن الخالق سبحانه ؛ لأن الجمهور إنما يقع لهم التصديق بحكم الغائب متى كان ذلك معلوم الوجود في الشاهد ، مثل العلم ؛ فإنه لما كان في الشاهد شرطاً في وجوده كان شرطاً في وجود الصانع الغائب . وأما متى كان الحكم الذي في الغائب غير معلوم الوجود في الشاهد عند الأكثر ، ولا يعلمه إلا العلماء الراسخون ، فإن الشرع يزجر عن طلب معرفته ، إن لم تكن بالجمهور حاجة إلى معرفته ، مثل العلم بالنفس ، أو يضرب لهم مثلاً من الشاهد ، إن كان بالجمهور حاجة إلى معرفته في سعادتهم ، وإن لم يكن ذلك

(١) في « ١ » : كان .

(٢) يحتوي مخطوط « ١ » على زيادة ٩ أسطر في ورقة ٤٦ . وفي رأينا أنها من ناسخ المخطوط ، لأنها تشير إلى رأى الباطنية ، وابن رشد ليس من هذه الطائفة .

(٣) في س : : أثبتنا .

المثال هو نفس الأمر المقصود تفهيمه . مثل كثير مما جاء في أحوال المعاد .

والشبهة الواقعة في نبي الجهة عند الذين نفوها ليس يتفطن الجمهور إليها ، لا سيما إذا لم يصرح لهم بأنه ليس بجسم ، فيجب أن يمثل في هذا كله فعل الشرع ، ولا يتأول^(١) ما لم يصرح الشرع بتأويله^(٢).

والناس في هذه الأشياء في الشرع على ثلاث رتب : صنف لا يشعرون بالشكوك العارضة في هذا المعنى ، وخاصة متى تركت هذه الأشياء على ظاهرها في الشرع . وهؤلاء هم الأكثر وهم الجمهور^(٣) . وصنف عرضت لهم في هذه الأشياء شكوك ، ولم يقدرُوا على حلها ، وهؤلاء هم فوق العامة ودون العلماء ، وهذا الصنف هم الذين يوجد في حقهم التشابه في الشرع ، وهم الذين ذمهم / الله تعالى . وأما عند العلماء والجمهور فليس في الشرع تشابه . فعلى هذا المعنى ينبغي أن يفهم التشابه . ومثال ما عرض لهذا الصنف مع الشرع مثل ما يعرض لحب البر مثلاً ، الذي هو الغذاء النافع لأكثر الأبدان ، أن يكون لأقل الأبدان ضاراً ، وهو نافع للأكثر . وكذلك التعليم الشرعي هو نافع للأكثر ، وربما ضرر بالأقل . ولهذا الإشارة بقوله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » .

لكن هذا إنما يعرض في آيات الكتاب العزيز في الأقل منها والأقل من الناس . وأكثر ذلك هي الآيات التي تتضمن الإعلام عن أشياء في الغائب ليس لها مثال في الشاهد . فيعبر عنها بالشاهد الذي هو أقرب الموجودات إليها ، وأكثرها شهماً بها . فيعرض لبعض الناس

(١) في ١ ، ب : « ولا فيقول » .

(٢) توجد في « ١ » زيادة من النسخ ، وفيها يستشهد بما قاله الإمام المهدي : «

(٣) في « ١ » : « وصنف عرفوا حقيقة هذه الأشياء . وهم انراستخون في العلم ، وهم الأقل من الناس » .

أن يأخذ الممثل به هو المثال نفسه ، فتلزمه الحيرة والشك ، وهو الذى يسمى متشابهاً فى الشرع . وهذا ليس بعرض للعلماء ولا للجمهور ، وهم صنفان الناس بالحقيقة ، لأن هؤلاء هم الأصحاء ، والغذاء الملائم إنما يوافق أبدان الأصحاء . وأما أولئك فرضى . والمرضى هم الأقل . ولذلك قال تعالى : « فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة . . . وهؤلاء هم اهل الجدل والكلام » .

وأشد ما عرض على الشريعة من هذا النصف أنهم تأولوا كثيراً بما ظنوه ليس على ظاهره ، وقالوا إن هذا التأويل ليس هو المقصود به ، وإنما أتى الله به فى صورة التشابه ابتلاء لعباده واختباراً لهم . ونعوذ بالله من هذا الظن باقه ، بل نقول إن كتاب الله العزيز إنما جاء معجزاً من جهة الوضوح والبيان : فإذا ما أبعد من مقصد الشرع من قال [فيما] (١) ليس بتشابه إنه متشابه . ثم إنه أول ذلك التشابه بزعمه ، وقال لجميع الناس إن فرضكم هو / اعتقاد هذا التأويل ، مثل ما قالوه فى آية الاستواء على العرش ، ، ، / ب وغير ذلك مما قالوا إن ظاهره متشابه .

وبالجملة فأكثر التأويلات التى زعم القائلون بها أنها المقصود من الشرع إذا تؤملت وجدت ليس يقوم عليها برهان . ولا تفعل فعل الظاهر فى قبول الجمهور لها ، وعلمهم عنها . فإن [المقصود] (٢) الأول بالعلم فى حق الجمهور إنما هو العمل . فما كان أنفع فى العمل فهو أجدر . وأما المقصود بالعلم فى حق العلماء فهو الأمران جميعاً ، أعنى العلم والعمل [

* * *

ومثال من أول شيئاً من الشرع ، وزعم أن ما أوله هو ما قصد الشرع ، وصرح بذلك التأويل للجمهور ، مثال من أتى إلى دواء قد ركبته .

(٢) سقط فى ب ، ، .

(١) سقط فى ب ، ، .

طبيب ماهر ليحفظ صحة جميع الناس أو الأكثر ، فجاء رجل فلم يلاحظه ذلك الدواء المركب الأعظم لرداءة مزاج كان به ليس يعرض إلا للآفل من الناس ، فزعم أن بعض تلك الأدوية التي صرح باسمه الطبيب الأول في ذلك الدواء العام المنفعة المركب لم يُرد به ذلك الدواء الذي جرت العادة في اللسان أن يُدل بذلك الإسم عليه ، وإنما أريد به دواء آخر بما يمكن أن يدل عليه بذلك باستعارة بعيدة . فأزال ذلك الدواء الأول من ذلك المركب الأعظم ، وجعل فيه يدل الدواء الذي ظن أنه الذي قصده الطبيب . وقال للناس : هذا هو الذي قصده الطبيب الأول . فاستعمل الناس ذلك الدواء المركب على الوجه الذي تأوله عليه هذا المتأول . ففسدت به أمرجة كثير من الناس فجاء آخرون شعروا بفساد أمرجة الناس عن ذلك الدواء المركب ، فراموا لإصلاحه ، بأن أبدلوا بعض أدويته بدواء آخر غير الدواء الأول ، فعرض من ذلك للناس نوع من المرض غير النوع الأول ، فجاء ثالث فتأول في أدوية ذلك المركب غير التأويل الأول والثاني ، فعرض للناس من ذلك نوع ثالث من المرض غير النوعين المتقدمين . فجاء متأول رابع / ، فتأول دواء آخر غير الأدوية المتقدمة ، فعرض منه للناس نوع رابع من المرض غير الأمراض المتقدمة . فلما طال الزمان هذا المركب الأعظم ، وسلط الناس التأويل على أدويته وغيرها وبدلوها عرض منه للناس أمراض شتى ، حتى فسدت المنفعة المقصودة بهذا الدواء المركب في حق أكثر الناس . وهذه هي حال الفرقة (١) الحادثة في هذه الطريقة (٢) مع الشريعة ، وذلك أن كل فرقة منهم تأولت في الشريعة تأويلا غير التأويل الذي تأولته الفرقة الأخرى ، وزعمت

(١) في « أ » : الفرق (٢) في « س » : العربية

أنه الذي قصده صاحب الشرع ، حتى تمزق الشرع كل تمزق ، وبعد جداً
عن موضعه الأول .

ولما علم صاحب الشرع ، صلى الله عليه وسلم ، أن مثل هذا يعرض ،
ولا بد ، في شريعته قال : «ستفترق أمتي على اثنتين وسبعين فرقة كلها في
النار إلا واحدة» ، يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع ، ولم تؤوله
تأويلاً صرحت به للناس . وأنت إذا تأملت ما في (١) هذه الشريعة ،
في هذا الوقت ، من الفساد العارض فيها من قبل التأويل تبين أن هذا
المثال صحيح .

وأول من غير هذا الدواء الأعظم هم الخوارج ، ثم المعتزلة بعدهم .
ثم الأشعرية ، ثم الصوفية ، ثم جاء أبو حامد (٢) فظلم الوادي على القري .
وذلك أنه صرح بالحكمة كلها للجمهور ، وبآراء الحكماء ، على ما أداه
إليه فهمه ، وذلك في كتابه الذي سماه «بالمقاصد» (٣) . فزعم أنه إنما ألف
هذا الكتاب للرد عليهم . ثم وضع كتابه المعروف «بتنهات الفلاسفة» ،
فكفرهم فيه في مسائل ثلاث من جهة خرقهم فيها الإجماع كما زعم ،
وبدعهم في المسائل ، وأتى فيه بجميع شككته وشبه بحيرة أضل
كثيراً من الناس عن الحكمة وعن الشريعة . ثم قال في كتابه
المعروف «بجواهر القرآن» : إن الذي أثبتته في كتاب «التمهات» هي
أقوال جدلية ، وإن الحق إنما أثبتته في «المضنون» به على غير أهله . ، ، /
ثم جاء في كتابه المعروف «بمشكاة الأنوار» (٤) فذكر فيه مراتب العارفين

(٢) أبو حامد النزالي .

(١) في ١ : ما عرض في

(٣) مقاصد الفلاسفة .

(٤) يبدو في هذا الكتاب طابع التلقين ، وفيه فقرات تشبه أن يكون إسماعيلية ، مما يدعونا
إلى الشك في نسبته إلى النزالي .

بأنه ، فقال إن أسائرهم محجوبون إلا الذين اعتقدوا أن الله سبحانه غير محرك
السماء الأولى ، وهو الذى صدر عنه هذا المحرك . وهذا تصريح منه
باعتقاد مذاهب الحكماء فى العلوم الإلهية ^(١) ، وهو قد قال ^(٢) فى غير
ما موضح : إن علومهم الإلهية هى تخمينات بخلاف الأمر فى سائر علومهم .
وأما فى كتاب « المنقذ من الضلال » ^(٣) ، فأنهى فيه على الحكماء وأشار
إلى أن العلم إنما يحصل بالخلوة والفكرة ، وأن هذه المرتبة هى من جنس
مراتب الأنبياء فى العلم . وكذلك صرح بذلك بعينه فى كتابه الذى سماه
« بكيمياء السعادة » . فصار الناس بسبب هذا التشويش والتخليط فرقتين :
فرقة انتدبت لزم الحكماء والحكمة ، وفرقة انتدبت لتأويل الشرع وروم
صرفه إلى الحكمة . وهذا كله خطأ ؛ بل ينبغى أن يقر الشرع على ظاهره ،
ولا يصرح للجمهور بالجمع بينهما وبين الحكمة ؛ لأن التصريح بذلك هو تصريح
بنتائج الحكمة لهم ، دون أن يكون عندهم برهان عليها . وهذا لا يحل
ولا يجوز ، أعنى أن يصرح بشئ من نتائج الحكمة لمن لم يكن عنده البرهان
عليها ؛ لأنه لا يكون مع العلماء الجامعين بين الشرع والعقل ، ولا مع الجمهور
المتبعين لظاهر الشرع . فلحق من فعله هذا إخلال بالأمرين جميعاً ،
أعنى بالحكمة وبالشرع عند أناس ، وحفظ الأمرين جميعاً عند آخرين .
أما إخلاله بالشرعية فمن جهة إفصاحه فيها بالتأويل الذى لا يجب الإفصاح به .
وأما إخلاله بالحكمة فلا إفصاحه أيضاً بما لا يجب أن يصرح بها إلا فى
كتب البرهان . وأما حفظه للأمرين فلأن كثيراً من الناس لا يرى بينهما
١ / ٤٦ تعارضاً من جهة الجمع الذى استعمل بينهما . وأكد هذا المعنى / بأن عرف

(١) والواقع أن النزاع قد ارتضى إلى حد كبير ، ففكرة التثنية ، كما كان يعرضها الفارابى
وابن سينا .

(٢) فى « ١ » : وقد قال .

(٣) فى « ١ » ، وأما فى كتابه الذى سماه « المنقذ الخ » .

وجه الجمع بينهما ، وذلك في كتابه الذي سماه « التفرقة بين الإسلام والزندقة . » ، وذلك أنه عدد فيه أصناف التأويلات ، وقطع فيه على أن المؤول ليس بكافر ، وإن خرق الإجماع في التأويل . فإذا ما فعل من هذه الأشياء فهو ضار للشرع بوجه ، وللحكمة بوجه ، ولهما ^(١) بوجه . وهذا الذي فعله هذا الرجل إذا خص عنه ظهر أنه ضار بالذات للأمريين جميعاً ، أى الحكمة والشرعة ، وأنه نافع لهما بالعرض . وذلك أن الإفصاح بالحكمة لمن ليس بأهلها يلزم عن ذلك بالذات إما إبطال الحكمة وإما إبطال للشرعة . وقد يلزم عنه بالعرض الجمع بينهما .

والصواب كان ألا يصرح بالحكمة للجمهور . وأما وقد وقع التصريح بالصواب أن تعلم الفرقة من الجمهور التي ترى أن الشرعة مخالفة للحكمة أنها ليست مخالفة لها . وكذلك الذين يرون أن الحكمة مخالفة لها ، من الذين ينتسبون للحكمة ، أنها ليست مخالفة لها . وذلك بأن يعرف كل واحد من الفريقين أنه لم يقف على كنههما بالحقيقة ، أعنى لا على كنه الشرعة ، ولا على كنه الحكمة ، وأن رأى في الشرعة الذي اعتقد أنه مخالف للحكمة هو رأى إما مبتدع في الشرعة لا من أصلها ، وإما رأى خطأ في الحكمة ، أعنى تأويل خطأ عليها ، كما عرض في مسألة علم الجزئيات ^(٢) وفي غيرها من المسائل . ولهذا المعنى اضطررنا نحن ، في هذا الكتاب ، أن نعرف أصول الشرعة . فإن أصولها إذا توصلت وجدت أشد مطابقة للحكمة مما أول فيها . وكذلك رأى الذي ظن في الحكمة أنه مخالف للشرعة ^(٣) يعرف أن السبب في ذلك أنه لم يحيط علماً بالحكمة ولا بالشرعة .

(١) في « ١ » ونافع لهما بوجه .

(٢) انظر حل ابن رشد لمشكلة العلم الإلهي الخاص بالأشياء الجزئية في كتاب نظرية المعرفة عند ابن رشد . ط ، الأتملو المصرية سنة ١٩٦٤ م ١٧٣ وما بعدها .

(٣) في « ١ » زيادة : في شيء .

ولذلك اضطررنا نحن أيضاً إلى وضع قول ، أعني ، فصل المقال في موافقة
الحكمة للشريعة . (١)

[مسألة الرؤية]

شاذ / ~~وقد~~ قد تبين هذا فلنرجع إلى حيث كنا فنقول : إن الذي بقي علينا ٤٦ / ب
من هذا الجزء من المسائل المشهورة هي مسألة الرؤية ، فإنه قد يظن أن هذه
المسألة هي ، بوجه ما ، داخلية في الجزء المقدم (٢) لقوله تعالى : لا تدركه
الابصار وهو يدرك الأبصار . ولذلك أنكروا المعتزلة ، وردت الآثار
الواردة في الشرع بذلك مع كثرتها وشهرتها . فشنع الأمر عليهم . وسبب
وقوع هذه الشبهة في الشرع أن المعتزلة لما اعتقدوا انتفاء الجسمية عنه
سبحانه ، واعتقدوا وجوب التصريح بها لجميع المكلفين ، ووجب عندهم
إن انتفت الجسمية أن تلتقي الجهة ، وإذا انتفت الجهة انتفت الرؤية ؛
لإذ كل مرتى في جهة من الرائي . فاضطروا ، لهذا المعنى ، لرد الشرع
المنقول ، واعتلوا الأحاديث بأنها أخبار آحاد ، وأخبار الآحاد لا توجب
العلم ، مع أن ظاهر القرآن معارض لها ، أعني قوله تعالى : لا تدركه الأبصار ،
وأما الأشعرية فرأوا الجمع بين الاعتقادين ، أعني بين انتفاء الجسمية
وبين جواز الرؤية لما ليس بجسم بالحس ، ففسر ذلك عليهم ، ولجأوا في ذلك إلى
حجج سوفسطائية موهمة ، أعني الحجج التي توهم أنها حجج (٣) وهي كاذبة . وذلك
أنه يشبه أن يكون يوجد في الحجج ما يوجد في الناس ، أعني أنه كما يوجد
في الناس الفاضل التام الفضيلة ، ويوجد فيهم من دون ذلك في الفضل ،

(١) كتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الأعمال .

(٢) في ١ : المقدم .

(٣) في ١ : أنه صحيح .

ويوجد فيهم من يؤمن أنه فاضل ، وليس بفاضل ، وهو المرائي ، كذلك الأمر في الحجج ، أعني أن منها ما هو في غاية اليقين ، ومنها ما هو دون اليقين ، ومنها حجج مرائية ، وهي التي تؤمن أنها يقين ، وهي كاذبة . والآقاويل التي سلكتها الأشعرية في هذه المسألة منها أقاويل في دفع / دليل المعتزلة . ١/٤٧ ومنها أقاويل لهم في إثبات جواز الرؤية لما ليس بجسم ، وأنه ليس يعرض من فرضها محال .

فأما ما غاندوا به قول المعتزلة : أن كل مرتي فهو من جهة من الرائي . فمنهم من قال إن هذا إنما هو حكم الشاهد ، لا حكم الغائب ، وإن هذا الموضع ليس هو من المواضع التي يجب فيها نقل حكم الشاهد إلى الغائب ، وإنه جائز أن يرى الإنسان [ما ليس في جهة إذا كان جائزاً أن يرى الإنسان] ^(١) بالقوة المبصرة نفسها دون عين — وهو لاه اختلط عليهم إدراك العقل مع البصر ، ^(٢) فإن العقل هو الذي يدرك ما ليس في جهة أعني في مكان . وأما إدراك البصر فظاهر من أمره أن من شرطه أن يكون المرئي منه في جهة ، ولا في جهة فقط ؛ بل وفي جهة ما مخصوصة . ولذلك ليس تتأق الرؤية بأي وضع اتفق أن يكون البصر من المرئي ؛ بل بأوضاع محدودة ، وشروط محدودة أيضاً . وهي ثلاثة أشياء : حضور الضوء ، والجسم الشفاف المتوسط بين البصر والمبصر ، وكون المبصر ذا ألوان ضرورة . والرد لهذه الأمور المعروفة بنفسها في الإبصار هو رد الأوائل المعلومة بالطبع للجميع ، وإبطال لجميع علوم المناظر والهندسة . وقد قال القوم ، أعني الأشعرية ، إن أحد المواضع التي يجب أن ينقل فيها حكم الشاهد إلى الغائب هو الشرط ، مثل حكمتنا أن كل عالم حي ، لا يكون الحياة تظلم في الشاهد شرطاً في وجود العالم . وإن كان ذلك فلنا لهم : وكذلك يظهر ، في

(٢) في «ب» : مع إدراك البصر .

(١) سقط في «ب» .

الشاهد، أن هذه الأشياء هي شروط في الرؤية ، فالحقوا الغائب فيها بالشاهد، على أصلكم .

وقد رام أبو حامد، في كتابه المعروف « بالمقاصد »، أن يعاند هذه المقدمة، أعنى أن كل مرتى في جهة من الرائي ، بأن الإنسان يبصر / ذاته ٧،/ب في المرآة ، وأن ذاته ليست منه في جهة غير جهة مقابلة . وذلك أنه لما كان يبصر ذاته ، وكانت ذاته ليست تحل في الجهة المقابلة، فهو يبصر ذاته في غير جهة — وهذه مغالطة . فإن الذي يبصر هو خيال ذاته ، والخيال منه هو في جهة ؛ إذ كان الخيال في المرآة ، والمرآة في جهة .

وأما حججهم التي أتوا بها في إمكان رؤية ما ليس بجسم فإن المشهور عندهم في ذلك حجتان : إحداهما ، وهي الأشهر عندهم ، ما يقولونه من أن الشيء لا يخلو أن يرى من جهة ما هو ملون ، أو من جهة أنه جسم ، أو من جهة أنه لون ، أو من جهة أنه موجود . وربما عدوا جهات أخرى غير هذه للموجود^(١) ثم يقولون : وباطل أن يرى من قبيل أنه جسم ؛ إذ لو كان ذلك كذلك لما رئي^(٢) اللون ، وباطل أن يرى لسكان أنه لون ؛ إذ لو كان ذلك لما رئي الجسم . [قالوا]^(٣) وإذا بطلت جميع هذه الأقسام التي تتوهم في هذا الباب فلم يبق أن يرى الشيء إلا من قبيل أنه أنه موجود — والمغالطة في هذا القول بيينة ؛ فإن المرئي منه ما هو مرئي بذاته ، ومنه ما هو مرئي من قبيل المرئي بذاته . وهذه هي حال اللون والجسم . فإن اللون مرئي بذاته ، والجسم مرئي من قبيل اللون . ولذلك ما لم يكن له لون لم يُبصر ، ولو كان الشيء إنما يرى من حيث هو موجود

(١) في « أ » : الموجود .

(٢) في « أ » ، ورقة ٩ : زيادة هي : « لما رئي ما هو غير جسم . ويبدو أن يرى من قبيل أنه لون ؛ إذ لو كان ذلك كذلك لما رئي اللون ، وباطل أن يرى الخ

(٣) توجد في نسخة الإسكوريال .

فقط لوجب أن تبصر الأصوات وسائر المحسوسات الخمس ، فـسكان يكون
البصر والسمع وسائر الحواس الخمس حاسة واحدة . وهذه كلها خلاف
ما يعقل .

وقد اضطر المتكلمون لمكان هذه المسألة ، وما أشبهها ، أن يسلبوا
أن الألوان ممكنة أن تسمع والأصوات ممكنة أن ترى ؛ وهذا كله خروج
عن الطبع ، وعما يمكن أن يعقله إنسان . فإنه من الظاهر أن حاسة البصر
غير حاسة السمع ، وأن محسوس هذه غير محسوس تلك ، وأن آلة هذه
غير آلة تلك ، وأنه ليس يمكن أن ينقلب البصر سمعاً ، كما ليس يمكن
أن يعود اللون صوتاً . والذين يقولون إن الصوت ممكن أن يُبصر
في وقت ما فقد يجب أن يسألوا ، فيقال لهم : ما هو البصر ؟ فلا بد من
أن يقولوا : هو قوة تدرك بها المرئيات : الألوان وغيرها ، ثم يقال
لهم ما هو السمع ؟ فلا بد أن يقولوا هو قوة تدرك [بها] ^(١) الأصوات .
فإذا وضعوا هذا قيل لهم : فهل البصر عند إدراكه الأصوات هو بصر
فقط أو سمع فقط ؟ فإن قالوا : سمع فقط فقد سلبوا أنه لا يدرك
الألوان . وإن قالوا : بصر فقط فليس يدرك الأصوات . وإذا لم يكن
بصراً فقط لأنه يدرك الأصوات ، ولا سمعاً فقط لأنه يدرك الألوان
فهو بصر وسمع معاً . وعلى هذا فستكون الأشياء كلها شيئاً واحداً حتى
المتضادات . وهذا شيء - فيما أحسبه - يسلبه المتكلمون من أهل ملتنا ،
أو يلزمهم تسليمه . وهو رأى سوفسطائي لأقوام قدماء مشهورين بالسفسطة
وأما الطريقة الثانية التي سلكها المتكلمون في جواز الرؤية فهي الطريقة
التي اختارها أبو المعالي في كتابه المعروف بالإرشاد وهي هذه الطريقة ،
وتلخيصها : أن الحواس إنما تدرك قوات الأشياء ، وما تنفصل به الموجودات

(١) توجد في «س» وفي نسخة موالر .

بعضها من بعض هي (١) أحوال ليست بذوات ؛ فالحواس لا تدركها ، وإنما تدرك الذات . والذات هي نفس الوجود المشترك لجميع الموجودات . فإذا الحواس إنما تدرك الشيء من حيث هو موجود . وهذا كله في غاية الفساد .

ومن أبين ما يظهر به فساد هذا القول أنه لو كان البصر إنما يدرك الأشياء لما أمكنه أن يفرق بين الأبيض والأسود ؛ لأن الأشياء لا تفرق بالشيء الذي تشترك فيه ؛ ولا كان بالجملة يمكن في الحواس ، لا في البصر أن يدرك فصول الألوان ، ولا في السمع أن يدرك فصول الأصوات ، ولا في الطعم أن يدرك فصول المطعومات ، وللازم أن تكون / ٤٨ / مدارك المحسوسات بالجنس واحداً . فلا يكون فرق بين مدرك السمع وبين مدرك البصر . وهذا كله غاية في الخروج عما يعله الإنسان . وإنما تدرك الحواس ذوات الأشياء المشار إليها بتوسط إدراكها لمحسوساتها الخاصة بها . فوجه المغالطة في هذا هو أن ما يدرك ذاتياً أخذ أنه مدرك بذاته . ولولا النشأ على هذه الأقاويل ، وعلى التعظيم للقائلين بها ، لما أمكن أن يكون فيها شيء من الإقناع ، ولا وقع بها التصديق لأحد سليم الفطرة .

والسبب في مثل هذه الخيرة الواقعة في الشريعة حتى ألجأت القائلين بنصرتها ، في زعمهم ، إلى مثل هذه الأقوال المهجينة ، التي هي ضحكة من عني بتميز أصناف الأقاويل أدنى عناية ، هو التصريح في الشرع بما لم يأذن الله ورسوله به ، وهو التصريح بنفي الجسمية للجسم . وذلك أنه من العسير أن يجتمع في اعتقاد واحد أن ههنا موجوداً ليس بجسم ، وأنه مرئي بالأبصار ؛ لأن مدارك الحواس هي في الأجسام أو أجسام . ولعلك رأى قوم أن هذه الرؤية هي مزيد علم في ذلك الوقت . وهذا أيضاً لا يليق

(١) ز د ب : ومي .

الإفصاح به للجمهور . وإنه لما كان العقل من الجمهور لا ينفك من التخيل ؛ بل ما لا يتخيلون هم عندهم عدم ، وكان تخيل ما ليس بجسم لا يمكن ، والتصديق بوجود ما ليس بمتخيل غير ممكن عندهم ، عدل الشرع عن التصريح لهم بهذا المعنى ، فوصفه سبحانه لهم بأوصاف تقرب من قوة التخيل ، مثل مثل ما وصفه به من السمع والبصر والوجه وغير ذلك ، مع تعريفهم أنه لا يجانسه شيء من الموجودات المتخيلة ولا يشبهه .

ولو كان القصد تعريف الجمهور أنه ليس بجسم لما صرح لهم بشيء .
١ / ٤ من هذا ؛ بل لما كان أرفع / الموجودات المتخيلة هو النور ضرب لهم المثال به ؛ إذ كان النور هو أشهر الموجودات عند الحس والتخيل . وبهذا النحو من التصور أمكن أن يفهموا المعاني الموجودة في المعاد ، أعني أن تلك المعاني مثلث لهم بأمور متخيلة محسوسة . فإذا متى أخذ الشرع في أوصاف الله تبارك وتعالى على ظاهره لم تعرض فيه هذه الشبهة ولا غيرها ؛ لأنه إذا قيل له : إنه نور وإن له حجاباً من نور ، كما جاء في القرآن والسنن الثابتة ، ثم قيل إن المؤمنين يرونه في الآخرة ، كما أثرى الشمس ، لم يعرض في هذا كله شك ولا شبهة في حق الجمهور ، ولا في حق العلماء ؛ وذلك أنه قد تبين^(١) عند العلماء^(٢) أن تلك الحال مزيد علم ؛ لكن متى صرح لهم به ، أعني الجمهور ، انبطلت^(٣) عندهم التشريعية أو كفروا المصرح لهم بها . فمن خرج عن منهاج الشرع في هذه الأشياء فقد ضل عن سواء السبيل .

وأنت إذا تأملت الشرع وجدته ، مع أنه قد ضرب للجمهور في هذه المعاني المثالات التي لم يمكن تصورهم إياها دونها ، فقد نبه العلماء على تلك

(٢) في «ب» : عند تأمل العلماء .

(١) في «أ» : برهن .

(T) في «أ» : بطلت .

المعاني أنفسها التي ضرب مثالها^(١) للجمهور ، فيجب أن يوقف عند حد
الشرع في نحو التعليم الذي خص به صنفاً صنفاً من الناس ، والا يخطئ
التعليمان كلاهما ، فتفسد الحكمة الشرعية النبوية . ولذلك قال عليه السلام :
« إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نزل الناس منازلهم ، وأن نخطبهم على قدر
عقولهم . » ومن جعل الناس شرعاً واحداً في التعليم فهو كمن جعلهم شرعاً
واحداً في عمل من الأعمال ، وهذا كله خلاف المحسوس والمعقول .

فقد تبين لك من هذا أن الرؤية معنى ظاهر ، وأنه ليس يعرض فيه
شبهة إذا أخذ الشرع أعلى ظاهره في حق الله / تبارك وتعالى . أعني إذا
لم يصرح فيه بنفي الجسمية ولا بإثباتها — وإذا قد تبينت عقائد الشرع الأول
في التنزيه والمقدار الذي سلك في تعليم الجمهور من ذلك فقد ينبغي أن نسير
إلى الجزء الذي يتضمن معرفة [أفعال]^(٢) الله تبارك وتعالى ، وهو الفن
الخامس من هذه الفنون ، وبه ينتضى القول في هذا الذي قصدناه .

(٢) سقطت في «س»

(١) في « ا » : مثالها

[الفصل الخامس]

[في معرفة أفعال الله]

الفن الخامس^(١) في معرفة الأفعال . ونذكر في هذا الفن^(٢) خمس مسائل فقط هي الأصول التي عليها يدور كل ما في هذا الباب .

المسألة الأولى : في إثبات خلق العالم .

الثانية : بعث الرسل .^(٣)

الثالثة : في القضاء والقدر .

الرابعة : في التجوير والتعديل .

الخامسة : في المعاد .

(١) في « أ » : الفصل .

(٢) في « أ » وفي نسخة مولر . وفي نسخة « س » ، و « ب » : الباب

(٣) في « أ » : في « ب » ونسخة مولر = الرسون

المسألة^(١) الأولى

في حدوث العالم

اعلم أن الذى قصده الشرع من معرفة العالم هو أنه مصنوع لله تبارك وتعالى ، ومختار له ، وأنه لم يوجد عن الاتفاق ومن نفسه . فالطريق^(٢) التى يسلك الشرع بالناس فى تقرير هذا الأصل ليس هو طريق الأشعرية . فإننا قد بينا أن تلك الطرق ليست من الطرق اليقينية الخاصة بالعلماء ، ولا هى من الطرق العامة المشتركة للجميع ، وهى الطرق البسيطة ، أعنى بالبسيطة القليلة المقدمات التى نتائجها قريبة من المقدمات المعروفة بنفسها . وأما البيانات التى تكون بالمقاييس المركبة الطويلة التى تنبنى على أصول متفتنة فليس يستعملها الشرع فى تعليم الجمهور . فكل من سلك بالجمهور غير هذا النوع من الطرق ، أعنى البسيطة ، وتناول ذلك على الشرع فقد جهل مقصده ، وزاغ عن طريقه . وكذلك أيضاً لا يعرف الشرع بأمثال هذه المقاييس من الأمور إلا ما كان له مثال فى الشاهد . و [ما]^(٣) كانت . / ١ . الحاجة إلى تعريف الجمهور به وكيدة مثل ذلك / بأقرب الأشياء شبيهاً به ، كالحال فى أحوال المعاد . وما لم تكن لهم به حاجة إلى معرفته فى هذا الجنس عرفوا أنه ليس من علمهم ، كما قال تعالى فى الروح .

وإذا^(٤) قد تقرر لنا هذا الأصل فواجب أن تكون الطريقة التى سلكها الشرع فى تعليم الجمهور حدوث العالم من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع . وواجب ، إن كان حدوثه ليس له مثال فى الشاهد ، أن يكون

(٢) فى «أ» : الطرق

(١) سقط فى «أ»

(٤) فى كل من «أ» و «ب» : إذا

(٣) سقطت فى «س»

الشرع استعمل ، في تمثيل ذلك ، حدوث الأشياء المشاهدة .

فأما الطريق التي سلكها الشرع في تعليم الجمهور أن العالم مصنوع لله تبارك وتعالى (١) فإنه إذا تؤملت الآيات التي تضمنت هذا المعنى وجدت تلك الطرق (٢) ، هي طريق العناية ، وهي إحدى الطرق التي قلنا بأنها الدالة على وجود الخالق تعالى (٣) . وذلك أنه كما أن الإنسان إذا نظر إلى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في الشيء المحسوس والغاية المطلوبة حتى يعترف (٤) أنه لو وجد بغير ذلك الشكل ، أو بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة — علم ، على القطع ، أن لذلك الشيء صانعاً صنعه ، ولذلك وافق [شكله] (٥) ووضع وقدره تلك المنفعة ؛ وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق ، مثال ذلك أنه إذا رأى إنسان حجراً موجوداً على الأرض ، فوجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ، ووجد أيضاً وضعه كذلك وقدره ، علم أن ذلك [الحجر] (٦) إنما صنعه صانع ، وهو الذي وضعه كذلك وقدره في ذلك المكان . وأما متى لم يشاهد شيئاً من هذه الموافقة للجلوس فإنه يقطع أن وضعه في ذلك المكان ، ووجوده بصفة ما ، هو بالاتفاق ، ومن غير أن يجعله هنالك / فاعل (٧) .

هـ/ب .

كذلك الأمر في العالم كله ؛ فإنه إذا نظر الإنسان إلى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب ، التي هي سبب الأزمدة الأربعة (٨) ، وسبب الليل والنهار ،

(٢) في «أ» : الطريق .

(٤) في «أ» : يعرف .

(٦) سقط في «أ»

(٨) في س : جاعل

(١) في «أ» : لله تعالى

(٣) في «أ» : سبحانه

(٥) سقط في «أ»

(٧) في «س» : الأربع

وسبب الأمطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الناس فيها ، وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الأرض موافقة لسكنى الناس فيها وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقاً^(١) للحيوانات المائية، والهواء^(٢) للحيوانات الطائرة، وأنه لو اختلف شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التي همنا — علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العالم للإنسان والحيوان والنبات ، باتفاق ؛ بل ذلك من قاصد قصده ، ومريد أرادته ، وهو الله عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع . وذلك أنه يعلم ضرورة أنه لم يكن يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده عن غير صانع ؛ بل عن الاتفاق .

فأما أن هذا النوع من الدلائل قطعي ، وأنه بسيط ، فظاهر من هذا الذي كتبناه . وذلك أن مبناه على أصلين معترف بهما عند الجميع : أحدهما أن العالم بجميع أجزائه يوجد موافقاً لوجود الإنسان ، ولوجود جميع الموجودات التي همنا ، والأصل الثاني : أن كل ما يوجد موافقاً ، في جميع أجزائه ، لفعل واحد ومسدداً نحو غاية واحدة فهو مصنوع ضرورة . فينتج عن هذين الأصلين ، بالطبع ، أن العالم مصنوع وأن له صانعاً . وذلك أن دلالة العناية تدل على الأمرين معاً . ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجوه الصانع .

وأما أن هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود في الكتاب العزيز فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التي يذكر فيها بدء الخلق . فمنها قوله ١٠٠ / ١ تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ، ألم يقله د وجنات ألفا . » فإن هذه الآية إذا تاملت وجد فيها التنبيه على موافقة أجزاء العالم

(٢) في د ١ ، الهواء موافق

(١) في د ١ ، « دس » : موافق

لوجود الإنسان ؛ وذلك أنه ابتداءً فنيه على أمر معروف بنفسه لنا ، معشر الناس الأبيض والأسود ، وهو أن الأرض خلقت بصفة يتأق لنا المقام عليها ، وأنها لو كانت متحركة ، أو بشكل آخر غير شكلها ، أو في موضع آخر غير الموضع الذي هي فيه ، أو بقدر غير هذا القدر لما أمكن أن توجد (١) فيها ، ولا أن تخلق (٢) عليها . وهذا كله محصور في قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض مهاداً . » ، وذلك أن المهاد يجمع الموافقة في الشكل والسكون ، والموضع ، وزائداً إلى هذا معنى الوثابة واللين . فما أعجب هذا الإعجاز وأفضل هذه الاستعارة (٣) ، وأغرب هذا الجمع ؟ وذلك أنه قد جمع في لفظ « المهاد » جميع ما في الأرض [من] (٤) موافقتها لسكون الإنسان عليها . وذلك شيء قد تبين على التمام للعلماء في ترتيب من الكلام طويل ، وقدر من الزمان غير قصير ، والله يحتمل برحمته من إشاء . وأما قوله تعالى « والجيال أوتاد » فإنه نبيه بذلك على المنفعة الموجودة في سكون الأرض من قبل الجبال . فإنه لو قدرت الأرض أصغر مما هي ، كأنك قلت دون الجبال ، لتزعزعت من حركات باقى الأسطوانات (٥) أعنى الماء والهواء ، ولتزلزلت وخرجت عن (٦) موضعها . ولو كان ذلك كذلك لهلك الحيوان ضرورة . فإذا موافقة سكونها لما عليها من الموجودات لم تعرض (٧) بالاتفاق ، وإنما عرضت عن قصد قاصد ، وإرادة مريد . فهي ضرورة مصنوعة لذلك القاصد سبحانه وموجودة له على الصفة التي قدرها لوجود ما عليها من الموجودات . ثم نبه أيضاً على موافقة وجود الليل والنهار للحيوان ، فقال تعالى : « وجعلناه

(١) في «س» : توجد . (٢) في «س» : تخلق .

(٣) في «ب» : السعادة . وفي طبعة مولر أيضاً (٤) سقط في «ب»

(٥) العناصر . (٦) في «ب» : من (٧) في «س» : يعرض

للليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ، يريد أن الليل جعله كالسترة^(١) واللباس
 للموجودات التي همنا من حرارة الشمس . وذلك أنه لولا / غيبة الشمس هـ/ب
 بالليل لمسكت الموجودات التي جعل الله حياتها بالشمس ، وهو الحيوان
 والنبات . فلما كان اللباس قد بقي من الحر ، منع أنه سترة ، وكان الليل
 يوجد فيه هذان المعنيان سماء الله [تعالى]^(٢) لباساً . وهذا من أبداع الاستعارة .
 وفي الليل أيضاً منفعة أخرى للحيوان ، وهو أن نومه فيه يسكون مستغرقاً
 لمكان ذهاب الضوء الذي يحرك الحواس إلى ظاهر البدن الذي هو [في]^(٣)
 اليقظة . ولذلك قال تعالى : « وجعلنا نومكم سباتاً » ، أي مستغرقاً من قبيل
 ظلمة الليل . ثم قال تعالى : « وبنا فوقكم سبعاً شداداً وجعلنا سراجاً
 وهاجاً » ، فعبّر بلفظ البنيان عن معنى الاختراع لها ، وعن معنى الإنفاق^(٤)
 الموجود فيها والنظام والترتيب . وعبر بمعنى الشدة عما جعل فيها من القوة
 على الحركة التي لا تفتر عنها ، ولا يلحقها من قبلها كلال ، ولا يخاف
 أن تنخر ، كما تنخر السقوف والمباني العالية . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى
 « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً » ، وهذا كله نبيه منه على موافقتها ،
 في أعدادها وأشكالها وأوضاعها وحركاتها ، لوجود ما على الأرض
 وما حولها ، حتى أنه لو وقف جرم من الأجرام السماوية لحظة واحدة
 لفسد ما على وجه الأرض ، فضلاً عن أن نقف^(٥) كلها . وقد زعم قوم
 أن الانفخ في الصور الذي هو سبب الصعقة هو وقوف الفلك . ثم نبه على
 منفعة الشمس الخاصة وموافقتها لوجود ما على الأرض ، فقال تعالى :
 « وجعلنا سراجاً وهاجاً » . وإنما سماها سراجاً لأن الأصل هو الظلمة ،

(١) في « أ » : كالستر . (٢) توجد هذه الزيادة في نسخة « س ٧ » .

(٣) « وجودة في « ب » وفي طبعة مولر .

(٤) في « ب » وفي طبعة مولر : الإنفاق .

(٥) في النسخ الأخرى : يقف .

والضوء طارىء على الظلمة ، كما أن السراج طارىء^(١) على ظلمة الليل ، ولولا السراج لم ينتفع الإنسان بحاسة بصره بالليل . وكذلك لولا الشمس لم ينتفع الحيوان بحاسة بصره أصلاً . وإنما نبه على هذه المنفعة للشمس فقط ، دون سائر منافعها ؛ لأنها أشرف منافعها وأظهرها . ثم نبه تعالى على العناية المذكورة في نزول المطر ، وأنه إنما ينزل لمكان النبات والحيوان ، وأن نزول المطر بقدر محدود وفي أوقات محدودة لنبات الزرع ليس يمكن أن يعرض عن الاتفاق ؛ بل سبب ذلك العناية بما ههنا ، فقال تعالى : « وأزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حياءً ونباتاً ، وجنات ألفافاً . »

والآيات التي في القرآن في التنبيه على هذا المعنى كثيرة مثل قوله تعالى : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نورا ؟ وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، » ومثل قوله تعالى : « والله الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً . » ولو ذهبنا لنعدد^(٢) هذه الآيات ، ونفصل ما نهيت عليه من العناية التي تدل على الصانع والمصنوع ، لما وسع ذلك مجلدات كثيرة . وليس قصدنا ذلك في هذا الكتاب . ولعلنا ؛ إن أنسا الله في الأجل ، ووقع لنا فراغ ، أن نكتب كتاباً في العناية التي نبه عليها الكتاب العزيز .^(٣)

وينبغي أن تعلم أن هذا النوع من الاستدلال في غاية المضادة للاستدلال التي زعمت الأشعرية أنه الطريق إلى معرفة الله سبحانه . وذلك أنهم زعموا أن دلالة الموجودات على الله تبارك وتعالى ليس من أجل حكمة فيه

(١) في نسخة «س» : طار .

(٢) في «س» : لتعدد .

(٣) لم يسأل إلى علنا أن ابن رشد ألف هذا الكتاب .

تقتضى العناية ، ولكن من قبل الجواز ، [أى] ^(١) من قبل ما يظهر فى جميع الموجودات أنه جائز فى العقل أن يكون بهذه الصفة وبضدّها . فإنه إن كان هذا الجواز على السواء فليس ههنا حكمة ، ولا توجد ههنا موافقة أصلاً بين الإنسان وبين أجزاء العالم . وذلك أنه إن كان يمكن — على زعمهم — أن تكون الموجودات على غير ما هي عليه ، كوجودها على ما هي عليه ، فليس ههنا موافقة بين الإنسان وبين الموجودات التى امتن الله تعالى بخلقها ، وأمره بشكره عليها . فإن هذا الرأى [الذى] ^(٢) يلزمه أن يكون إمكان خلق الإنسان جزءاً من هذا / العالم كإمكان خلقه فى الخلاء مثلاً / الذى يرون أنه موجود ؛ بل والإنسان عندهم يمكن أن يكون بشكل آخر وخلقاً أخرى ، ويوجد عنه فعل الإنسان وقد يمكن عندهم أن يكون جزء من عالم آخر يخالف بالحد والشرح لهذا العالم ، فلا تكون نعمة ههنا ممتن بها على الإنسان ؛ لأن ما ليس بضرورى ، ولا من جهة الأنفـل فى وجود الإنسان ؛ فالإنسان مستغن عنه . وما هو مستغن عنه فليس وجوده بإنعام عليه . وهذا كله خلاف ما فى فطر الناس .

وبالجملة ، فكما أن من أنكر وجود المسببات مترتبة على الأسباب فى الأمور الصناعية ، أو لم يدركها فهمه ، فليس عنده علم بالصناعة ولا الصانع ؛ كذلك من جحد وجود ترتيب المسببات على الأسباب فى هذا العالم فقد جحد ^(٣) الصانع الحكيم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقولهم : إن الله أجرى العادة بهذه الأسباب ، وأنه ليس لها تأثير فى المسببات بإذنه ، قول يعيد جداً عن مقتضى الحكمة ؛ بل هو مبطل لها ؛ لأن المسببات ، إن كان يمكن أن توجد [من غير هذه الأسباب ، على

(١) سقط فى (١) . (٢) سقط فى (١) . والمضى يستقيم به أيضاً

(٣) زيادة فى (١) : الصناعة والحكمة ومن جحد الصناعة والحكمة قد جحد الخ .

حد ما يمكن أن توجد [(١)] بهذه الأسباب فأى حكمة فى وجودها عن هذه الأسباب ؟ وذلك أن وجود المسببات عن الأسباب لا يخلو (٢) من ثلاثة أوجه :
إما أن يكون وجود الأسباب لمكان المسببات من الاضطراب ، مثل
كون الإنسان متغذياً ؛

وإما أن يكون من أجل الأفضل ، أى لتكون المسببات بذلك أفضل
وأنتم ، مثل كون الإنسان له عينان ؛

وإما أن يكون ذلك ، لا من جهة الأفضل ، ولا من [جهة] (٣)
الاضطراب ، فيكون وجود المسببات عن الأسباب بالاتفاق وبغير مقصد ؛
فلا تكون هنالك حكمة أصلاً ، ولا تدل على صانع ؛ بل إنما تدل على
الاتفاق ؛ وذلك أنه إن كان مثلاً ليس شكل يد الإنسان ولا عدد أصابعها
١/٥٣ [ولا مقدارها] (٤) / ضرورياً ، ولا من جهة الأفضل فى الإمساك الذى
هو فعلها ، وفى احتوائها على جميع الأشياء المختلفة الشكل ، وموافقتها
لإمساك آلات جميع الصنائع (٥) ، فوجود أفعال اليد هو عن شكلها وعدد
أجزائها ومقدارها هو بالاتفاق . ولو كان ذلك كذلك لكان لافرق
بين أن يخص الإنسان باليد أو بالحافر أو بغير ذلك ، بما يخص حيواناً
حيواناً من الشكل الموافق لفعله .

وبالمجمل متى رفعنا الأسباب والمسببات لم يكن هنأ شئ يرد
به على القائلين بالاتفاق ، أعنى الذين يقولون لا صانع هنأ ، وإنما
جميع ما حدث فى هذا العالم إنما هو عن الأسباب المادية ؛ لأن أحد

(١) سقط فى د ب ، (٢) فى د س ، . ينحوا

(٣) سقط فى د س ، . (٤) سقط فى د س ،

(٥) فى د س : جميع آلات الصنائع .

الجائزين هو أحق أن يقع عن الاتفاق منه أن يقع عن فاعل مختار . وذلك أنه إذا قال الأشعري إن وجود أحد الجائزين أو الجائزات هو دال على أن ههنا محصفاً فاعلاً كان لأولئك أن يقولوا إن وجود الموجودات على أحد الجائزين أو الجائزات هو عن الاتفاق ؛ إذ الإرادة إنما تفعل لمكان سبب من الأسباب ، والذي يكون لغير علة ولا سبب هو عن الاتفاق ؛ إذ كنا نرى أشياء كثيرة تحدث بهذه الصفة ، مثل ما يعرض للاسقطسات أن تتمزج امتزاجاً ما ^(١) بالاتفاق ، فيحدث بالاتفاق عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود ما ، ثم تتمزج أيضاً امتزاجاً آخر ، فيحدث بالاتفاق عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود ما ، ثم تتمزج أيضاً امتزاجاً آخر ، فيحدث بالاتفاق عن ذلك الامتزاج بالاتفاق موجود آخر ، فتكون على هذا جميع الموجودات حادثة عن الاتفاق .

وأما نحن فلما كنا نقول إنه واجب أن يكون ههنا ترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه ولا أتم منه ، وإن الامتزاجات محدودة مقدرة ، والموجودات الحادثة عنها واجبة ، وإن هذا دائماً لا يخل لم يمكن أن يوجد ذلك عن الاتفاق [لأن ما يوجد عن الاتفاق] ^(٢) هو أقل ضرورة . وإلى هذه الإشارة/بقوله تعالى: «صنع الله الذي أتقن كل شيء» ، ٣٠/ب
وأي اتقان يكون ، أيت شعري ، في الموجودات إن كانت على الجواز ؟ لأن الجائز ليس هو أولى بالشئ من ضده . وإلى هذا الإشارة بقوله : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » ، وأي تفاوت أعظم من أن تكون الأشياء كلها يمكن أن توجد على صفة أخرى فوجدت على هذه ؟ ولعل تلك الصفة المعدومة أفضل من الموجودة ! فنزعم مثلاً أن الحركة الشرقية لو كانت غربية ، والغربية شرقية ،

(٢) سقط في «ب» .

(١) سقطت في «أ» .

لم يكن في ذلك فرق في صنعة العالم فقد أبطل الحكمة . وهو كمن زعم أنه لو كان اليمين من الحيوان شمالاً ، والشمال يميناً لم يكن في ذلك فرق في صنعة (١) الحيوان . فإن أحد الجائزين كما يمكن أن يقال فيه إنما وجد ، على أحد الجائزين ، من فاعل مختار ؛ كذلك يمكن أن يقال إنه إنما وجد عن فاعله ، على أحد الجائزين بالاتفاق ؛ إذ كنا نرى كثيراً من الجائزات توجد على أحد الجائزين عن فاعليها بالاتفاق .

وأنت تتبين أن الناس بأجمعهم يرون أن المصنوعات الخسيسة هي التي يرى الناس فيها أنه كان يمكن أن تكون على غير ما صنعت عليه ، حتى إنه ربما أدت الخساسة الواقعة في كثير من المصنوعات التي 'بهذه الصفة أن يظن أنها حدثت عن الاتفاق ؛ وأنهم يرون أن المصنوعات الشريفة هي التي يرون فيها أنه ليس يمكن أن تكون على هيئة أتم وأفضل من الهيئة التي جعلها عليها صانعها . فإذا هذا الرأي من آراء المتكلمين هو مضاد للشريعة والحكمة .

ومعنى ما قلناه من أن القول بالجواز هو أقرب أن يدل على نفي الصانع من أن يدل على وجوده — مع أنه ينفي الحكمة عنه — هو أنه متى لم يعقل أن ههنا أوساطاً بين المبادئ والغايات في المصنوعات ترتب عليها وجود الغايات ، لم يكن ههنا نظام / ولا ترتيب . وإذا لم يكن ههنا نظام ولا ترتيب لم يكن ههنا دلالة على أن لهذه الموجودات فاعلاً مريداً عالماً ؛ لأن الترتيب والنظام وبناء المسببات على الأسباب هو الذي يدل على أنها صدرت عن علم وحكمة . أما وجود الجائز على أحد الجائزين فيمكن أن يكون عن فاعل خير حكيم عن الاتفاق عنه ، مثل أن يقع حجر

(١) في د ب ، : صفة .

على الأرض عن الثقل الذي فيه، فيسقط على جهة منه دون جهة، أو على موضع دون موضع، أو على وضع دون وضع .

فإذاً هذا القول يلزم عنه ^(١) ضرورة إما إبطال وجود الفاعل على الإطلاق ، وإما إبطال وجود فاعل حكيم ، تعالى الله وتقدس أسمائه عن ذلك .

وأما (٢) الذي إقاد المتكلمين من الأشعرية إلى هذا القول الهروب من القول بفعل القوى الطبيعية التي ركبها الله (٣) في الموجودات التي همنا كما ركب فيها النفوس ، وغير ذلك من الأسباب المؤثرة . فهربوا من القول بالأسباب، لئلا يدخل عليهم القول بأن همنا أسباباً فاعلة غير الله . وهيات لا فاعل هنا إلا الله ؛ إذ كان مخترع الأسباب . وكونها أسباباً مؤثرة هو بإذنه وحفظه لوجودها . وسنبين هذا المعنى بياناً أكثر في مسألة القضاء والقدر . وإيضاً فإنهم خافوا أن يدخل عليهم في القول بالأسباب الطبيعية أن يكون العالم صادراً عن سبب طبيعي . ولو علموا أن الطبيعة مصنوعة ، وأنه لا شيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة في الإحكام ، لعلموا أن القائل بنفي الطبيعة قد أسقط جزءاً عظيماً من موجودات الاستدلال على وجود الصانع العالم ، بجحد جزءاً من موجودات الله . (٤) وذلك أن من جحد جنساً من المخلوقات الموجودات فقد جحد فعلاً من أفعال الخالق سبحانه . ويقرب هذا عن / جحد صفة من صفاته . هـ / بـ .

وبالملة فلما كان نظر هؤلاء القوم مأخوذاً من بادي الرأي ، وهي (٥) الظنون التي تخطر الإنسان من أول نظرة ، وكان يظهر من بادي الرأي

(١) في «ب» : عليه (٢) في «أ» : وإنما .

(٣) توجد كلمة [تعالى] في نسخة «س»

(٤) في «ب» : الله تعالى (٥) مكذبا في «س» و «أ» .

أن اسم الإرادة إنما يطلق على من يقدر أن يفعل الشيء وضده ، رأوا أنهم إن لم يضعوا الموجودات جائزة لم يقدرُوا أن يقولوا بوجود فاعل مرید . فقالوا إن الموجودات كلها جائزة ليثبتوا من ذلك أن المبدأ الفاعل مرید ؛ كأنهم لم يروا الترتيب الذى فى الأمور الصناعية ضرورياً ، وهو مع ذلك صادر عن فاعل مرید ، وهو الصانع ا

وهؤلاء القوم غفلوا عما يدخل عليهم من هذا القول من نفي الحكمة عن الصانع ، أو دخول السبب الاتفاقى فى الموجودات . فإن الأشياء التى تفعلها الإرادة ، [لا] (١) لمكان شئ من الأشياء أعنى لمكان غاية من الغايات ، هى عبث ومنسوبة إلى الاتفاق ، ولو علموا — كما قلنا — إنه يجب ، من جهة النظام الموجود فى أفعال الطبيعة ، أن تكون موجودة عن صانع عالم ، وإلا كان النظام فيها بالاتفاق — لما احتاجوا أن ينسكروا أفعال الطبيعة ، فينسكروا جنداً من جنود الله [تعالى] (٢) التى سخرها الله [تعالى] (٣) لإيجاد كثير من موجوداته بإذنه ، ولحفظها . وذلك أن الله تبارك وتعالى أوجد موجودات بأسباب سخرها لها من خارج ، وهى الأجسام السماوية ، وبأسباب أوجدها فى ذوات تلك الموجودات ، وهى النفوس والقوى الطبيعية حتى انحفظ (٤) بذلك وجود الموجودات . وتمت الحكمة ، فمن أظلم عن أبطال الحكمة . وافترى على الله الكذب .

فهذا مقدار ما عرض من التغيير فى هذه الشريعة فى هذا المعنى ، وفى غيره من المعانى التى بينها قبل (٥) ، ونبينها فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التى نصبها الله لعباده ليعرفوا

(١) سقط فى «ب» . (٢) سقطت فى «ا» .

(٣) سقط فى «ا» . (٤) فى «ا» ، يحفظ .

(٥) فى «ب» : من قبل .

١٠٠ / منها / أن العالم مخلوق له ومصنوع هي ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيه وبخاصة بالإنسان . وهي طريقة نسبتها في الظهور إلى العقل نسبة الشمس في الظهور إلى الحس .

وأما الطريق التي سلك بالجمهور في تصور هذا المعنى فهو التمثيل بالشاهد ، وإن كان ليس له مثال في الشاهد ؛ إذ ليس يمكن في الجمهور أن يتصوروا على كنهه ما ليس له مثال في الشاهد . فأخبر تعالى أن العالم وقع خلقه إياه في زمان ، وأنه خلقه من شيء ؛ إذ كان لا يعرف في الشاهد مكون إلا بهذه الصفة . فقال سبحانه مخبراً عن حاله [تعالى] (١) قبل كون العالم : « وكان عرشه على الماء ، وقال تعالى : « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وقال : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، إلى سائر الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى . فيجب ألا يتأول شيء من هذا للجمهور ، ولا يعرض لتزييله على غير هذا التمثيل . فإنه من غير ذلك فقد أبطل الحكمة الشرعية .

فأما أن يقال لهم إن عقيدة الشرع في العالم [هي] (٢) أنه خلق من غير شيء ، وفي غير زمان فذلك شيء لا يمكن أن يتصوره العلماء فضلاً عن الجمهور . فينبغي ، كما قلنا ، ألا يعدل في الشرع عن التصور الذي وضعه للجمهور ، ولا يصرح لهم بغير ذلك . فإن هذا النوع من التمثيل في خلق العالم هو الموجود في القرآن وفي التوراة وفي سائر الكتب المنزلة . ومن العجب الذي في هذا المعنى أن التمثيل الذي جاء في الشرع في خلق العالم يطابق معنى الحدوث الذي في الشاهد . ولكن! الشرع لم يصرح فيه بهذا اللفظ ، وذلك تنبيه منه للعلماء على أن حدوث العالم ليس هو مثل الحدوث

(١) توجد في نسخة «س» .

(٢) توجد في نسخة «س» .

الذى فى الشاهد ، وإنما أطلق عليه لفظ الخلق ولفظ / الفطور^(١) وهذه ،
الألفاظ تصلح لتصور المعنيين ، أعنى لتصور الحدوث الذى فى الشاهد ،
وتصور الحدوث الذى أدى إليه البرهان عند العلماء فى الغائب . فإذا
استعمال لفظ الحدوث أو القدم بدعة فى الشرع ، وموقع فى شبهة عظيمة
تفسد عقائد الجمهور ، وبخاصة الجدليين منهم .

ولذلك عرضت أشد حيرة تكون وأعظم شبهة للمتكلمين من أهل
ملتنا ، أعنى الأشعرية . وذلك أنه^(٢) لما صرحوا أن الله يريد بإرادة
قديمة — وهذا بدعة كما قلنا — ووضعوا أن العالم محدث قيل لهم : كيف
يكون مرادٌ حادث عن إرادة قديمة ؟

فقالوا : إن الإرادة القديمة تعلقت بإيجاده فى وقت مخصوص ، وهو
الوقت الذى وجد فيه .

فقيل لهم : إن كانت نسبة الفاعل المرید إلى المحدث فى وقت عدمه
هى بعينها نسبته إليه فى وقت إيجاده فالمحدث لم يكن وجوده ، فى وقت
وجوده ، أولى منه فى غيره ، إذا لم يتعلق به فى وقت الوجود فعلٌ
انتفى عنه فى وقت العدم . وإن كانت مختلفة فهناك إرادة حادثة ضرورة ؛
وإلا وجب أن يكون مفعول محدث عن فعل قديم . فإنه^(٣) ما يلزم
من ذلك فى الفعل يلزم فى الإرادة . وذلك أنه يقال لهم : إذا حضر
الوقت^(٤) ، وقت وجوده ، فوجد ، هو يوجد بفعل قديم أو بفعل محدث ؟
فإن قالوا بفعل قديم فقد جوزوا وجود المحدث بفعل قديم ، وإن قالوا

(١) زيادة فى « ا » والابتداء فقال تعالى : « بديع السموات والأرض » وقال تعالى :
« أفى الله شك فاطر السموات والأرض » وهذه ألفاظ . الخ .

(٢) فى « ا » : أنهم . (٣) فى « ا » : فان .

(٤) فى « ا » : أعنى وقت .

بفعل محذوف لمهم أن يكون هنالك إرادة محدثة . فإن قالوا الإرادة هي نفس الفعل فقد قالوا محالاً ، فإن الإرادة هي سبب الفعل في المرید . ولو كان المرید إذا أراد شيئاً ما ، في وقت ما ، وجد ذلك الشيء عند حضور وقته من غير فعل منه بالإرادة المتقدمة لكان ذلك الشيء موجوداً من غير فاعل . وأيضاً فقد يظن أنه إن كان واجباً أن يكون / عن الإرادة الحادثة أمر ١٠٦ / حادث فقط يجب أن يكون عن الإرادة القديمة مراد قديم ، وإلا كان مراد الإرادة القديمة والحادثة واحداً ، وذلك مستحيل .^(١)

فهذه الشبه كلها إنما أثارها في الإسلام أهل الكلام بتصريحهم في الشرع بما لم يأذن به الله . فإنه ليس في الشرع أنه سبحانه مرید بإرادة جادة ولا قديمة . فلامهم ، في هذه الأشياء ، اتبعوا ظواهر الشرع ، فكانوا بمن سعادته ونجاته باتباع الظاهر ، ولأهم أيضاً لحقوا بمرتبة أهل اليقين ، فكانوا بمن سعادته في علوم اليقين . ولذلك ليسوا من العلماء ، ولا من جمهور المؤمنين المصدقين ، وإنما هم من الذين في قلوبهم زيغ ، وفي قلوبهم مرض . فإنهم يقولون بالنطق الخارج أشياء يخالفها النطق الباطن منهم . وسبب ذلك العصبية والمحبة . وقد يكون الاعتماد لأمثال هذه الأقاويل سبباً للانحلال عن المعقولات ، كما نرى يعرض للذين مهرؤا بطريق الأشعرية ، وارتاضوا بها منذ الصبا . فهؤلاء لا شك محجوبون بحجاب العادة والملشأ . فهذا الذي ذكرناه^(٢) من أمر هذه المسألة كاف بحسب غرضنا . فلننسر إلى المسألة الثانية .

(١) زيادة في « ١ » : وأيضاً كيف يتعين وقت مع توم امتداد لا مبدأ له مقدم عليه فإنه لا يتصور أنه محدود مستقبل إلا من أن قبله محدود .
(٢) في « س » : ذكرنا

المسألة الثانية

في بعث الرسل

والنظر في هذه المسألة في موضعين : أحدهما في إثبات الرسل ، والموضع الثاني فيما يبين به أن هذا الشخص الذى يدعى الرسالة واحد منهم ، وأنه ليس بكاذب فى دعواه .

فأما وجود مثل هذا الصنف من الناس فقد رام قوم لإثبات ذلك بالقياس - وهم المتكلمون - وقالوا : قد ثبت أن الله متكلم ومريد ومالك لعباده ، وجائز على المريد المالك لأمر عباده فى الشاهد أن يبعث رسولا إلى عباده المملوكين ، فوجب أن يكون ذلك / ممكناً فى الغائب . وشدوا هذا الموضع ١٠٦/ب بإبطال المحالات التى تروم البراهمة أن تلزمها عن وجود رسل من الله . قالوا : وإذا كان هذا المعنى ^(١) قد ظهر إمكان وجوده فى الغائب كوجوده فى الشاهد ، وكان أيضاً يظهر فى الشاهد أنه إذا قام رجل فى حضرة الملك ، فقال : أيها الناس إني رسول الملك إليكم ، وظهرت عليه من ^(٢) علامات الملك أنه يجب أن يعترف بأن دعوى ذلك الرسول صحيحة - قالوا : وهذه العلامة هى ظهور المعجزة على يد الرسول .

وهذه الطريقة هى مقنعة ، وهى لا ثقة بالجمهور بوجه ما ، لكن إذا تسبعت ظهر فيها بعض اختلال من قبل بعض ما يضعون فى هذه الأصول . وذلك أنه ليس يصح تصديقنا للذى أدعى الرسالة عن ^(٣) الملك إلا متى علمنا أن تلك العلامة التى ظهرت عليه من علامة الرسل للملك . وذلك إما بقول

(٢) فى « ١ » ، فظهرت علامة عليه

(٤) فى نسخة « ١ » : هل

(١) زيادة فى « ١ » : هكذا قد

(٣) فى « ١ » : مى

الملك لأهل طاعته : إن من رأيتم عليه علامة كذا من علاماتي المختصة بي فهو رسول من عندي ؛ أو بأن يعرف من عادة الملك ألا تظهر تلك العلامة إلا على رسله .

وإذ كان هذا هكذا فلما نزل أن يقول من أين يظهر أن ظهور المعجزات على أيدي بعض الناس هي العلامات الخاصة بالرسول ؛ فإنه لا يخلو أن يدرك هذا بالشرع أو بالعقل ؟ ومحال أن يدرك هذا بالشرع ؛ لأن الشرع لم يثبت بعد . والعقل أيضاً ليس يمكنه أن يحكم أن هذه العلامة هي خاصة بالرسول ، إلا أن يكون قد أدرك وجودها مرات كثيرة للقوم الذين يعترف برسالتهم ، ولم تظهر على أيدي سواهم ، وذلك أن تثبت (١) الرسالة ينشئ على مقدمتين : إحداهما أن هذا المدعى الرسالة ظهرت على يديه المعجزة ، والثانية أن كل من ظهرت على يديه معجزة [فهو نبي ؛ فيقول من ذلك بالضرورة] أن هذا نبي . فأما المقدمة القائلة إن هذا المدعى الرسالة ظهرت عليه معجزة فلنا أن نقول إن هذه المقدمة تؤخذ من الحس ، بعد أن نعلم أن ههنا أفعالا تظهر على أيدي المخلوقين تقطع قطعاً أنها ليست [١٤] (٢) يستفاد ، لا بصناعة غريبة من الصنائع ، ولا بخاصة من الخواص ، وأن ما يظهر من ذلك ليس هو تخيلاً .

وأما المقدمة القائلة إن كل من ظهرت على يديه المعجزة فهو (٣) رسول ، فإنما تصح بعد الاعتراف بوجود الرسول ، وبعد الاعتراف بأنها لم تظهر قط إلا على من صحب رسالته . وإنما قلنا إن هذه المقدمة لا تصح إلا لمن يعترف بوجود الرسالة ووجود المعجزة ؛ لأن هذا طبيعة

(١) في « أ » ثبوت (٢) سقطت في النسخ الأخرى .

(٣) هذه الفقرة سقطت بأكثرها من مخطوط « أ » .

القول الخبرى ^(١) ، أعنى ^(٢) أن الذى تبرهن عنده مثلاً أن العالم محدث ، فلا بد أن يكون عنده معلوماً بنفسه أن العالم موجود [وأن المحدث] ^(٣) موجود . وإذا كان الأمر هكذا فلقائل أن يقول : من أين لنا بصحة قولنا إن كل من ظهرت على يديه المعجزة فهو رسول ، والرسالة لم يثبت وجردها بعد ، هذا إن سلمنا بوجود المعجزة أيضاً على الصفة التى يلزم بها أن يكون معجزاً ؟ ولا بد أن يكون جزءاً هذا القول ، أعنى المبتدأ والخبر ، معترفاً بوجودهما قبل الاعتراف بصدق الحكم على أحدهما بالثانى . ^(٤)

وليس لقائل أن يقول إن وجود الرسل يدل عليه العقل ، لكون ذلك جائزاً في العقل . فإن الجواز الذى يشيرون إليه هو جمل ^(٥) ، وليس هو الجواز الذى في طبيعة الموجودات ، مثل قولنا إن المطر جائز أن ينزل [وأن لا ينزل] ^(٦) . وذلك أن الجواز الذى هو من طبيعة الموجود هو أن يحس أن الشيء يوجد مرة ، ويفقد أخرى ، كالحال في نزول المطر ، فيقضى العقل حينئذ قضاء كائناً / على هذه الطبيعة بالجواز . ٥٧ / والواجب ضد هذا ، وهو الذى يحس وجرده دائماً ، فيقضى العقل قضاء كلياً وباناً على أن هذه الطبيعة لا يمكن ^(٧) أن تتغير ولا أن تنقلب . فلو كان الخصم قد اعترف بوجود رسول واحد في وقت من الأوقات لظهر ^(٨) أن الرسالة من الأمور الجائزة الوجود . وأما الخصم يزعم

(١) في نسخة «ب» : الخبر (٢) في «ب» : وأمنى ، وفي «أ» : أعنى الذى

(٣) في «أ» : والمحدث (٤) في «أ» : دون الثانى

(٥) يتفق ابن رشد في هذا مع الفسكرة العلمية الحديثة اقائلة بأن التفسير بالإمكان دليل على الجهل — انظر كتاب المنطق الحديث ومناهج البحث . مبحث الصدفة .

(٦) في «أ» وفي نسخة «مولر» أولاً ينزل (٧) في نسخة «أ» : ليس يمكن

(٨) في نسخة «ب» : لظهور .

أن ذلك لم يحس بعد ، فالجواز الذي يدعيه إنما هو جهل بأحد المتقابلين ،
أعنى الإمكان والامتناع . والناس الذين صح منهم إمكان وجود الرسل
إنما صح لنا وجود هذا الإمكان لأننا قد أدركنا وجود الرسل منهم ،
إلا أن نقول إن إحساس وجود الرسل من الناس يدل على إمكان
وجودهم من الخالق ، كما أن وجود الرسول من عمرو يدل على إمكان
وجوده من زيد . فهذا يقتضى تساوى الطبيعتين ، فقيه هذا العسر .

وإن فرضنا هذا الإمكان في نفسه ، ولو كان في المستقبل ، لكان إمكاننا
بحسب الأمر [في نفسه]^(١) ، لا بحسب علمنا . وأما واحد المتقابلين من
هذا الإمكان قد خرج إلى الوجود ، فإنما هذا الإمكان في علمنا والأمر في
نفسه متقرر^(٢) الوجود ، على أحد المتقابلين ، أعنى أنه أرسل أو لم يرسل ،
فليس عندنا من ذلك إلا جهل فقط ، مثل أن شك في عمرو هل أرسل
رسولا فيما سلف ، أو لم يرسل . وذلك بخلاف ما إذا شككنا فيه : هل يرسل
رسولا غدا أم^(٣) لا ، فإنه إذا جهلنا من زيد مثلا هل أرسل رسولا فيما
مضى أو لم يرسل ، لم يصح لنا الحكم أن من ظهر علامة زيد عليه فهو له
رسول إلا أن يعلم أن تلك علامة رسوله . وذلك بعد أن يعلم أنه قد
أرسل رسولا ، وإلى هذا كله ، فمضى سلمنا أن الرسالة موجودة / ، والمعجز
موجود ، فمن أين يصح لنا أن من ظهر على يديه المعجز فهو رسوله ؟ وذلك
أن هذا الحكم ليس يمكن أن يؤخذ من السمع ؛ إذ السمع لا يثبت من
قبل هذا الأصل ، فيكون من باب تصحيح الشيء بنفسه ، وذلك فاسد ،
ولا سبيل إلى أن يدعى صحة هذه المقدمة بالتجربة والعادة إلا إذا شوهدت
المعجزات ظاهرة على أيدي الرسل ، أعنى من يعترف بوجود رسالتهم ،
ولم تشاهد على أيدي غيرهم ، فتكون حينئذ علامة ناطقة على تمييز من

(١) توجد في نسخة «س» فقط . (٢) في (١) : متعذر .

(٣) في النسخ الأخرى وفي طبعة مونتر : أو

هو رسول من عند الله بمن ليس برسول ، أعنى بين من دعواه صادقة ، وبين من دعواه كاذبة . فمن هذه الأشياء يرى أن المتكلمين ذهب عليهم هذا المعنى من وجه^(١) دلالة المعجز . وذلك أنهم أقاموا الإمكان مقام الوجود ، أعنى الإمكان الذى هو جهل ، ثم صححوا هذه القضية ، أعنى أن كل من وجد منه المعجز فهو رسول . ولا يصح هذا إلا أن يكون المعجز يدل على الرسالة نفسها ، وعلى المرسل . وليس فى قوة الفعل^(٢) العجيب الخارق للعوائد ، الذى يرى الجميع أنه إلهى ، أن تدل على وجود الرسالة دلالة قاطعة إلا من جهة ما يعتقد أن من ظهرت عليه أمثال هذه الأشياء^(٣) فهو فاضل ، والفاضل لا يكذب ؛ بل إنما يدل على أن هذا رسول إذا سلم أن الرسالة أمر موجود ، وأنه ليس يظهر هذا الخارق على يد أحد من الفاضلين إلا على يدى رسول . وإنما كان المعجز ليس يدل على الرسالة لأنه ليس يدرك العقل ارتباطا بينهما ، إلا أن يعترف أن المعجز فعل من أفعال الرسالة ، كالإبراء الذى هو فعل من أفعال الطب ، فإنه من ظهر منه فعل الإبراء [دل]^(٤) على وجود الطب^(٥) ، وأن ذلك طيب .

فهذا أحد مافى هذا الاستدلال من الوهن . وأيضا فإذا اعترفنا بوجود الرسالة على أن ننزل الإمكان ، الذى هو الجهل ، / منزلة الوجود ، وجعلنا ٥٨/ب المعجزة دالة^(٦) على صدق الشخص المدعى الرسالة ، وجب ضرورة أن لا تكون دلالتها لازمة لمن يجوز أن المعجز قد يظهر على يدى غير رسول ، على ما يفعله المتكلمون ؛ لأنهم يجوزون ظهورها على يدى الساحر ، [وعلى يدى الولي]^(٧) . وأما ما يشترطونه ، لمكان هذا ، من أن

(١) فى «ب» وطبعة مولار : جهة (٢) هكذا فى «ا» . أمافى بقية النسخ ففى : النقل .

(٣) فى «ا» : ظهرت أمثال هذه الأشياء منه . (٤) سقطت فى «ب» .

(٥) فى «ا» : الطب له (٦) فى «ا» دلالة . (٧) سقطت فى نسخة «ا» .

المعجز إنما يدل على الرسالة بمقارنة دعوى الرسالة [له]^(١) ، وأنه لو ادعى الرسالة من شأنه أن يظهر على يديه ، فمن ليس برسول لم يظهر [على يديه]^(٢) .
خدعوى ليس عليها دليل ؛ فإن هذا غير معلوم لا بالسمع ، ولا بالعقل ، أعني أنه إذا ادعى من يظهر على يديه دعوى كاذبة أنه لا يظهر على يديه المعجز .
لكن - كما قلنا - لما كان لا يظهر من الممتنع أنها لا تظهر إلا على يدي الفاضلين الذين يعنى الله بهم ، وهؤلاء إذا كذبوا ليسوا بفاضلين ، فليس يظهر على أيديهم المعجز . لكن ما في هذا المعنى من الإقناع لا يوجد فيمن يجوز ظهورها على يدي الساحر . فإن الساحر ليس بفاضل .

فهذا ما في هذه الطريقة من الضعف ، ولهذا رأى بعض الناس أن الاحتفظ لهذا الوضع^(٣) أن يعتقد أنه ليس تظهر الخوارق إلا على يدي الأنبياء ، وأن السحر هو تخيل [لا]^(٤) قلب عين . ومن هؤلاء من أنكر ، لمكان هذا [المعنى]^(٥) ، الكرامات .

وأنت تتبين من حال الشارع ، صلى الله عليه وسلم ، أنه لم يدع أحدا من الناس ، ولا أمة من الأمم إلى الإيمان برسالته ، وبما جاء به بأن قدم على يدي دعواه خارقا من خوارق الأفعال ، مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى . وما ظهر على يديه ، صلى الله عليه وسلم ، من الكرامات الخوارق وإنما ظهرت في أثناء أحواله ، من غير أن يتحدى بها ، وقد يدل على هذا قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، إلى قوله : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » ، وقوله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » ،^(٦)

(١) سقطت في نسخة «ب» .

(٢) توجد في نسخة «س» .

(٣) في بقية النسخ : ولا

(٤) سقطت في نسخة «ب» .

(٥) في نسخة «ب» : الموضع

(٦) سقطت في نسخة «ا»

(٦) في نسخة «س» : زيادة هي : وآتينا نود الزاغة مبصرة .

وإنما القى دعا به الناس وتحداهم به هو الكتاب العزيز ، فقال تعالى :
« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون
بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . » وقال : « فأتوا بعشر سور مثله
مفريات . »

وإذا كان الأمر هكذا بخارقه ، صلى الله عليه وسلم ، الذى تحدى^(١) به
الناس ، وجعله دليلا على صدقه فيما ادعى من رسالته هو الكتاب العزيز ،
فإن قيل : هذا بين ، ولكن من أين يظهر أن الكتاب العزيز معجز ،
وأنه يدل على كونه رسولا ، وأنت قد بينت ضعف دلالة المعجز على
وجود الرسالة ، فضلا عن تعيين الشخص المرسل بها ، مع أن الناس قد
اختلفوا في جهة كون القرآن معجزة : فإن من رأى^(٢) منهم أن المعجز
من شرطه أن يكون من غير جنس الأفعال المعتادة ، وكان القرآن من
جنس الأفعال المعتادة عنده ، إذ هو كلام ، وإن كان يفضل جميع الكلام
المصنوع — قال إنما صار معجزا بالصرف ، أعنى بمنع الناس عن أن يأتوا
بمثله ، لا بكونه في الطور العالى من الفصاحة ؛ إذ ما شأنه أن يكون هكذا .
فإنما يخالف المعتاد بالأكثر لا بالجنس ، وما يختلف بالآقل والأكثر
فهو من جنس واحد . وقوم رأوا أنه معجز بنفسه لا بالصرف ،
ولم يشترطوا ، في كون الخارق ، أن يكون مخالفا بالجنس للأفعال المعتادة ،
ورأوا أنه يكفى في ذلك أن يكون من الأفعال المعتادة في غاية يقصر عنها
جميع الناس .

قلنا^(٣) : هذا كله كما ذكر المعترض ، وليس الأمر في هذا على ما توهم
هؤلاء . فكون القرآن دلالة على صدق نبوته عليه السلام يلبنى عندنا على

(١) في نسخة «س» . تحدا

(٢) في نسخة س : رأى

(٣) جواب الشرط لقوله : فإن قيل هذا بين

أصلين قد نبه عليها الكتاب [العزيز] (١) :

أحدهما :

أن الصنف الذى يسمون / رسلا وأنبياء معلوم وجودهم بنفسه ، وأن ٥٩/ب
هذا الصنف من الناس هم الذين يضعون الشرائع للناس بوحي من الله ،
لا يتعلم إنسانى . وذلك أنه ليس ينكر وجودهم إلا من ينكر (٢) وجود
الأمور المتواترة ، كوجود سائر الأنواع التى لم نشاهدها ، والأشخاص
المشهورين بالحكمة وغيرها . وذلك أنه قد اتفقت الفلاسفة وجميع الناس ،
إلا من لا يعبأ بقوله وهم الدهرية ، على أن ههنا أشخاصا من الناس بوحي
إليهم ، بأن ينهوا إلى الناس أمورا من العلم والأفعال الجيلة . بها (٣) تتم سعادتهم ،
وينهونهم عن اعتقادات فاسدة وأفعال قبيحة . وهذا هو فعل الأنبياء .

والأصل الثانى :

أن كل من وجد عنه هذا الفعل الذى هو وضع الشرائع ، بوحي من
الله تعالى ، فهو نبى . وهذا الأصل أيضا غير مشكوك فيه فى الفطر الإنسانية .
فإنه كما أن من المعلوم بنفسه أن فعل الطب هو الإبراء ، وأن من وجد منه
الإبراء فهو طبيب ؛ كذلك أيضا من المعلوم بنفسه أن فعل الأنبياء ،
عليهم السلام ، هو وضع الشرائع بوحي من الله ، وأن من وجد منه هذا
الفعل فهو نبى . (٤)

(١) توجد فقط فى نسخة «س» . (٢) هكذا فى كل من نسخة «أ» و«س» . وفى
طبعة مصر الخانجي : « أنكروا » ، وفى «ب» ، ونسخة مولر : « أنكرو » .

(٣) فى «س» : به

(٤) أخذ هذه الفسكرة عن الفزالي ؛ أرجع إلى كتاب تهافت التهافت ط بيروت ص ١٦٠ ،
حيث يقول : « ويعرف أن طريق الخواص فى تصديق الأنبياء طريق قد نبه عليه أبو حامد فى
غير ماموضع ، وهو الفعل الصادر عن الصفة التى بها سمى النبى نبيا ، الذى هو الإعلام بالأنبوب ،
ووضع الشرائع الموافقة للحق ، والمقيدة من الأعمال ما فيه سعادة جميع الخلق . »

فأما الأصل الأول فقد نبه عليه الكتاب العزيز في قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، إلى قوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليماً ، وقوله تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل . »

وأما الأصل الثاني ، وهو أن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، قد وجد منه فعل الرسل ، وهو وضع الشرائع للناس بوحي من الله ، فيعلم من الكتاب العزيز . ولذلك نبه على هذا الأصل ، فقال : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، يعنى القرآن ، وقال : « يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم » ، وقال تعالى : ١/٦٠ « لئن الراسخون في العلم / منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، وقال : « لئن الله يشهد بما أنزل له إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ، ؟

فإن قيل : من أين يعلم الأصل الأول ، وهو أن ههنا صنفاً من الناس يضعون الشرائع للناس بوحي من الله ، وكذلك من أين يعلم الأصل الثاني ، وهو أن ما تضمن القرآن من الاعتقادات والأعمال بوحي من الله ؟

قيل : أما الأصل الأول فيعلم بما يندرون به من وجود الأشياء التي لم توجد بعد ، فتخرج إلى الوجود على الصفة التي أنذروا بها ، وفي الوقت الذي أنذروا ؛ وبما يأمرهم به من الأفعال ، وينهون عليه من العلوم التي ليست تشبه المعارف والأعمال التي تُدرك بتعلم . وذلك أن الخارق للمعتاد ، إذا كان غارقاً في المعرفة بوضع الشرائع ، دل على أن وضعها لم يكن بتعلم ، وإنما كان بوحي من الله ، وهو المسمى نبوة . وأما الخارق الذي هو ليس في نفس وضع الشرائع ، مثل انفلاق البحر ، وغير ذلك ، فليس يدل دلالة ضرورية على هذه الصفة المسماة نبوة ، وإنما تدل إذا اقترنت إلى الدلالة الأولى . وأما إذا أتت مفردة فليست تدل على ذلك . ولذلك

ليس تدل في الأولياء على هذا المعنى ، وإن وجدت لهم . فعلى هذا ينبغي أن تفهم^(١) الأمر في دلالة المعجز على الأنبياء ، أعنى أن المعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة . وأما المعجز في غير ذلك من الأفعال فشاهد لها ومقور .

فقد تبين لك أن هذا الصنف من الناس موجودون ، ومن أين وقع العلم للناس بوجودهم ، حتى نقل وجودهم إلينا نقل تواتر ، كما نقل إلينا وجود الحكماء والحكمة وغير ذلك / من أصناف الناس .
ب/٦٠

فإن قيل : فمن أين يدل القرآن على أنه خارق ومعجز من نوع الخارق الذى يدل دلالة قطعية على صفة النبوة ، أعنى الخارق الذى في فعل النبوة الذى يدل عليها ، كما يدل فعل الإبراء على صفة الطب الذى هو فعل الطب ؟

قلنا : يوقف على ذلك من وجوه :

أحدها : أن يعلم أن الشرائع التى تضمنها ، من العلم والعمل ، ليست مما يمكن أن يكتسب بتعلم ؛ بل بوحى .

والثانى : ما تضمن من الإعلام بالغيوب .

والثالث : من نظمه الذى هو خارج عن النظام الذى يكون بفكر وروية ، أعنى أنه يعلم أنه من غير جنس البلغاء المتكلمين بلسان العرب ، سواء من تكلم منهم بذلك بتعلم وصناعة ، وهم الذين ليسوا بأعراب ، أو من تكلم بذلك من قبل المنشأ عليه ، وهم العرب الأول . والمعتمد فى ذلك على الوجه الأول ،

فإن قيل : فمن أين يعرف أن الشرائع ، التى فيها^(٢) العلمية والعملية هي بوحى من الله تعالى ، حتى استحق بذلك أن يقال فيها إنه كلام الله ؟

(٢) فى ١٠ : فيه

(١) فى ١٠ : يفهم .

قلنا : يوقف على هذا من طرق :

إحداها^(١) : أن معرفة وضع الشرائع ليس تنال إلا بعد المعرفة بآلة
وبالسعادة الإنسانية والشقاء الإنساني ، وبالأمر الإراديات التي يتوصل
بها إلى السعادة ، وهي الخيرات والحسنات ، وبالأمر التي تعوق عن
السعادة ، وتورث الشقاء الأخرى^(٢) ، وهي الشرور والسيئات . ومعرفة
السعادة الإنسانية والشقاء الإنساني تستدعي معرفة ما هي النفس ،
وما جوهرها ، وهل لها سعادة أخراوية^(٣) ، وشقاء أخراوي^(٤) أم لا ؟
وإن كان ، فما مقدار هذه السعادة وهذا الشقاء ؟ [أيضا]^(٥) فبأي مقدار
تكون الحسنات سببا للسعادة ؟ فإنه كما أن الأغذية ليست تكون سببا للصحة
بأي مقدار استعملت ، وفي أي وقت استعملت / ؛ بل بمقدار مخصوص وفي
وقت مخصوص ، [وكذلك]^(٦) الأمر في الحسنات والسيئات . ولذلك
نجد هذه كلها محددة^(٧) في الشرائع . وهذا كله ، أو معظمه ، ليس يتبين
إلا بوحى ، [أو يكون تبيينه بالوحى]^(٨) أفضل . وأيضا ، فإن معرفة الله
على التمام إنما تحصل بعد المعرفة بجميع الموجودات .

ثم يحتاج ، إلى هذا كله ، واضع الشرائع أن يعرف مقدار ما يكون
به الجمهور سعيدا من هذه المعرفة ، وأي الطرق هي الطرق التي ينبغي
أن تسلك بهم في هذه المعارف . وهذا كله ؛ بل أكثره ، ليس يدرك
بتعلم ولا بصناعة ولا حكمة^(٩) . وقد يعرف ذلك ، على اليقين ، من
زاول العلوم ، وبخاصة وضع الشرائع وتقرير القوانين والإعلام
بأحوال المعاد ، ولما وجدت هذه كلها ، في الكتاب العزيز ، على أنهم

(١) في «س» : أحدها	(٢) في «ا» : الأخرى
(٣ ، ٤) هكذا في جميع النسخ	(٥) سقطت في نسخة «ا»
(٦) في نسخة «ا» : كذلك	(٧) في نسخة «س» : محدودة ،
(٨) سقطت في نسخة «ب»	(٩) في «ا» بحكمة

ما يمكن علم أن ذلك بوحى من عند الله ، وأنه كلامه ألقاه على لسان نبيه .
ولذلك قال تعالى منها على هذا ، قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن
يأتوا بمثل هذا القرآن [لا يأتون بمثله] ^(١) ، الآية .

ويتأكد ^(٢) هذا المعنى ، بل يصير إلى حد القطع واليقين التام إذا علم
أنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان أمياً نشأ في أمة [أمية] ^(٣) عامية بدوية ،
لم يمارسوا العلوم ، ولا نسب إليهم علم ، ولا تداولوا الفحوص في الموجودات ،
على ما جرت به عادة اليونانيين وغيرهم من الأمم الذين كملت الحكمة فيهم
في الاحتجاب الطويلة . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : وما كنت تتلو
من قبله ^(٤) من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون . ، ولذلك
أثنى ^(٥) الله تعالى على عباده بوجود هذه الصفة في رسوله ، في غير ما آية من
كتابه ، فقال تعالى : وهو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، الآية .
وقال : الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى ، الآية .

وقد يوقف على هذا المعنى بطريق آخر هو مقابلة / هذه الشريعة / ب/
بسائر الشرائع . وذلك أنه إن كان فعل الأنبياء ، الذى ^(٦) هم به أنبياء ،
إنما هو وضع الشرائع بوحى من الله تعالى ، على ما تقرر الأمر في ذلك
من الجميع ، أعنى القائلين بالشرائع بوجود الأنبياء صلوات الله عليهم ،
فإنه إذا تؤمل ما تضمنه الكتاب العزيز من الشرائع المفيدة للعلم والعمل
المفيدين للسعادة مع ما تضمنته سائر الكتب والشرائع ، وجدت تفضل
في هذا المعنى ، سائر الشرائع بمقدار غير متناه .

(١) سقطت في نسخة « ١ » (٢) في « ١ » وبتين

(٣) سقطت في نسخة « ١ » (٤) في « س » تناولوا

(٥) في « ١ » : « من » وفى « ب » ونسخة مولد : أنى

(٦) في « س » : وفى طبعة الخنجرى « الذين »

وبالجملة ، فإن كانت ههنا [كتب] ^(١) واردة في شرائع استأهلت أن يقال إنها كلام الله ، لغرابتها وخروجها عن جنس كلام البشر ومفارقة ^(٢) بما تضمنت من العلم والعمل ، فظاهر أن الكتاب العزيز ، الذي هو القرآن ، هو أولى بذلك وأحرى أضعافاً مضاعفة .

وأنت فيلوح لك هذا جداً ، إن كنت وقفت على الكتب أعني التوراة والإنجيل . فإنه ليس يمكن أن تكون كلها قد تغيرت . ولو ذهبنا لنبيين [فضل شريعة على شريعة ، وفضل الشريعة المشروعة لنا] ^(٣) ، معشر المسلمين على سائر الشرائع المشروعة لليهود والنصارى ، وفضل التعليم الموضوع لنا في معرفة الله ومعرفة المعاد ، ومعرفة ما بينهما لاستدعى ذلك مجلدات كثيرة ، مع اعترافنا بالقصور عن استيفاء ذلك . ولهذا قيل ، في هذه الشريعة ، إنها خاتمة الشرائع ؛ وقال عليه السلام « لو أدركني موسى ما وسعني إلا اتباعي » ، وصدق صلى الله عليه وسلم .

ولعموم التعليم الذي في الكتاب العزيز . وعموم الشرائع التي فيها ^(٤) أعني كونها مسعدة للجميع ، كانت هذه الشريعة عامة لجميع الناس . ولذا قال تعالى « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » ؛ وقال عليه السلام : « بعثت إلى الأحمر والأسود » . فإنه يشبه أن يكون الأمر في الشرائع كالأمر في الأغذية . وذلك أنه كما أن من الأغذية أغذية ^(٥) تلائم جميع الناس ، أو الأكثر ، كذلك / الأمر في الشرائع . ولهذا المعنى كانت الشرائع ،

(١) سقطت في نسخة « ب » (٢) في نسخة « أ » : ومفارقتها

(٣) في « أ » : وفضل شريعة من الشرائع المشروعة لنا .

(٤) هكذا في جميع النسخ ، ويريد الشريعة الإسلامية .

(٥) توجد زيادة في « أ » وهي : تلائم بعض الناس دون بعض ، وهذه ليست طبيعية باطلاق ، ومنها أغذية تلائم الخ .

التي قبل شريعتنا هذه ، إنما خص بها قوم دون قوم ، وكانت شريعتنا هذه عامة لجميع الناس .

ولما كان هذا كله إنما فضل فيه ، صلى الله عليه وسلم ، الأنبياء ؛ لأنه فضلهم في الوحي الذي به استحق النبي اسم النبوة ، قال ، عليه السلام ، منها على هذا المعنى الذي خصه الله به : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما على مثله آمن جميع البشر . وإنما كل الذي أوتيته وحياً . وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة . »

وإذا كان هذا كله كما وصفنا فقد تبين لك أن دلالة القرآن على نبوته ، صلى الله عليه وسلم ، ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية على نبوة موسى عليه السلام ، ولا إحياء الموتى على نبوة عيسى ، وإبراهيم (١) الأكره والأبرص . فإن تلك ، وإن كانت أفعالا لا تظاهر إلا على أيدي الأنبياء ، وهي مقنعة عند الجمهور ، فليست تدل دلالة وضعية إذا انفردت ؛ إذ كانت ليست فعلا من أفعال الصفة التي بها سمي النبي نبيا .

وأما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الإبراء على الطب . ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب ، فقال أحدهما : الدليل على أني طبيب [أني أسير على الماء . . وقال الآخر : الدليل على أني طبيب] (٢) أني أبرأ المريض ، فمضى ذلك على الماء وأبرأ هذا المريض — لكان تصديقنا بوجود الطب الذي أبرأ المريض بهرمان ، وتصديقنا بوجود الطب الذي مشى على الماء مقنعاً ، ومن طريق الأولى والأخرى . ووجه الظن الذي يعرض للجمهور في ذلك أن من قدر على المشي على الماء ، الذي ليس من صنع البشر [فهو أحرى أن يقدر على الإبراء التي هو من صنع

(٢) سقطت في ١٥

(١) في ١٥ ولا إبراهيم

البشر [(١) وكذلك وجه الارتباط الذى بين المعجز الذى ليس هو من
أفعال الصفة ، [والصفة] التى استحق بها / النبى أن يكون نبياً التى هى ١٢/ب
الوحى . ومن هذه الصفة هو ما يقع فى النفس أن من أقدره الله على هذا
الفعل الغريب ، وخصه به من سائر أهل وقته ، فليس يبعد عليه ما يدعيه
من أنه قد آثره الله بوحيه .

وبالجملة ، متى وضع أن الرسل موجودون ، وأن الأفعال الخارقة
لا توجد إلا منهم ، كان المعجز دليلاً على تصديق النبى ، أعنى المعجز
البرانى الذى لا يناسب الصفة التى بها سُمى النبى نبياً ، ويشبه أن يكون
التصديق الواقع من قبل المعجز البرانى هو طريق الجمهور فقط ، والتصديق
من قبل المعجز المناسب طريق مشترك للجمهور وللعلماء . فإن تلك الشكوك
والاعتراضات التى وجهناها على المعجز البرانى ليس يشعر بها الجمهور .
لكن الشرع إذا تامل وجد أنه إنما اعتبر المعجز الأهلى والمناسب ،
لا المعجز البرانى . وهذا الذى قلناه فى هذه المسألة كاف بحسب غرضنا
وكاف بحسب الحق فى نفسه ،

* * *

(١) سقطت فى نسخة «ب»

(٢) سقطت فى «أ» .

في القضاء والقدر

أما الآيات التي تدل على أن الأمور كلها ضرورية ، وأنه قد سبق
 القدر فانه (٢) قوله تعالى : «إنا كل شيء خلقناه بقدر» ، وقوله : «وكل
 شيء عنده بمقدار» ، وقوله : «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في
 السماء إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير» ، إلى غير
 ذلك من الآيات التي تتضمن هذا المعنى .

وأما الآيات التي تدل على أن الإنسان اكتسابا ، على ^(٣) أن الأمور في أنفسهم ممكنة لا واجبة ، فقل قوله تعالى : «أو يوبقن بما كسبوا ويعف ^(٤) عن كثير» ، وقوله تعالى : «ذلك بما كسبت أيديكم» ^(٥) وقوله تعالى : «والذين كسبوا السيئات» وقوله : «لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت»

(۱) سقعات فی د ا ،

(٢) هكذا في كل نسخة «س»، «ب»، وموالر. أما في نسخة «ا» وطبعة الحنبلي فتوجد؛ فمنها،

(٤) في نسخة موالار : وبنوا

(۳) فی « ا » : وعلى

(۵) صحیحۃ الآیۃ : « وما أصابکم من مصیبة فمما کسبت أیدیکم » سورة الشوری آیت ۳

وقوله [تعالى] (١) : «وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى »
وربما ظهر في الآية الواحدة التعارض في هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :
« أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند
أنفسكم » . ثم قال في هذه النازلة بعينها : « وما أصابكم يوم التقى الجمعان
فبإذن الله ، وقوله تعالى . « وما أصابك من حسنة فمن الله » ، وما أصابك
من سيئة فمن نفسك » [وقوله] (٢) : « قل كل من عند الله » .
وكذلك تلى الأحاديث في هذا أيضا متعارضة ، مثل قوله ، عليه
السلام : « كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه » ،
ومثل قوله عليه السلام : « خلقت هؤلاء للجنة وبأعمال أهل الجنة
يعملون ، وخلقت هؤلاء للنار وبأعمال أهل النار يعملون » . فإن الحديث
الأول يدل على أن سبب الكفر إنما هو المنشأ عليه ، وأن الإيمان سببه
جيلة الإنسان . والثاني يدل على أن المعصية والكفر هما مخلوقان لله ،
وأن العبد مجبور عليهما .
ولذلك اختلف المسلمون في هذا المعنى إلى فرقتين :
معتزلة اعتقدت أن اكتساب الإنسان هو سبب المعصية والحسنة ،
وأن لما كان هذا ترتب عليه العقاب والثواب ، وهم المعتزلة .
وفرقة اعتقدت نقيض هذا . وهو أن الإنسان مجبور على أفعاله
ومقهور ، وهم الجبرية .

وأما الأشعرية فإنهم راموا أن يأتوا بقول وسط بين القولين ، فقالوا :
إن للإنسان كسبا ، وإن المكتسب به والكسب (٣) مخلوقان لله تعالى .
وهذا لا معنى له . فإنه إذا كان الاكتساب والمكتسب مخلوقان لله .

(١) توجد في نسخة «س» . (٢) سقطت في نسخة «ن» .
(٣) هكذا في «س» ونسخة مولر ، وطبعة الخافض . أما في مخطوطه : «أ» فهي : المكتسب .

سبحانه . فالعبد / ولا بد مجبور على اكتسابه .

فهذا هو أحد أسباب الاختلاف في هذه المسألة . والاختلاف ، كما قلنا ، سبب آخر سوى السمع ، وهو تعارض الأدلة العقلية في هذه المسألة . وذلك أنه إذا فرضنا أن الإنسان موجود لأفعاله وخالق لها ، وجب أن يكون هنا أفعال ليس تجري على مشيئة الله تعالى ولا اختياره ، فيكون ههنا خالق غير الله — قلوا : وقد أجمع المسلمون [على] ^(١) على أنه لا خالق إلا الله سبحانه . وإن فرضناه أيضاً غير مكتسب لأفعاله وجب أن يكون مجبوراً عليها ، [فإنه لا وسط بين الجبر والاكْتِسَاب . وإذا كان الإنسان مجبوراً على أفعاله] ^(٢) فالتكليف هو من باب ما لا يطاق . وإذا كلف الإنسان ما لا يطيق لم يكن فرق بين تكليفه وتكليف الجهاد ؛ لأن الجهاد ليس له استطاعة ؛ وكذلك الإنسان ليس له فيما لا يطيق استطاعة . ولهذا صار الجمهور إلى أن الاستطاعة شرط من شروط التكليف كالعقل سواء عم ولهذا نجد أبا المعالي قد قال في النظامية ^(٣) إن للإنسان اكتساباً لأفعاله واستطاعة على الفعل ؛ وبناء على امتناع تكليف ما لا يطاق ، لمكن من غير الجهة التي منعت المعترلة . وأما قدماء الأشعرية فجوزوا ^(٤) تكليف ما لا يطاق هرباً من الأصل الذي من قبله نفقه المعترلة ، وهو كونه قبيحاً في العقل ، وخالفهم المتأخرون منهم .

وأيضاً فإنه إذا لم يكن للإنسان اكتساب كان الأمر بالآهية لما يتوقع من الشرور لا معنى له ، وكذلك الأمر باجتلاب الخيرات . فتبطل أيضاً الصنائع كلها التي المقصود منها أن تجلب الخيرات ، كصناعة

(١) سقطت في « ١ » . (٢) سقطت في « ب » .

(٣) في « ١ » وفي « ب » : « مال في النظامية إلى أن » .

(٤) في « ١ » : فيجوزون

الفلاحة ، وغير ذلك ، من الصنائع التي يطلب بها المنافع ؛ وكذلك تبطل جميع الصنائع التي يقصد بها الحفظ ودفع المضار ، كصناعة الحرب والملاحة والطب ، وغير ذلك ، وهذا كله خارج عما يعقله الإنسان .

إِنْ قِيلَ : فإذا كان الأمر هكذا فكيف يجمع بين هذا التعارض الذي يوجد في المسموع نفسه ، وفي المعقول نفسه ؟

قلنا : الظاهر من مقصد الشارع ليس هو تفريق هذين الاعتقادين ، وإنما قصده الجمع بينهما على التوسط الذي هو الحق في هذه المسألة ؛ وذلك أنه يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خاق لنا قوى تقدر بها أن نمكنسب أشياء هي أضداد . لنكن لما كان الاكتساب لتلك الأشياء ليس يتم لنا إلا بموافاة الأسباب التي سخرها الله لنا من خارج وزوال العوائق عنها ، كانت الأفعال المنسوبة إلينا تتم بالأمرين جميعاً . وإذا كان ذلك فالأفعال المنسوبة إلينا أيضاً يتم فعلها بإرادتنا وموافقة الأفعال التي من خارج لها ، وهي المعبر عنها بقدر الله . وهذه الأسباب التي سخرها الله من خارج ليست هي متممة للأفعال التي نروم فعلها أو عاقبة عنها فقط ؛ بل وهي السبب في أن نزيد أحد المتقابلين . فإن الإرادة إنما هي شوق يحدث لنا عن تخيل ما ، أو تصديق بشيء . وهذا التصديق ليس هو لاختيارنا ؛ بل هو شيء يعرض لنا عن ^(١) الأمور التي من خارج . مثال ذلك أنه إذا ورد علينا أمر مشتبه من خارج اشتبهناه بالضرورة من غير اختيار ، فتمحركنا إليه . وكذلك إذا طرأ علينا أمر مرهوب عنه من خارج كرهناه بالضرورة ^(٢) ، فهربنا منه . وإذا كان هكذا فإرادتنا محفوظة بالأمور التي من خارج ، ومربوطة بها . [إلى] ^(٣)

(١) في «أ» وفي نسخة مولار : من . (٢) في بقية النسخ الأخرى : باضطرار

(٣) سقط في «ب» .

هذا الإشارة بقوله تعالى : د له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله .

ولما كانت الأسباب التي من خارج تجري على نظام محدود ، وترتيب منضود لا تخل في ذلك بحسب ما قدرها بارئها عليه ، وكانت إرادتنا وأفعالنا لا تتم ، ولا توجد بالجملة . إلا بموافقة الأسباب التي من خارج فواجب أن تكون / أفعالنا تجري على نظام محدود ، أعني أنها توجد في أوقات محدودة ومقدار محدود . (١) وإنما كان ذلك واجبا لأن أفعالنا تكون مسببة عن تلك الأسباب التي من خارج . وكل مسبب يكون عن أسباب محدودة مقدرة ، فهو ، ضرورة ، محدودة مقدر . وليس ينافي هذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج فقط ، بل ويذنبها بين الأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا . والنظام المحدود في الأسباب الداخلة والخارجة ، أعني التي لا تخل ، هو القضاء والقدر الذي كتبه الله تعالى على عباده ، وهو اللوح المحفوظ . وعلم الله تعالى بهذه الأسباب ، وبما يلزم عنها ، هو العلة في وجود هذه الأسباب . (٢) ولذلك كانت هذه الأسباب لا يحيط بمعرفتها إلا الله وحده . ولذلك كان هو العالم بالغيب وحده على الحقيقة ، كما قال تعالى : د قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله . ، وإنما كانت معرفة الأسباب هي العلم بالغيب ، لأن الغيب هو معرفة وجود الموجود في المستقبل أولا وجوده . (٣)

(١) هذا هو مبدأ الحتمية الذي يرمى به فلاسفة العصر الحديث . أنظر كتابنا في المنطق الحديث ، الطبعة الثالثة من ص ٦٢ إلى ص ٦٨ .
(٢) هذه هي النظرية الرشدية الشهيرة التي استغلها توماس الأكويني كل الاستغلال ونسبها إلى نفسه . أنظر كتابنا نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني .
(٣) وهذه هي فكرة المحدثين عن العلم الذي يكشف عن القوانين . فتسكون وظيفته الأساسية هي التكهن بالمستقبل . المصدر السابق صفحة ٤٨ وما بعدها .

ولمّا كان ترتيب الأسباب ونظامها هو الذى يقتضى وجود الشيء فى وقت ما أو عدمه فى ذلك الوقت ، وجب أن يكون العلم بأسباب شيء ما هو العلم بوجود ذلك الشيء أو عدمه فى وقت ما . والعلم بالأسباب على الإطلاق هو العلم بما يوجد منها ، أو ما يعدم فى وقت من أوقات جميع الزمان . فسبحان من أحاط اختراعاً وعلماً بجميع أسباب جميع الموجودات . وهذه هى مفاتيح الغيب المعنوية^(١) فى قوله تعالى : « وعنده مفاتيح الغيب » لا يعلمها إلا هو ، الآية .

وإذا كان هذا كله كما وصفنا فقد تبين لك كيف لنا اكتساب ، وكيف جميع مكتسباتنا بقضاء وقدر سابق . وهذا الجمع هو الذى قصده الشرع بتلك الآيات العامة والأحاديث التى يظن بها التعارض ، وهى إذا خصصت عموماتها بهذا المعنى انتفى عنها التعارض . وبهذا أيضاً تتحل جميع الشكوك التى قيلت فى ذلك ، أعنى الحجج المتعارضة العقلية ، أعنى أن كون الأشياء الموجودة عن إرادتنا يتم وجودها بالأمرين جميعاً ، أعنى بإرادتنا وبالأسباب التى من خارج . فإذا نسبت الأفعال إلى واحد من هذين على الإطلاق لحقت الشكوك المتقدمة .^(٢)

فإن قيل : هذا جواب حسن يوافق الشرع فيه العقل ، لكن هذا القول هو مبنى على أن ههنا أسباباً فاعلة لمسببات مفعولة ، والمسلمون قد انفقروا على أن لا فاعل إلا الله .

قلنا : ما انفقوا عليه صحيح ، ولكن على هذا جوابان :

(١) فى « أ » و « ب » : المعينة .

(٢) بعد حل ابن رشد لمشكلة القضاء والقدر أسلم الحلول ، وهو يتفق مع العقل والدين . أما العقل فلأنه يقرر ما يؤكده العلم الحديث من وجود قوانين ثابتة معارضة ، وأما الدين فلأنه يحل لنا مشكلة الثواب والعقاب والتكليف بما يطاق .

أحدهما : أن الذى يمكن أن يفهم من هذا القول هو أحد أمرين : إما أنه لا فاعل إلا الله تبارك وتعالى ، وأن ما سواه من الأسباب التى سخرها ليست تسمى فاعلة إلا مجازاً ؛ إذ كان وجودها إنما هو به ، وهو الذى يصيرها موجودة أسباباً ؛ بل هو الذى يحفظ وجودها فى كونها فاعلة ، ويحفظ مفعولاتها بعد فعلها ، ويخترع جواهرها عند اقتران الأسباب بها ، وكذلك يحفظها هو فى نفسها ، ولولا الحفظ الإلهى لما وجدت زماناً مشاراً إليه ، أعنى لما وجدت فى أقل زمان يمكن أن يدرك أنه زمان . وأبو حامد يقول إن مثال من يشرك سبباً من الأسباب مع الله تعالى فى اسم الفاعل والفعل مثال من يشرك فى فعل الكتابة القلم مع الكاتب ، أعنى أن يقول : إن القلم كاتب ، وإن الإنسان كاتب ، أى كما أن اسم الكتابة مقول باشتراك الاسم عليهما ، أعنى أنهما معنيان لا يشتركان إلا فى اللفظ فقط ، وهما فى أنفسهما فى غاية التباعد ؛ كذلك الأمر فى اسم الفاعل إذا أطلق على الله تبارك وتعالى ، / وإذا أطلق على سائر الأسباب .

ب/٦٠

ونحن نقول إن فى هذا التمثيل تصاعداً . وإنما كان يكون التمثيل بيناً لو كان الكاتب هو المخترع لجوهر القلم ، والحافظ له مادام قلماً ، ثم الحافظ للكتابة بعد الكتاب ، والمخترع لها عند اقتران القلم بها على ما سنبينه بعد ، من أن الله تعالى هو المخترع لجواهر جميع الأشياء التى تقترن بها أسبابها التى جرت العادة أن يقال إنها أسباب لها .

فهذا الوجه المفهوم من أنه لا فاعل إلا الله هو مفهوم يشهد له الحس والعقل والشرع . أما الحس والعقل فإنه يرى أن ههنا أشياء تتولد عنها أشياء ، وأن النظام الجارى فى الموجودات إنما هو من قبل أمرين :

أحدهما : ماركب الله فيها من الطبائع والنفوس .

الثانى : من قبل ما أحاط بها من الموجودات من خارج ؛ وأشهر هذه

هى حركات الأجرام السماوية ؛ فإنه يظهر [أن الليل والنهار ^(١) والشمس والقمر ، وسائر النجوم مسخرات لنا ، وأنه لمسكان النظام والترتيب الذى جعله الخالق فى حركاتها ، كان وجودنا ووجود ما ههنا محفوظاً بها ، حتى أنه لو توهّم ارتفاع واحد منها ، أو توهّم فى غير موضعه ، أو على غير قدره ، أو فى غير السرعة التى جعلها الله فيه ، لبطلت الموجودات ، التى على وجه الأرض ، وذلك بحسب ما جعل الله فى طباعها من ذلك وجعل فى طباع ما ههنا أن تتأثر عن تلك . وذلك ظاهر جداً فى الشمس والقمر ، أعنى تأثيرهما فيما ههنا . وذلك بين فى المياه والرياح والأمطار والبحار ، وبالجملة فى الأجسام المحسوسة ، وأكثر ما يظهر ضرورة وجودها فى حياة النبات ، وفى كثير من الحيوان ؛ بل فى جميع الحيوان بأسره .

١ / ٦٦ من التغذى والإحساس لبطلت أجسامنا ^(٢) كما نجد دجالينوس ، وسائر الحكماء يعترفون بذلك ، ويقولون : لولا القوى التى جعلها الله فى أجسام الحيوان مدبرة لها لما أمكن فى أجسام الحيوان أن تبقى ساعة واحدة بعد إيجادها .

✓ ونحن نقول : إنه لولا القوى التى فى أجسام الحيوان والنبات والقوى السارية فى هذا العالم من حركات الأجرام السماوية لما أمكن أن تبقى أصلاً ، ولا طرفة عين ؛ فسبحان اللطيف الخبير . وقد فيه الله تعالى على ذلك فى غير ما آية من كتابه ، فقال تعالى : « وسنخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر . » ، وقوله تعالى : « قل أرايتم إن جعل الله عليكم

(١) سقط فى « أ » .

(٢) توجد فى نسخة « س » .

الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، الآية ، وقوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » ، وقوله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات و[ما في] الأرض جميعاً منه »^(١) وقوله : « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »^(٢) إلى غير ذلك من الآيات التي في هذا المعنى . ولو لم يكن لهذه تأثير فيما ههنا لما كان لوجودها حكمة امتن بها علينا ، ولا جعلت من النعم التي يخضنا شكرها .

وأما الجواب الثاني فإننا نقول إن الموجودات الحادثة منها ما هي جواهر وأعيان ، ومنها ما هي حركات وسخونة وبرودة ، وبالجملة أعراضها فاما الجواهر والأعيان فليس يكون اختراعها إلا عن الخالق سبحانه . وما يقتزن بها من الأسباب فإنما يؤثر في أعراض تلك الأعيان لا في جواهرها . مثال ذلك أن المني إنما يفيد من المرأة أو دم الطمث حرارة فقط . وأما خلقه الجنين ونفسه التي هي الحياة فإنما المعطى لها الله تبارك وتعالى . وكذلك الفلاح إنما يفعل في الأرض تخميراً أو إصلاحاً ويبذر فيها الحب : وأما المعطى لخلق السنبلة فهو الله تبارك وتعالى . فإذا / على هذا لا غائق ٦٦/ب
إلا الله ؛ إذ كانت المخلوقات في الحقيقة هي الجواهر . وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى^(٣) : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلمهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه [ضعف الطالب والمطلوب .] »^(٤) وهذا هو الذي رام أن يغالط فيه الكافر إبراهيم عليه السلام ، حين قال : « أنا أحبي وأميت ، فلما رأى إبراهيم عليه السلام ، أنه لا يفهم هذا المعنى انتقل معه إلى دليل

(١) سقطت في جميع النسخ وصحة الآية هي : وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض

جميعاً منه . . . سورة الجاثية آية ١٣ .

(٢) سورة إبراهيم آية ١٣ .

(٣) في « ١ » بقوله تبارك وتعالى : « أن رأيتم ما تمنعون ، الآيات وقوله الخ »

(٤) سقط في « ١ »

قطعه به ، فقال : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . ،
وبالجملة فإذا فهم الأمر هكذا في الفاعل والخالق لم يعرض من ذلك
تعارض ، لا في السمع ولا في العقل . ولذلك ما نرى أن [اسم الخالق
أخص بالله تعالى من اسم الفاعل لأن]^(١) اسم الخالق لا يشركه فيه المخلوق ،
لا باستعارة قريبة ولا بعيدة ؛ إذ كان معنى الخالق هو المخترع للجواهر .
ولذلك قال تعالى : « والله خلقكم وما تعملون . »

وينبغي أن تعلم أن من جحد كون الأسباب مؤثرة بإذن الله في مسبباتها
أنه قد أبطل الحكمة وأبطل العلم . وذلك أن العلم هو معرفة الأشياء بأسبابها .
والحكمة هي المعرفة بالأسباب الغائية . والقول بإنكار الأسباب جملة [هو]^(٢)
قول غريب جدا عن طباع الناس . والقول بنفي الأسباب في الشاهد ليس
له سبيل إلى إثبات سبب فاعل في الغائب ؛ لأن الحكم على الغائب من ذلك
إنما يكون من قبل الحكم بالشاهد . فهو لا . لا سبيل لهم إلى معرفة الله
تعالى ؛ إذ يلزمهم ألا يعترفوا بأن كل فعل له فاعل . وإذا كان هذا هكذا
فليس يمكن من إجماع المسلمين على أنه لا فاعل إلا الله سبحانه أن يفتهم أني
وجود الفاعل بته في الشاهد ؛ إذ من وجود الفاعل [في الشاهد]^(٣)
١ / ٦٧ استدللنا على وجود الفاعل في الغائب . / لكن لما تقرر عندنا الغائب
تبين لنا ، من قبل المعرفة بذاته ، أن كل ما سواه فليس فاعلا إلا بإذنه ،
وعن مشيئته .

* * *

فقد تبين من هذا على أي وجه يوجد لنا اكتساب ، وأن من قال
بأحد الطرفين من هذه المسألة فهو مخطئ ، كالمعتزلة والجبورية .

(٢) سقط في نسخة «س»

(١) سقط في نسخة «ب»

(٣) سقط في «ا»

وأما المتوسط الذى تروم الأشعرية أن تكون هى صاحبة الحق بوجوده ،
فليس له وجود أصلا ؛ إذ لا يجعلون للإنسان من اسم الاكتساب
إلا الفرق الذى يدركه الإنسان بين حركة يده على الرعشة وتحريك يده
باختياره ، فإنه لا معنى لاعترافيهم بهذا الفرق ؛ إذا قالوا إن الحركتين ليستا
من قبيلنا ؛ لأنه إذا لم تكن من قبيلنا فليس لنا قدرة على الامتناع منهما .
فنحن مضطرون . فقد استوت حركة الرعشة والحركة التى يسمونها كسبية
فى المعنى . ولم يكن هنالك فرق إلا فى اللفظ فقط . والاختلاف فى اللفظ
ليس يوجب حكما فى الذوات . وهذا كله بين بنفسه ، فلنسر إلى ما بقى
علينا من المسائل التى وعدنا بها^(١) .

(١) فى « ب » وفى نسخة موالر : وعدناها .

المسألة الرابعة

في الجور والعدل

قد ذهب الأشعرية في العدل والجور في حق الله سبحانه إلى رأى غريب جداً في العقل والشرع ، أعنى أنها صرحت من ذلك بمعنى لم يصرح به الشرع ؛ بل صرح بعكسه . وذلك أنهم قالوا إن الغائب في هذا بخلاف الشاهد . وذلك أن الشاهد زعموا أنه إنما اتصف بالعدل والجور لمكان الحجر [الذى]^(١) عليه في أفعاله من الشريعة . فتى فعل الإنسان شيئاً هو عدل بالشرع كان عدلاً ، ومن فعل ما وضع الشرع أنه جور فهو جائر قالوا : وأما من ليس مكلفاً ولا داخل تحت حجر الشرع^(٢) فليس يوجد في حقه فعل هو جور أو عدل ؛ بل كل أفعاله عدل . / والتزموا أنه ليس ٦٧/ به ههنا شيء هو في نفسه عدل ، ولا شيء هو في نفسه جور .

وهذا في غاية الشناعة ، فإنه ليس يكون ههنا شيء هو في نفسه خير ، ولا شيء هو في نفسه شر . فإن العدل معروف بنفسه أنه خير ، وأن الجور شر ؛ فيكون الشرك بالله ليس في نفسه جوراً ولا ظلاً إلا من جهة الشرع ، وأنه لو ورد الشرع بوجوب اعتقاد الشريك له لمكان عدلاً ، وكذلك لو ورد بمعصيته لمكان عدلاً ، وهذا خلاف المسموع والمعقول . أما المسموع فإن الله قد وصف نفسه في كتابه بالقسط ، ونفى^(٣) عن نفسه الظلم ، فقال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » ، وقال تعالى : « وما ربك بظلام للعبيد » ، وقال : « إن الله

(١) هكذا في نسخة «س» وفي طبعة الخاتمي .

(٢) لقد سقط من مخطوط «ا» فقرة طويلة ، تبدأ هنا وتنتهى بقوله : « والشجرة

المملونة » ، صفحة ٢٣٦ . (٣) في نسخة س : نفا .

لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

فإن قيل : فما تقول في الإضلال للعبيد : أهو جور أم عدل ؟ وقد صرح الله في غير ما آية من كتابه أنه يضل ويهدي ، مثل قوله تعالى : « [يضل ^(١)] الله من يشاء ويهدي من يشاء ، ومثل قوله : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ،

قلنا : إن هذه الآيات ليس يمكن أن تحمل على ظاهرها . وذلك أن ههنا آيات كثيرة تعارضها بظاهرها ، مثل الآيات التي نفي فيها سبحانه عن نفسه الظالم ، ومثل قوله تعالى : « ولا يرضى لعباده الكفر » . وهو بين أنه إذا لم يرض لهم الكفر أنه ليس يضلمهم .

وما تقوله الأشعرية من أنه يجوز على الله أن يفعل ما لا يرضاه ، أو يأمر بما لا يريده ، فنغزو بالله من هذا الاعتقاد في الله سبحانه ، وهو كفر .

وقد يدل على أن الناس لم يضلوا ، ولا خلقوا للضلال ، قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » ، وقوله : « وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ، الآية » ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة » .

وإذا كان هذا التعارض موجوداً وجب الجمع بينهما ، على نحو ما يوجبه

١/٦ العقل .

فنقول : أما قوله تعالى : « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » ، فهي المشيئة السابقة التي اقتضت أن يكون في أجناس الموجودات خلق ضالون ،

(١) هكذا في جميع النسخ ، وصحة الآية [فيضل] سورة إبراهيم آية ٤ : « فيضل الله من يشاء » الآية .

أعنى مهيتين للضلال بطبائعهم ومسوقين إليه بما نكشفهم من الأسباب المضلة ، من داخل ومن خارج ، وأما قوله : « ولو شئنا لآتيناك كل نفس هداها ، معناه لو شاء ألا يخلق خلقاً مهيتين أن يعرض لهم الضلال — إما من قبل طبائعهم وإما من قبل الأسباب التي من خارج ، أو من قبل الأمرين كليهما — لفعل . ولكون خلفه الطباع في ذلك مختلفة عرض أن يكون بعض الآيات مضلة لقوم ، وهداية ^(١) لقوم ، لا لأن هذه الآيات بما قصد بها الإضلال ، مثل قوله تعالى : « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » ، ومثل قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة ^(٢) في القرآن » ، ومثل قوله في أثر تعديده ملائكة النار « كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » ، أى أنه يعرض للطبائع الشريرة أن تكون هذه الآيات في حقهم مضلة ، كما يعرض للأبدان الرديئة أن تكون الأغذية النافعة مضرة بها .

فإن قيل : فما الحاجة إلى خلق صنف من المخلوقات يكونون بطبائعهم مهيتين للضلال ، وهذا هو غاية الجور ؟

قيل : إن الحكمة الإلهية اقتضت ذلك ، وإن الجور كان يكون في غير ذلك . ^(٣) وذلك أن الطبيعة التي منها خلق الإنسان ، والتركيب الذي ركب عليه ، اقتضى أن يكون بعض الناس ، وهو الأقل ، أشراراً بطبائعهم . وكذلك الأسباب المترتبة من خارج لهداية الناس لحقها أن تكون لبعض الناس مضلة ، وإن كانت للأكثر مرشدة . فلم يمكن بد ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، من أحد أمرين : إما ألا يخلق الأنواع التي وجد

(١) هكذا في كل من « س » ، « ب » ونسخة مولد . أما في « ا » وطبعة المازني .
- ففى : هادية .

(٢) نهاية الفقرة الطويلة التي سقطت من « ا » في ص ٢٢٤

(٣) في « ا » : في ذلك .

فيما الشرور في الأقل والخير في الأكثر ، فيعدم الخير الأكثر بسبب^(١) ٦٨/ب
الشر الأقل ، وإما أن يخلق هذه الأنواع ، فيوجد / فيها الخير الأكثر مع
الشر الأقل . ومعلوم بنفسه أن وجود الخير الأكثر مع الشر الأقل أفضل
من إعدام الخير الأكثر لمكان وجود الشر الأقل . وهذا الشر من الحكمة
هو الذي خفي على الملائكة ، حين قال الله سبحانه حكاية عنهم حين أخبرهم
أنه جاعل في الأرض خليفة ، يعني بنى آدم : « قالوا أتجعل فيها من يفسد
فيها ويسفك الدماء » ونحن نسبح بحمدك^(٢) . ، إلى قوله : « إني أعلم
ما لا تعلمون » ، يريد أن العلم الذي خفي عنهم هو أنه إذا كان وجود
شيء من الموجودات خيرا وشرًا ، وكان الخير أغلب عليه أن الحكمة تقتضي
إيجاده لا إعدامه .

فقد تبين من هذا القول كيف ينسب إليه الإضلال مع العدل واني
الظالم وأنه إنما خالق أسباب الضلال^(٣) لأنه يوجد عنهما غالباً الهداية أكثر
من [الإضلال]^(٤) ؛ وذلك أن من الموجودات ما أعطى من أسباب الهداية
أسباباً لا يعرض منها [إضلال أصلاً، وهذه هي حال الملائكة، ومنهم ما أعطى
من أسباب الهداية أسباباً يعرض فيها]^(٥) الإضلال في الأقل ؛ إذ لم يكن
في وجودهم أكثر من ذلك لمكان التركيب ، وهذه هي حال الإنسان .

فإن قيل : فما الحكمة في ورود هذه الآيات المتعارضة في هذا المعنى ،
حتى يضطر الأمر فيها إلى التأويل ، وأنت تنفي التأويل في كل مكان ؟
قلنا : إن تفهيم الأمر على ما هو عليه للجمهور في هذه المسألة اضطرارهم
إلى هذا . وذلك أنهم احتاجوا أن يعرفوا بأن الله هو الموصوف بالعدل .
وأنه خالق كل شيء : الخير والشر ؛ لمكان^(٦) ما كان يعتقد كثير.

(٢) سقط في « ١ » .

(١) في « ب » : مع .

(٤) هكذا في « س » ، وفي النسخ الأخرى : الإضلال .

(٣) في « ب » الإضلال

(٦) في « ١ » لكثرة .

(٥) سقط في « ب »

من الأمم الضلال^(١) أن ههنا إلهين : إلهاً خالقاً للخير ، وإلهاً خالقاً للشر .
فعرّفوا أنه خالق الأمرين جميعاً .

ولما كان الإضلال شراً ، وكان لا خالق له سواه ، وجب أن ينسب إليه ،
١٦٩/ كما ينسب إليه خلق الشر .^(٢) لكن ليس ينبغي / أن يفهم هذا على
الإطلاق ؛ لكن على أنه خالق للخير لذات الخير ، وخالق للشر من أجل
الخير ، أعني من أجل ما يقترن به من الخير . فيكون على هذا خلقه للشر
عدلاً منه . ومثال ذلك أن النار خلقت لما فيها من قوام الموجودات التي
ما كان يصح وجودها لولا وجود النار ؛ لكن عرض عن طبيعتها أن تفسد
بعض الموجودات . لكن إذا قوبل بين ما يعرض عنها من الفساد الذي
هو الشر ، وبين ما يعرض عنها من الوجود ، الذي هو خير ، كان وجودها
أفضل من عدمها ، فكان خيراً .

وأما قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ، فإن معناه لا يفعل
فعلًا من أجل أنه واجب عليه أن يفعله ؛ لأن من هذا شأنه فبه
حاجة إلى ذلك الفعل . وما كان هكذا فهو في وجوده يحتاج إلى ذلك الفعل ؛
إما حاجة ضرورية ، وإما أن يكون به تاماً . والبارئ سبحانه يتنزه عن
هذا المعنى . فالإنسان يعدل ليستفيد بالعدل خيراً في نفسه ، لو لم يعدل
لم يوجد له ذلك الخير . وهو سبحانه يعدل ، لا لأن ذاته تستكمل بذلك
العدل ؛ بل لأن السكال الذي في ذاته اقتضى أن يعدل . فإذا فهم هذا
المعنى هكذا ظهر أنه لا يتصف بالعدل على الوجه الذي يتصف به الإنسان .
لكن ليس يوجب هذا أن يقال إنه ليس يتصف بالعدل أصلاً ، وأن
الإفعال كلها تكون في حقه لا عدلاً ولا جوراً ، كما ظنه المتكلمون . فإن

(١) في « ا » اسم الضلال .

(٢) في « ا » : الخير

هذا لإبطال لما يعقله الإنسان ؛ وإبطال لظاهر الشريعة . ولكن القوم شعروا بمعنى ، ووقعوا دونه . وذلك أنه إذا فرضنا أنه لا يتصف بعدل أصلاً بطل ما يعقل من أن ههنا أشياء هي في نفسها عدل وخير ، وأشياء هي في نفسها جور وشر . وإذا فرضنا أيضاً أنه يتصف بالعدل على جهة ما يتصف به الإنسان لزم أن يكون في ذاته سبحانه نقص ؛ وذلك أن الذي يعدل فإنما وجوده / هو من أجل الذي يعدل فيه ، وهو بما هو ١/٦٩ عادل خادم لغيره .

ويأتيني أن تعلم أن هذا القدر من التأويل ليس معرفته واجبة على جميع الناس ، وإنما الذين تجب عليهم هذه المعرفة هم الذين عرض لهم الشك في هذا المعنى . وليس كل أحد من الجمهور يشعر بالمعارضات التي في تلك العمومات . فمن لم يشعر بذلك فقرضه اعتقاد تلك العمومات على ظاهرها . وذلك أن لورود تلك العمومات أيضاً سبباً آخر ، وهو أنه ليس يتمين^(١) لهم المستحيل من الممكن . والله تعالى لا يوصف بالاقتدار على المستحيل . فلو قيل لهم فيما هو مستحيل في نفسه ، بما هو عندهم ممكن ، أعني في ظنونهم ، إن الله لا يوصف بالقدرة عليه لتخيّلوا^(٢) من ذلك نقصاً في الباري سبحانه وعجزاً ؛ وذلك أن الذي لا يقدر على الممكن فهو عاجز . ولما كان وجود جميع الموجودات بريئة من الشر ممكناً في ظن الجمهور قال : « ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها واسكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . » فالجمهور يفهمون من هذا معنى ، والخواص معنى ، وهو أنه ليس يجب عليه سبحانه أن يخلق خلقاً يقترن بوجودهم شر . فمعنى قوله : « ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها » أي لو شئنا لخلقنا خلقاً ليس يقترن بوجودهم شر ؛ بل الخلق الذين هم خير محض ؛ فتكون كل نفس قد أوتيت هداها . وهذا القدر في هذه المسألة كاف ، ولنسر إلى المسألة الخامسة .

(٢) في «ب» و «س» ونسخة «م» «

(١) في «أ» : يتبين

وطبعة الخانجي : فتخيّلوا .

المسألة الخامسة

وهي القول في المعاد وأحواله

والمعاد لما انفقت على وجوده الشرائع ، وقامت عليه البراهين عند العلماء ، وإنما اختلفت الشرائع في صفة وجوده . ولم تختلف ، في الحقيقة ١/٧. في صفة وجوده ، وإنما اختلفت في الشهادات / (١) التي مثلت بها للجسمور تلك الحال القائبة . وذلك ، أن من الشرائع من جعله روحانياً ، أعني للنفوس ، ومنها من جعله للأجسام والنفوس معاً . والاتفاق في هذه المسألة مبنى على اتفاق الوحي في ذلك ، واتفاق قيام البراهين الضرورية عند الجميع على ذلك ، أعني أنه قد اتفق الكل على أن الإنسان سمادتين : أخراوية ودنياوية ، وأنبئ ذلك عند الجميع على أصول^(٢) يعترف^(٣) بها عند الكل ؛ منها أن الإنسان أشرف من كثير من الموجودات . (٢) ومنها أنه إذا كان كل موجود يظهر من أمره أنه لم يخلق عبثاً ، وأنه إنما خلق لفعل مطلوب منه ، وهو ثمرة وجوده فالإنسان أحرى بذلك . وقد نبه الله تعالى على وجود هذا المعنى في جميع الموجودات في الكتاب العزيز ، فقال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . » وقال مثنياً على العلماء المعترفين بالغاية المطلوبة من هذا الوجود : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتسكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار . » ووجود الغاية في الإنسان أظهر منها في جميع الموجودات . وقد نبه الله سبحانه عليها في غير ما آية من كتابه ، فقال : « ألهيتم أنما خلقناكم عبثاً ،

(١) في «١» الثلاث (٢) في «١» معترف (٣) في «ب» نى : الوجودات

وأنكم ، إلينا لا ترجعون ، ، وقال : « يحسب الإنسان أن يترك سدى ، ،
وقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ، يعنى الجنس من
الموجودات الذى يعرفه . وقال منبهاً على ظهور وجوب العبادة من قبل
المعرفة بالخالق : « وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، ،

وإذا ظهر أن الإنسان خلق^(١) من أجل أفعال مقصودة به ،^(٢) ظهر
أيضاً أن هذه الأفعال يجب أن تكون خاصة ؛ لإنا نرى أن واحداً
واحداً من الموجودات إنما خلق من أجل الفعل الذى يوجد فيه ، لافى
غيره ، أعنى الخاص به : وإذا كان ذلك كذلك فيجب أن / تكون غاية . ب /
الإنسان فى أفعاله التى تخصه دون سائر الحيوان ؛ وهذه أفعال النفس
الناطقة . ولما كانت النفس الناطقة جزأين : جزء عملى وجزء علمى ،
وجب أن يكون المطلوب الأول منه هو أن يوجد على كماله فى هاتين
القوتين ، أعنى الفضائل العملية والفضائل النظرية ، وأن تكون الأفعال
التي تكسب النفس هاتين الفضيلتين هى الخيرات والحسنات ، والى تعوقها
هى الشرور والسيئات .

ولما كان تقرير هذه الأفعال أكثر ذلك بالوحى وردت الشرائع
بتقريرها ، ووردت مع ذلك بتعريفها والحث عليها . فأمرت بالفضائل
ونُهت عن الرذائل ، وعرفت المقدار الذى فيه سعادة جميع الناس فى العلم
والعمل ، أعنى السعادة المشتركة . فعرّفت من الأمور النظرية ما لا بد لجميع
الناس من معرفته ، وهى معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة الملائكة ومعرفة
الموجودات الشريفة ، ومعرفة السعادة . وكذلك عرّفت من الأعمال القدر
الذى تكون به النفوس قاضلة بالفضائل العملية ، وبخاصة شريعتنا هذه .

(١) فى « ١ » : إنما خلق

(٢) فى « ب » : نسخة موالر « فظهر »

فإنه إذا قويت بسائر الشرائع وجد أنها الشريعة الكاملة باطلاق^(١)، ولذلك كانت خاتمة الشرائع.

ولما كان الوحي قد أُنذِر في الشرع كلها بأن النفس باقية، وقامت البراهين عند العلماء على ذلك، وكانت النفوس يلحقها، بعد الموت، أن تعرى من الشهوات الجسمانية [فإن كانت زكية، تضاعف زكاؤها بتمهيتها من الشهوات الجسمانية]^(٢) وإن كانت خبيثة زادت مفارقة خبيثاً؛ لأنها تنأذى بالردائل التي اكتسبت، وتشتد حسرتها على ما فاتها من الزكية عند مفارقتها البدن؛ لأنها ليست يمكنها الاكتساب إلا مع هذا البدن، وإلى هذا المقام الإشارة بقوله [تعالى]^(٣) : « أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت [في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين] »^(٤) — اتفقت^(٥) الشرائع على تعريف هذه الحال للناس /، وسموها السعادة الأخيرة والشقاء الأخير^(٦).

ولما كانت هذه الحال ليس لها في الشاهد مثال، وكان مقدار ما يدرك بالوحي منها يختلف في حق نبي نبي، لتفاوتهم في هذا المعنى، أعني في الوحي، اختلفت الشرائع في تمثيل الأحوال التي تكون لأنفس السعداء بعد الموت، ولأنفس الأشقياء. فمنها ما لم يمثل ما يكون هنالك للنفوس الزكية من اللذة، وللشقيفة من الأذى، بأمور شاهدة، وصرخوا بأن ذلك كله أحوال روحانية، ولذات مملكية. ومنها ما اعتد في تمثيلها بالأمور المشاهدة، أعني أنها مثلت اللذات المدركة هنالك بالذات المدركة هنا، بعد أن نفي^(٧) عنها ما يقترن بها من الأذى. ومثلوا الأذى الذي يكون

(١) «ب» : بالاطلاق
(٢) سقط في «ب»
(٣) زيادة في «ا»
(٤) سقط في «ا»
(٥) جواب «ا»، فالفقرة كلها جملة واحدة.
(٦) هنا زيادة في «ا»
(٧) في «ا» : نفوا.

هنالك بالأذى الذى يكون ههنا ، بعد أن نفوا عنه هنالك ما يقترن به ههنا من الراحة منه : إما لأن أصحاب هذه الشرائع أدركوا من هذه الأحوال بالوحى ما لم يدركها أولئك الذين مثلوا بالوجود الروحاني ، وإما لأنهم رأوا أن التمثيل بالمحسوسات هو أشد تفهما للجمهور ، والجمهور إليها سوعها أشد تحركا ، فأخبروا أن الله يعيد النفوس السعيدة إلى أجساد تنعم فيها الدهر كله بأشد المحسوسات نعيما ، وهو مثلا الجنة ، وأنه تعالى يعيد النفوس الشقية إلى أجساد تتأذى فيها الدهر كله بأشد المحسوسات تآذى ، وهو مثلا النار .

وهذه هي حال شريعتنا هذه ، التي هي الإسلام ، في تمثيل هذه الحال .
سوررت عندنا في السكتاب العزيز أدلة مشتركة التصديق للجميع في إمكان هذه الأحوال ؛ إذ ليس يدرك العقل في هذه الأشياء أكثر من الإمكان في الإدراك المشترك للجميع . وهي كلها من باب قياس إمكان وجود المساوى على وجود مساويه ، أعنى على خروجه لوجوده ؛ وقياس إمكان وجود الأقل والأكثر على خروج الأعظم والأبزر لوجوده ، مثل قوله :
﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، الآية . فإن الحجة في هذه الآيات هي ٧١/ب
من جهة قياس العودة على البداية وهما متساويان . وفي هذه الآية ، مع هذا القياس المثبت لإمكان العودة ، كسر شبهة المعاند لهذا الرأي بالفرق بين البداية والعودة ، وهو قوله تعالى : « الذى جعل لكم من أشجار الأنضف ناراً ، والشبهة أن البداية كانت من حرارة ورطوبة والعودة من برد ويبس ؛ فعرفنا هذه الشبهة بأننا نحس أن الله تعالى يخرج الضد من الضد ، ويخلق (١) منه ، كما يخلق الشبيه من الشبيه . وأما قياس إمكان وجود الأقل على وجود الأكثر فنل قوله تعالى في الآية : « أو ليس الذى خلق

السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم لى وهو الخلاق العليم .
فهذه الآيات تضمنت دليلين على البعث وإبطال حجة الجاحد للبعث .
ولو ذهبنا لتقصى الآيات الواردة فى الكتاب العزيز لهذه الأدلة اطال
القول ، وهى كلها من الجنس الذى وصفنا .

فالشرائع كلها — كما قلنا — متفقة على أن للنفوس بعد الموت أحوالاً
من السعادة أو الشقاء ، ويختلفون فى تمثيل هذه الأحوال وتفهم وجودها
للناس . ويشبه أن يكون التمثيل الذى فى شريعتنا هذه أتم إفهاماً لأكثر
الناس وأكثر تحريكا لنفوسهم إلى ما هنالك . والأكثر هم المقصود الأول
بالشرائع . وأما التمثيل الروحاني فيشبه أن يكون أقل تحريكا لنفوس
الجمهور إلى ما هنالك . والجمهور أقل رغبة فيه ، وخوفاً له منهم فى التمثيل
الجسماني . [ولذلك يشبه أن يكون التمثيل الجسماني]^(١) أشد تحريكا إلى
ما هنالك من الروحاني ، والروحاني أشد قبولا عند المتكلمين المجادين
من الناس ، وهم الأقل .

١ / ٧٢ ولهذا المعنى نجد أهل الإسلام^(٢) فى فهم التمثيل الذى جاء فى ملتنا
فى أحوال المعاد ثلاث فرق :

فرقة رأت أن ذلك الوجود هو بعينه هذا الوجود الذى همنا من
النعيم واللذة ، أعنى أنهم رأوا أنه واحد بالجنس ، وأنه إنما يختلف
الوجودان بالدوام والانقطاع ، أعنى أن ذلك دائم ، وهذا منقطع .
وطائفة رأت أن الوجود متباين ، وهذه انقسمت قسمين :
فطائفة^(٣) رأت أن الوجود الممثل بهذه المحسوسات هو روحاني ،

(١) سقط فى د ب ،

(٢) فى « ١ » : قد انقسموا

(٣) هكذا فى نسخة « س » فقط

وأنه إنما مثل به إرادة البيان ولهو لا حجج كثيرة من الشريعة فلا معنى لتعديدها^(١).

وطائفه رأت أنه جسماني ، ولكن اعتقدت أن تلك الجسمانية الموجودة هناك مخالفة لهذه الجسمانية لسكون هذه بالية وتلك باقية . ولهذا أيضاً حجج من الشرع ، ويشبه ابن عباس أن يكون بمن يرى هذا الرأي ؛ لأنه روى عنه أنه قال : « ليس في الدنيا من الآخرة إلا الأسماء » ، ويشبه أن يكون هذا الرأي هو أليق بالخواص^(٢) وذلك أن إمكان هذا الرأي ينبني على أمور ليس فيها منازعة عند الجميع : أحدها أن النفس باقية ، والثاني أنه ليس يلحق عن^(٣) عودة النفس إلى أجسام آخر الحال الذي يلحق عن عودة تلك الأجسام بعينها . وذلك أنه يظهر أن مواد الأجسام التي ههنا توجد متعاقبة ومتتصلة من جسم إلى جسم ، وأعني أن المادة الواحدة بعينها توجد لأشخاص كثيرة في أوقات مختلفة ،

(١) أنظر تهافت التهافت طبعة بيروت ص ٥٨٧ ، حيث يتقدم ابن رشد التزائي ، فيقول : « وقال في هذا الكتاب إنه لم يقل أحد من المسلمين بالمعاد الروحاني ، وقال في غيره إن الصوفية يقولون به . وعلى هذا فليس يكون تكفير من قال بالمعاد الروحاني ولم يقل بالمحسوس إجماعاً ، وجوز هو القول بالمعاد الروحاني . وقد تردد أيضاً في غير هذا الكتاب في التكفير بالإجماع ، وهذا كله كما ترى ، تخليط ، ولا شك في أن هذا الرجل أخطأ في الشريعة ، كما أخطأ على الحكمة . والله الموفق للصواب ، المختص بالحق من يشاء » .

(٢) وهو الرأي الذي ارتضاه ابن رشد لنفسه في آخر كتابه تهافت التهافت : ولعلك كان تمثيل المعاد لهم بالأمور الجسمانية أفضل من تمثيله بالأمور الروحانية ، كما قال سبحانه : « مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار » وقال النبي عليه السلام : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر فدل على أن ذلك الوجود نشأة أخرى أعلى من هذا الوجود وطور آخر أفضل من هذا الطور والذين شكوا في الأشياء وتعرضوا لذلك وأنصحوها به إنما هم الذين يقصدون إبطال الصرائع وإبطال الفضائل وهي الزنادقة ومما قاله هذا عليه الدلائل العقلية والفكرية ، وأن بوضع أن التي تعود هي أمثال هذه الأجسام التي

كانت في هذه الدار لا هي بعينها الخ .

(٣) في « أ » و « ب » : عند .

وأمثال هذه الأجسام ليس يمكن أن توجد كلها بالفعل ؛ لأن مادتها هي واحدة . . مثال ذلك أن إنسانا مات ، واستحال جسمه إلى التراب ، واستحال ذلك التراب إلى نبات ، فاغتذى إنسان آخر من ذلك النبات ، فكان منه منى تولد منه إنسان آخر . وأما إذا فرضت أجسام آخر فليس تلحق هذه الحال .^(١)

/ والحق في هذه المسألة أن فرض كل إنسان فيها هو ما أدى إليه نظره ٢٢/ب فيها ، بعد ألا يكون نظراً يفرض إلى إبطال الأصل جملة ، وهو إنكار الوجود جملة . فإن هذا النحو من الاعتقاد يوجب تكفير صاحبه ، لكون العلم بوجود هذه الحال للإنسان معلوماً للناس بالشرائع والعقول . فهذا كله يبنى على بقاء النفس .^(٢)

فإن قيل : فهل في الشرع دليل على بقاء النفس أو تنبيه على ذلك ؟

قلنا : ذلك موجود في الكتاب العزيز ، وهو قوله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، الإية . ووجه الدليل في هذه الآية أنه سوى فيها بين النوم والموت في تعطيل فعل النفس . فلو كان تعطل فعل النفس في الموت لفساد النفس ، لا بتغير^(٣) آلة النفس ، لقد كان يجب أن يكون تعطل فعلها في النوم لفساد ذاتها . ولو كان ذلك كذلك لما عادت ، عند الانتباه ، على هيئتها . فلما كانت تعود عليها علمتنا أن هذا التعطل لا يعرض لها ، لأمر لحقها في جوهرها ، وإلما هو شيء .

(١) في « ١ » : فليس يلحق هذا الحما

(٢) في « ١ » زيادة : « وأما الجمهور فليس تتحرك خواطرهم لشيء من تصحيح هذه التصورات في الماد ، وإنما تتحرك خواطرهم إلى التزام المراتب والعمل بالفرائض . » ولـ يمكن هذه الفقرة تشعرا بأن كاتب المخطوط يريد الدس لأن رشد بتجوير فكرته الحققة : من قبل رأيا أنه يصفه بأنه من الباطنية .

(٣) في « ١ » : انتفر .

لحقها من قبل تعطل آلتها ؛ وأنه ليس يلزم إذا تعطلت الآلة أن تتعطل النفس . والموت هو تعطل . فواجب أن يكون الآلة^(١) كالحال في النوم ، وكما يقول الحكميم : إن الشيخ لو وجد عيناً كعين الشاب لأبصر كما يبصر الشاب .

فهذا ما رأينا أن ثبتته في الكشف عن عقائد هذه الملة ، التي هي ملتنا ، ملة الإسلام .

(١) في « ا » : أن تكون لكان سطر الآلة .

[خاتمة]

قانون التأويل

وقد بقي علينا ما وعدنا به ، أن ننظر فيما يجوز من التأويل في الشريعة وما لا يجوز ، وما جاز منه فلن يجوز ؟ ونختم به القول في هذا الكتاب .
فنقول : إن المعاني الموجودة في الشرع توجد على خمسة أصناف .
وذلك أنها تنقسم أولاً إلى صنفين : صنف غير منقسم ، وينقسم الآخر منهما إلى أربعة أصناف .

١/٧٢

فالصنف الأول / الغير منقسم هو أن يكون المعنى الذي صرح به هو بعينه المعنى الموجود بنفسه .

والصنف الثاني المنقسم هو ألا يكون المعنى المصرح به في الشرع هو المعنى الموجود ، وإنما أخذ بدله على جهة التثيل .

وهذا الصنف ينقسم أربعة أقسام :

أولها : أن يكون الذي صرح بمثاله لا يعلم وجوده إلا بمقابليس بعيدة مركبة ، تتعلم في زمان طويل وصنائع جمّة وليس يمكن أن تقبلها إلا الفطر الفائقة ، ولا يعلم أن المثال الذي صرح به فيه هو غير المثال إلا بمثل هذا البعد الذي وصفنا .

والثاني : مقابل هذا ، وهو أن يكون يُعلم بعلم قريب منه الأمران جميعاً أعني كون ما صرح به أنه مثال ، ولماذا هو مثال .

والثالث : أن يكون يُعلم بعلم قريب أنه مثال لشيء ، ويعلم لماذا هو مثال بعلم بعيد .

والرابع؛ عكس هذا ، وهو أن يُعلم يعلم قريب لماذا هو مثال ، ويعلم بِعلم بعيد أنه مثال .

فأما الصنف الأول من الصنفين الأولين فتأويله خطأ بلا شك .

وأمّا الصنف الأول من الثاني ، وهو البعيد في الأمرين جميعاً فتأويله خاص في الراسخين في العلم ، ولا يجوز التصريح به لغير الراسخين .
وأمّا المقابل لهذا ، وهو القريب في الأمرين ، فتأويله هو المقصود منه والتصريح به واجب .

[وأما الصنف الثالث فالأمر ليس فيه كذلك]^(١) لأن هذا الصنف لم يأت فيه التمثيل [من أجل بعده على أفهام الجمهور ، وإنما أتى فيه التمثيل]^(٢) ، لتحريك النفوس إليه ، وهذا مثل قوله عليه السلام : الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، وغيره مما أشبه هذا ، مما يُعلم بنفسه ، أو بعلم قريب ، أنه مثال ؛ ويعلم بعلم بعيد لماذا هو مثال . فإن الواجب في هذا ألا يتأوله إلا الخواص من العلماء . ويقال للذين شعروا أنه مثال ، ولم يكونوا من أهل العلم لماذا هو مثال : إما أنه من المتشابه [الذي ٧٣/ب يعلمه الراسخون]^(٣) ؛ وإما أن ينقل التمثيل فيه لهم إلى ما هو أقرب من معارفهم أنه مثال . وهذا كأنه أولى من جهة إزالة الشبهة التي في النفس من ذلك . والقانون في هذا النظر هو ما سلكه أبو حامد في كتاب التفرقة^(٤) وذلك بأن يعرف هذا الصنف ن الشيء الواحد بعينه له وجودات خمس ، الوجود الذي يسميه أبو حامد : الذاتي ، والحسي ، والخيالي ، والعقلي ، والشهبي . فإذا وقعت المسألة نُظِرَ أي هذه الوجودات

(٢) سقط في « ١ » .

(١) سقط في « ١ » وفي « س »

(٣) هذا الجزء مطبوس في نسخة س .

(٤) مثال لإعصاف ابن رشد لغيره من الباحثين عند ما يصيبون الحقيقة قبله .

الأربعة هي أقنع عند الصنف الذي استحال عندهم أن يكون الذي عُني به هو الوجود^(١) الذاتي ، أعني للذي هو خارج ، فينزل لهم هذا التمثيل على ذلك الوجود الأغلب في ظنهم إمكان وجوده . وفي هذا النحو يدخل قوله عليه السلام : « ما من شيء لم أره إلا وقد رأيته في مقامى هذا حتى الجنة والنار » ، وقوله : « بين حوضى ومنبرى روضة من رياض الجنة ، ومنبرى على حوضى » ، وقوله : « كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب » ، فإن هذه كلها تدرك بعلم قريب أمثال ، وليس يدرك لماذا هي أمثال إلا بعلم بعيد . فيجب في هذا أن ينزل للصنف الذين شعروا بهذا من الناس على أقرب تلك الوجودات الأربع شهاً ، فهذا النحو من التأويل إذا استعمل في هذه المواضع ، وعلى هذا الوجه ، ساغ في الشريعة . وأما إذا استعمل في غير هذه المواضع فهو خطأ ، وأبو حامد لم يفصل الأمر في ذلك ، مثل أن يكون الموضع يعرف منه الأمران جميعاً بعلم بعيد^(٢) أعني كونه مثلاً ولماذا هو مثال ؛ فيكون هنالك شبهة توهم في بادى الرأي ، أنه مثال وهذه الشبهة باطلة . فإن الواجب في هذا أن تبطل تلك الشبهة ، ولا يعرض للتأويل ، كما عرفناك في هذا الكتاب في مواضع كثيرة عرض فيها هذا الأمر للمتكلمين ، أعني الأشعرية والمعتزلة . ٧٤/ب

وأما الصنف الرابع ، وهو المقابل لهذا ، وهو أن يكون كونه مثلاً معلوماً بعلم بعيد ، إلا أنه إذا سلم أنه مثال ظهر عن قريب لماذا هو [مثال]^(٣) ، ففي تأويل هذا أيضاً نظر ، أعني عند الصنف الذين يدركون أنه إن كان مثلاً فلماذا هو ، وليس يدركون أنه مثال إلا بشبهة وأمر مقنع ؛ إذ ليسوا من العلماء الراسخين في العلم . فيجتمل أن يقال إن الاحفظ

(٢) هذا هو الصنف الأول من القسم الثاني .

(١) في س : الوجود

(٣) سقط في « ب » .

بالشرع ألا تتأول هذه ، وتبطل عند هؤلاء الأمور التي ظنوا من قبلها أن ذلك القول مثال وهو الأولى . ويحتمل أيضاً أن يطلق لهم التأويل لقوة الشبه الذي بين ذلك الشيء وذلك الممثل به ؛ إلا أن هذين الصنفين متى أسيح التأويل فيهما تولدت منهما اعتقادات غريبة ، وبعيدة من ظاهر الشريعة . وربما فشلت فأنكرها الجمهور . وهذا هو الذي عرض للصوفية ونحن سلك من العلماء هذا المسلك .

* * *

ولما تساطط على التأويل في هذه الشريعة من لم تتميز له هذه المواضع ، ولا تميز له الصنف من الناس الذي يجوز التأويل في حقهم ، اضطرب الأمر فيهما ، وحدث فيهم فرق متباينة يكفر بعضهم ببعضاً . وهذا كله جهل بمقصد الشرع ، وتعد عليه . وأنت فقد وقفت من قولنا على مقدار الخطأ الواقع من قبل التأويل . وبودنا أن يتفق لنا هذا الغرض في جميع التأويل للشرعية ، أعني أن نتكلم فيها بما ينبغي أن يؤول أولاً يؤول ، وإن أوّل ، فعند من يؤول ، أعني في جميع المشكل الذي في القرآن والحديث ؛ ونعرف رجوعها كلها إلى هذه الأصناف الأربعة .

والغرض الذي قصدناه في هذا الكتاب فقد انقضى . وإنما قدمناه لأننا رأيناه / أهم الأغراض ^(١) المتعلقة بالشرع . والله الموفق للصواب ٤/٧ د
الكفيل بالثواب بمنه ورحمته . وكان الفراغ منه في سنة خمس وسبعين وخمسة

(١) توجد هنا في « ١ » فقرة ماله ذائبة هي التي سقطت في نسخة ٣ - -

فهرس

مقدمة في نقد مدارس علم الكلام [من ص ٣ إلى ص ١٢٩]

١٠ - علم الكلام والفلسفة ٣ - ١٠

٢ - أدلة وجود الله ١١

١ - أدلة المعتزلة والأشاعرة :

١ - دليل الجوهر الفرد ١٢ - ١٥

٢ - دليل الممكن والواجب ١٥ - ١٨

ب - أدلة الماتريدي :

١ - دليل الأشياء الحية وغير الحية ١٩ - ٢٠

٢ - دليل الأعراض المتضادة ٢٠ - ٢١

٣ - برهان المتناهي واللامتناهي ٢١

٤ - دليل السببية والتغير والعناية ٢١ - ٢٣

ح - دليل الصوفية ٢٣ - ٢٤

و - أدلة ابن رشد

١ - دليل العناية ٢٥ - ٢٦

٢ - دليل الاختراع أو السببية ٢٦ - ٢٨

٣ - الوحدانية

١ - دليل الفلاسفة ٢٩ - ٣١

ب - دليل المتكلمين ٣١ - ٣٣

ح - وجهة نظر ابن رشد ٣٤ - ٣٦

٤ - مشكلة الصفات والذات :

١ - المشبهة ٣٧ - ٣٨

ب - المعتزلة ٣٨ - ٤٠

ح - الفلاسفة ٤٠

المفحة	الموضوع
٤٣ - ٤٠	و - الأشاعرة
٤٥ - ٤٣	هـ - الماتريدية
٤٨ - ٤٥	ز - ابن رشد
٥٠ - ٤٨	٥ - صفات الأفعال
	٦ - العلم :
٥١ - ٥٠	أ - المعتزلة
٥٣ - ٥١	ب - الأشاعرة
٥٣	ج - الماتريدية
٥٦ - ٥٣	د - ابن رشد
	٧ - الإرادة :
٥٧ - ٥٦	أ - المعتزلة
٦٠ - ٥٧	ب - الأشعرية
٦١ - ٦٠	ج - الماتريدية
٦٢ - ٦١	د - ابن رشد
	٨ - مشكلة خلق القرآن :
٦٥ - ٦٣	أ - المعتزلة
٦٦ - ٦٥	ب - ابن حنبل
٧٠ - ٦٦	ج - الأشعري
٧١ - ٧٠	د - الماتريدي
٧٢ - ٧١	هـ - ابن رشد
	٩ - الجهة :
٧٣	أ - المشبهة والكرامية
٧٤	ب - المعتزلة
٧٧ - ٧٤	ج - الأشعري
٧٩ - ٧٨	د - الماتريدي
٨١ - ٧٩	هـ - ابن رشد

الصفحة	الموضوع
	١٠ — الرواية :
٨٢ — ٨١	أ — المعتزلة
٨٤ — ٨٢	ب — الأشعرية
٨٦ — ٨٥	ج — الماتريدية
٨٨ — ٨٦	د — ابن رشد
	١١ — العدل والجور
٩٢ — ٨٩	أ — المعتزلة
٩٩ — ٩٢	ب — الأشعرية
١٠١ — ٩٩	ج — الماتريدية
١٠٤ — ١٠١	د — ابن رشد
١٠٤	١٣ — القضاء والقدر
١٠٦ — ١٠٥	أ — الجبرية
١٠٧ — ١٠٦	ب — المعتزلة
١١١ — ١٠٧	ج — الأشعرية
١١٦ — ١١١	د — الماتريدية
١١٩ — ١١٦	هـ — ابن رشد
١٢٦ — ١٢٠	١٣ — خلاصة
١٢٩ — ١٢٧	١٤ — تحقيق النص

فهرس مناهج الأدلة في عقائد الله

الفصل الأول [ص ١٣٢ — ص ١٥٤]

البرهنة على وجود الله

١٣٥ — ١٣٤	١ — دليل أهل الظاهر
	٢ — دليل الأشعرية
١٤٤ — ١٣٥	١ — دليل الجوهر الفرد
١٤٩ — ١٤٤	ب — دليل الممكن والواجب

الصفحة

الموضوع

٣ - أدلة ابن رشد :

١ - دليل العناية ١٥٠ - ١٥١

ب - دليل الاختراع ١٥١ - ١٥٤

الفصل الثاني [ص ١٥٥ - ص ١٥٩]

القول في الوجدانية

١ - دليل الأشعرية ١٥٥ - ١٥٨

٣ - وجهة نظر ابن رشد ١٥٨ - ١٥٩

الفصل الثالث [ص ١٦٠ - ص ١٦٧]

في الصفات

الفصل الرابع [ص ١٦٨ - ص ١٩١]

في معرفة التنزيه

١ - نفي المماثلة بين الخالق والمخلوق ١٦٨ - ١٧٠

٣ - القول في الجسمية ١٧٠ - ١٧٦

٣ - القول في الجهة ١٧٦ - ١٨٥

٤ - مسألة الرؤية ١٨٥ - ١٩١

الفصل الخامس [ص ١٩٢ - ص ٢٥١]

في معرفة أفعال الله

١ - المسألة الأولى : في إثبات خلق العالم ١٩٣ - ٢٠٧

٢ - المسألة الثانية : بحث الرسل ٢٠٨ - ٢٢٢

٣ - المسألة الثالثة : في القضاء والقدر ٢٢٣ - ٢٣٣

٤ - المسألة الرابعة : في الجور والعدل ٢٣٤ - ٢٣٩

٥ - المسألة الخامسة : في المعاد ٢٤٠ - ٢٥١

فهرس المكتتاب ٢٥٢ - ٢٥٥

فهرس الأعلام ٢٥٦ - ٢٥٨

استدراك ٢٥٩

فهرس الاعلام

(ا)

ابراهيم الخليل (عليه السلام) : ١٥٤ ، ١٧٣

ابن تيمية : ١٠٨ ، ٤٤

ابن حنبل : ٦٥ ، ٦٦

ابن رشد : ٥ ، ٣ — ٨ ، ٦ — ٩ ، ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٣ — ٢٥ ، ٢٨

٣٠ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٤٤ — ٤٨ ، ٥١ ، ٥٣ — ٥٩ ، ٦١ ، ٧١ — ٧٣

٧٧ ، ٧٩ — ٨٠ ، ٨٦ — ٨٧ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٨ — ١١٩

١٢٥ — ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٨٤

ابن سينا : ٢٢ ، ١٤٦ ، ١٨٣

ابن عباس : ٢٤٥

أبو حنيفة : ٦٧ ، ٦٩ ، ١١١

أبو يوسف : ٦٩

أحمد أمين : ٦٣ ، ٦٥ — ٦٦ ، ٩٤

أرسطو : ٢٣ ، ٢٨ ، ١٤٦

الاسفراييني : ١٠٥

الاشعري : ٢٣ ، ٤٠ — ٤٤ ، ٥١ — ٥٢ ، ٥٨ — ٥٩ ، ٦١ ، ٦٦ —

٧٠ ، ٧٤ — ٧٧ ، ٧٩ — ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٢ — ٨٩ ، ١٠٣

١٠٧ — ١١١ ، ١١٥ ، ١٢٢ — ١٢٤ ، ٢٠١

أفلاطون : ٢٨ ، ١٤٦

أفلوطين : ٣٠

(ب)

البصري (أبو الحسين) : ٣٧

البغدادي : ١٠٥

(ت)

التفتازاني : ٣٢
توماس الأكويني : ٣٠ ، ١٦

(ج)

جمال الدين الأفغاني : ٨٠ ، ٥
الجهنم بن صفوان : ١٠٨ ، ١٠٥
جوتيه : ٣٧
الجويني (أبو المعالي) : ١٥٠ ، ٧٠ ، ١٥٠ ، ١٤٦ ، ١٧٦ ، ١٨٨

(ح)

الحجاج : ٩٥
الحسن البصري : ١٠٧

(د)

ديمقريطس : ١٢ - ١٣

(ز)

زياد بن أبيه : ٩٥

(ش)

الإمام الشافعي : ٣٦
الشهرستاني : ١٠٥ ، ٦٦ ، ٣٨

(ع)

عبد الله بن عثمان (مستجى زاده) : ١٢٨
العلاف (أبو الهذيل) : ٥٥
علي النشار (الدكتور) : ١٠٨ ، ٨٩

(غ)

الغزالي (أبو حامد) : ١٣ ، ٩ ، ٣٩ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ١٠١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ،
١٨٢ - ١٨٣

(ف)

الفارابي : ٢٩ ، ٢٢ — ١٨٣ ، ٥٥ ، ٣١

فرعون : ١٧٤

فولتير : ٩٥

(ق)

القشيري : ٩٤

قطري بن الفجاءة : ٩٥

(ك)

الكمبي : ٨٥ — ٨٦

الكرماني (حميد الدين) : ٤٤

الكندي : ٢٩ ، ٢٢ ، ٢١ ، ١٠ ، ٩ ، ٨

(م)

محمد عبده : ١٢٤ ، ٨٤ ، ٥

محمد عبد الهادي أبو ريدة (الدكتور) : ١٢٧

الماتريدي (أبو منصور) : ١٨ ، ٢٢ ، ٢٢ — ٤٢ ، ٣٣ — ٤٩ ، ٤٥ — ٥١

٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٥ — ٨٦ ،

٩١ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١

مالك (الإمام) : ٣٦

المأمون : ٦٢ ، ٥

المعتصم : ٦٢ ، ٥

موسى (عليه السلام) : ٧ ، ٨٣ ، ١٦٣ ، ١٧٤

(ر)

واصل بن عطاء : ٣٨

إستدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٧	٨	كذلك قال	كذلك كذب
٧٩	١٢	الداع	الداعي
٩١	١٥	أقبلوا	قبلوا
١١١	٢	ح -	و -
١١٦	٢٠	و -	ه -
١٢١	٧	الكافر	الكافر
١٢٨	١٠	خلقها	خلصها
١٢٨	٢١	جملة	جملة
١٥٥	هامش ٢	غير فاعل	-
١٧٢	هامش ٣	اعتقدوا	اعتقدت
١٧٤	٥	في ارشاد	[في ارشاد
١٧٩	٤	ولا	والا
١٨٠	٧	النصف	الصف
١٨٢	١٥	المسائل	مسائل
١٨٥	٤	وإذا	ولذ
١٨٦	٤	رفع	دفع
١٨٨	١٨	المتكلمون	المتكلمون

سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

أسماء الكتب التي ظهرت في هذه السلسلة :

- ١ - المنقذ من الضلال لمحجة الإسلام الغزالي
مع مقدمة مستفيضة عن قضية التصوف
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٢ - فلسفة ابن طفيل. ورسالته وحى بن بطران
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٣ - ابن رشد وفلسفته الدينية
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٤ - التصوف عند ابن سينا (نقد)
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٥ - التفكير الفلسفي في الإسلام (جزءان)
للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
- ٦ - مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
مع مقدمة في نقد مدارس علم الكلام (الطبعة الثانية)
- ٧ - جمال الدين الأمازيغي حياته وفلسفته
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٨ - الإسلام في أمسه وعظمه
للأستاذ الدكتور محمود قاسم
- ٩ - كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستاني
تخريج الأستاذ محمد بن فتح الله بدران
(القسم الأول)
- ١٠ - كتاب الملل والنحل للإمام الشهرستاني
تخريج الأستاذ محمد بن فتح الله بدران
(القسم الثاني)
- ١١ - أصول الفلسفة الإشرافية
للدكتور محمد علي أبو ريان
- ١٢ - فيشته وغاية الإنسان
للدكتور فوقيه حسين محمد



Bibliotheca Alexandrina



0389779